صوفي عبد الله

اقرأ

عاصفة في قلب





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السّيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



صوفي عبدالله



عاصفة قلب

اقرأ ٣٦٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٦٩ - يوليو سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج٠م٠ع ٠

الإهداء

إلى يد الزمن . . . .

التى تجرح وتأسو . . . . .

إلى عجلة الزمن :

التى تلهب . ثم تخمد . . ثم تنسى . . .

إلينا . نحن المساكين من البشر . . . .

أبناء حواء . . .

صوفى عبد الله

١

جلس إلى مائدة الإفطار فى هدوء يكاد يبلغ حد التباطؤ والتراخى وفى يده صحف الصباح الثلاثة ، وقال وهو يفتح إحداها من غير أن ينظر إلىّ بصوت لا يشى بشىء على الإطلاق :

ـ كيف أصبحت؟

وتشاغلت بترتيب الآنية على المائدة دون أن ألتفت إليه. فن العبث أن تواجه عيناى نظرة الأسى الذى يكبحه كبرياء مترفع ، فيبدو الوميض المنطلق من عينيه وكأنه أسلاك شائكة تحمى سريرته الجريحة من فضول الغرباء . . . وعرفت مكانى خارج السياج الشائك منذ زمن . وانقضت لحظة طويلة من الصمت قبل أن أجيبه وأنا أضع أمامه طبقه المفضل من الفول المزوج بدقة السمسم وسلطة الطحينة ، وإلى جوار الطبق كوب القهوة الساخن :

ـ الحمد لله . . .

وكان فى وسعى أن أدع للخادم كل هذه المهام . وكان ذلك خليقاً أن يوفر على نفسى عناء ذلك الموقف الشاق الذى أواجهه كل صباح . وكان ذلك خليقاً أيضاً أن يترك للقرحة فرصة الاندمال . فهذا النبش المتكرر يجدد الالتهاب . وتتدفق أحماض جديدة إلى حلقى . ومع هذا كنت أنتظر هذه الدقائق من العذاب الصامت فى لهفة مرضية كأنها

الجنون . وأتصدى لنظراته التى أحس وقعها وإن لم يوجهها بحيث تسقط على وجهى مطلقاً .بل قصاراه أن يتتبع حركات يدى. . . . . وحتى هذا لم يكن يحدث إلا فى لحظات نادرة عابرة ، حينما أسوى بأناملى غطاء المائدة أو أقرب منه وعاء الملح.

هل كنت أستعذب هذا العذاب ؟ هل كنت أعتبره قصاصاً يجب أن أتحمله كى أفوز بالتكفير الذى لا راحة لى بدونه ؟ لا أظن شيئاً من ذلك صحيحاً . فلم أكن فى يوم من الأيام امرأة خرعة نهباً للصراع وأمراض الأعصاب. و إنى أدرك تمام الإدراك أن فى استطاعتى الإقامة بمفردى . فلى مواردى الخاصة التى تكفل لى معيشة معقولة . ولكنى لم أذهب بعيداً عن هذا المسرح المشحون بالتوتر والعذاب ، لا لشىء إلا لأنى لا أريد الذهاب . . . .

ولماذا لا أريد ؟

للسبب نفسه الذى من أجله لم يشأ هو أن يذهب ويترك الدار . لم يكن هناك ما يمسكه عن الذهاب سوى أنه لا يريد .. فليس لنا أولاد . هو لم يرد وأنا لا أريد . وهكذا بقينا وصمدنا فى مسرح التوتر والعذاب .

لم يكن لأحدنا غنى عن الآخر . فكان لابد لنا أن نبقى معاً . ولو لم يبق بيننا من فردوس حبنا القديم إلا هذه الشجرات الشائكة من نبات الصبار ، كتلك التى تنمو فى القرافة على شواهد القبور فى جوف الصحراء . . .

لم يكن أمامى ما أعمله وأنا ملازمة البيت لا أغادره سوى أن أفكر تفكيراً متواصلا مضنياً . وأجوب فى رحلات وعرة المسالك جوانب نفسى . . . . كلا ! ليس التفكير ما أرمى إليه . لأن الغفران لم يخطر ببالى. فماذا عساى أصنع بذلك الشيء المسمى غفراناً ؟ ما معناه وأى قيمة له؟ إنه عاطفة تافهة بلهاء . فزمام المسألة عند الإنسان القوى المفتوح العينين فى يده وحده . إذا فهم نفسه فلا قيمة بعد هذا لغفران الآخرين .

ومصيبتى أن مأساتى كانت أكبر من كل غفران . لأنى كنت دائماً امرأة مفتوحة العينين . فليس لى عذر الغفلة . . . تلك الغفلة التى تنهض على الدوام عنصراً مخففاً ومبرراً للرحمة عند صدور الأحكام وأنا قاضية نفسى . . . وأعلم أننى كنت دائماً مفتوحة العينين . لم أغمضهما لحظة واحدة . . . بل جاءت زلتى من هذا الطريق ، طريق عينى المفتوحتين على الدوام . . . .

ولكن هل كنت أنا المذنبة وحدى ؟

هذا هو السؤال الذى كان يضنينى التفكير فيه فى أيام وحدتى الطويلة.

ألم يكن له ضلع فيما انتهت إليه الأمور ؟ لماذا كان سمحاً كريماً معى أكثر مما يمكن أن تتوقع زوجة السماحة والكرم من الرجل الذى تزوجها ؟ لماذا كان يلمح كأنه يقرأ صفحة الغيب ما يدور فى أعماق من إحساسات كان يسميها « مغامرات عاطفية عابرة » ، فيصارحنى بها وهو يهون على أمرها ، فأعترف له وأنا مبهورة بهدوئه المطمئن وذكائه

اللماح . وعندئذ يهدهدنى كالأب الرحيم ، ويزعم أن « السم الذى لا يقتلنا يزيدنا قوة » ، وأن التجارب الواعية هى التى تنمى الشخصية وتصقلها لأنها تفتح أمامى آفاقاً جديدة لمعرفة الحياة معرفة تمرس واختبار . ويؤكد لى أن المعرفة السطحية عن طريق الاستماع والاعتبار إن هى إلا قشور . أما لباب نفوسنا وشخصياتنا فلا يتكون فى داخلنا إلا حينما تواتينا الشجاعة على النفاذ إلى اللباب ، عن طريق التجربة . وكنت أرفع رأسى عن صدره أحياناً وهو يهمس فى أذنى بكلامه فى صوت هادئ بطىء أجش ، وأتطلع إلى عينيه العسليتين الصافيتين كأنهما بحيرتان من شهد مصفى ، بنظرات تفيض دعابة وعبثاً ، وأقول له فى خبث :

— التجربة ؟ . . . ألسنا ندعو الله حين نصلى ألا يدخلنا فى تجربة ؟

فتومض عيناه سروراً بذلك التحدى لبديهته الوقادة ويربت بأصابعه الشديدة الوطأة على وجنتى كأننى طفلة صغيرة ساذجة تدعى الحذق ويقول :

— التجربة التى يدخلنا فيها سوانا محنة نطلب دفعها بالصلاة . أما التجربة التى ندخلها نحن بعيون مفتوحة . فهذه هى الحياة . هذا هو الخبز اليومى الذى بغيره لا يمكن أن يعيش ذوو الألباب . . . !

ثم يضغط بأطراف أصابعه القوية على جانب رأسى ليعيدها إلى موضعها المستكين فوق صدره، وعندئذ أشعر بالطمأنينة السابغة والهدوء

الآمن يشملنا . وأجد فى نفسى الشجاعة على مواجهة كل شىء مفتوحة العينين . . . لأنى أعلم أنه سيكون دائماً هاهنا ، ليفهم ، ويؤازر ، ويمسح بيده العرق والدموع . . . .

كان يعلم أننى قوية الطبع ، أمينة السريرة . لا أغالط نفسى . ولا أتورط فيما لا أريد . وكان يحس المناعة التى عندى ، مناعة العبادة التى أحملها له ، فتحمينى . من كل ما يصيب مكانه العزيز فى حياتى وقلبى . ولهذا أنفض يدى من أية مغامرة متى وجدتها تنقلب من الهزل العابث إلى الجد الجاد . . .

وهو . . . . سعادته كانت تنبع من مصدر واحد : حبه لى . حبه كان شيئاً مختلفاً تماماً عن الرغبة أو الإعجاب أو إشباع غريزة الاقتناء . . . كان يحبنى لى ، لا له . كان هو لى . فهو يتلمس سعادتى . وأينما كانت هذه السعادة كان يسعده أن أحصل عليها . ويزيد إعزازه لى أننى أمينة بريئة فيما يسميه مغامراتى. يلمحها بإحساسه الداخلى ولا يظهر على وجهه الساكن المستدير أثر مما يلمح . حتى إذا أنس منى جنوحاً إلى المغالاة أو التهور أجلسنى بجواره وحدثنى بصوت هادئ ، وبأسلوب غير مباشر عن أبطال وهميين من أصحابنا . فأدرك أنه يعنينى . وأدرك أنه يعلم . وأستمع إلى تعليقه الفاهم الواعى الذى يقدر العذر ويضع الحد المناسب لكل سلوك . وعندئذ أصارحه بكل شىء و « كل شىء » لم يكن يتجاوز مطلقاً نوبات من التطلع العاطفى . . . كأننى حشرة لها قرون استشعار تستخدمها فى استكشاف

الجنس الآخر ، وتغرى بالنماذج الظريفة منه . . . . وكان يهز رأسه فى هدوء ويبتسم بتسامة خفيفة للغاية ويقول :

— لا عليك . إنك تعرفين دائماً أين ومتى ينبغى الوقوف والانسحاب بقرون الاستشعار . . .

وذات مرة ركبنى حب العبث فسألته :

— وأين ومتى بالضبط ينبغى سحب تلك القرون ؟

فانداحت الابتسامة فى وجهه فزادته استدارة ولمعت عيناه ، فهو لا يفلت فرصة لدعابة ولو على حسابه وقال :

— حينما يكون التقدم بتلك القرون . . . معناه أن ينبت لى أنا قرنان . . . . !

.. فضحكت ولكنى أدركت فى أعماق أنه كعادته لا يكون جاداً مثل جده الذى يخفيه وراء نكاته ومزاحه . وعلمت أنه يعنى ما يقول بحروفه . . .

ولم يكذب ظنى فبعد هنيهة تلاشى كل أثر للضحك من وجهه ، وواجهنى بنظرة صريحة هادئة ولكنها حاسمة وقال :

— المهم أن تكونى مفتوحة العينين . فلا تتورطى فيما لا تعنينه عن إدراك كامل . وبعد ذلك فمسئوليتك فى عنقك . لأنها حياتك وليست حياتى . عزيزة هى على . هذا صحيح . ولكنها حياتك أنت . لك أن تفعلى بها ما تشاءين ، ولكن بالله عليك لا تمتهنيها بالتورط فيما تتبينين بعد فوات الأوان أنه لا يليق بك ! وأنت بعد هذا على بصيرتك .

فتناولت يده ورفعتها إلى فمي وقبلتها فى عرفان . لأنه لا يرى لنفسه سلطاناً على حياتى بل يريد لى أن تكون قيمة حياتى مستمدة من بصيرتى وأمانتى لكرامتى . . . . قبل أن تكون مستمدة من ولائى له ، أو لأسرة ، أو لمجتمع . . . .

ألم يكن مسئولا عما تمخضت عنه هذه الحرية التى منحنى ؟

هذا ما فكرت فيه طويلا . ولم أستطع أن أحقد عليه . لأنه هو الذى خلق قيمتى بتلك الحرية . فزلت وأنا إنسان . وظللت إنسان برغم زلتى . لأنه أتاح لى أن أكون شيئاً ، لا ملك يمين . . . .

لماذا يحنق علىّ إذن ؟

هذا سؤال لم يستغرق لحظة واحدة من تفكيرى. لأنى كنت أعرف جوابه من غير تفكير : لقد خنت الأمانة . أمانتى لا أمانته . لم اكن عند المستوى الذى أهلنى له : مستوى احترامى لبشريتى الحرة الواعية . . . التى لها عينان مفتوحتان .

٢

كان حبنا مضرب الأمثال ، برغم مرور سبعة عشر عاماً على زواجنا حتى ذلك الحين ، وكنا حريصين على إنماء هذا الحب ، فما إن يحدث سوء تفاهم بيننا حتى يكون أحدنا على استعداد لإنهائه أى شكل . لم نكن نشعر أن البادئ بالظلم أظلم ، وأن عليه أن يطلب

العفو ، بل كان يقبل أحدنا على الآخر فيعانقه عناقاً مشبوباً ، فننسى كل شيء تحت حرارة العناق .

كانت أيامنا غراماً متجدداً تزيده الأيام شبوباً ، برغم ما تمتحن به من أحداث ، وأصبح من المحال علينا أن نتصور الحياة لأحدنا بدون الآخر . وعندما فقدنا طفلنا الوحيد ، البالغ من العمر ست سنوات ، بعد زواجنا بسبعة أعوام ، اعتقدنا أن معين الحب قد نضب بيننا لشدة الصدمة التي منينا بها ، بيد أننا كنا واهمين ، إذ زادتنا مصيبتنا التصاقاً وشعوراً بأن لا غنى لأحدنا عن الآخر ، حتى إن عشر سنوات مضت بعد ذلك ونحن لا نزال في نشوة حبنا الأول . . .

فماذا حدث؟ أي محنة ألمت بحياتنا وتركت ندوباً لا يستطيع الزمن محوها ؟

كان الصباح دافئاً مشمساً في ذلك اليوم من أيام الخريف ، منذ خمسة أعوام على وجه التحديد . ولم يكن في البيت ما يشغلني . ولم أجد بي رغبة في الذهاب إلى المنتدى. فأنا في الحقيقة لم أحبب غشيانه ، فكنت لا ألم به إلا في فترات متباعدة جداً . لمجرد تبرير قيمة الاشتراك السنوي . وكنا قد اشتركنا فيه عقب ولادة طفلنا . لأننا قدرنا أن حديقة المنتدى الواسعة الفناء خير مكان يقضي فيه ساعات الصباح نائماً في عربته ، ثم دارجاً على قدميه الصغيرتين ، ثم متسلقاً في عبث جميل وحيوية دافقة أشجارها الباسقة . وأنا أرقبه وفي يدي كتاب . لأني كنت أكره ذلك الوباء المتفشي بين مرتادات المنتدى . وباء تحريك اليدين بلا انقطاع بإبرتي حبك الصوف ، واللسان يتحرك بلا انقطاع في فري

سير الغائبين والغائبات .

وقدر لحديقة المنتدى أن ترى رفيق نائماً لاغياً ، ودارجاً لاعباً لاهياً . ولكنها من أسف لم يقدر لها أن تشهده رائحاً جائياً وفي يده المضرب إلى أرض ملعب التنس أو إلى حمام السباحة ، شأن لداته اليافعين الذين لم تهصر يد المنون أعوادهم الخضراء كما هصرته .

ومنذ سنوات ، على أثر وفاة رفيق ، لم يعد المنتدى مكاناً حبيباً لنفسي إلا حين تهجم عليّ الذكريات السود . وأنا امرأة تحب نفض الأحزان لا تجميعها . حتى إن زوجي كان يقول لي أحياناً :

ـ إن الآلهة التي صنعتك جعلت في جسدك الأنثوي أعصاب رجل . لك إيجابية الرجل . وإقدامه وقوته وثقته . . . ونفوره من الألم . . .

فكنت أجيبه على طريقتي في المعابثة الجريئة .

ـ لابد أنني رجل شاذ . . . يحب فرداً من جنسه ! . . .

رفضت إذن في شيء من الحدة والإباء المترفع فكرة قضاء الصباح في المنتدى . لأن نفسي كانت متفتحة منذ صحوت لصداح العصافير في حديقتنا الخلفية الصغيرة ، وللسحب الخفيفة المتقطعة في السماء . كنت متعطشة للحياة . فلا يمكن أن أتجه إلى الجانب القاتم من دنياي . وبدت صبغة مزاجي في الثوب البرتقالي البسيط والحذاء المنخفض البرتقالي اللون أيضاً ، وتسريحة شعري المنسدلة على كتفي وكأني أريد أن أترك خصلاته الكستنائية الناعمة نهباً للأنسام الدافئة ولثمات الشمس الضحوك . ومررت من أمام باب الجراج من غير أن ألقي عليه نظرة واحدة

وانطلقت أجوب الضاحية فى خفة وفراغ نحو محل للمثلجات فى الطرف القصى منها فليس أحبّ إلىّ صيفاً وشتاء من قرطاس من الجيلاتى الجيد الذى يتفنن ذلك المحل فى صنعه . ولم يكن غروراً من صاحبه أن يطلق على حانوته اسم « الساحر » .

ولم يكن من المنتظر أن يلم أحد بالدكان فى ساعة مبكرة من الصباح . فوجدت العمال متفرغين للتنظيف وصناعة المرطبات . ورحبوا بعميلتهم المواظبة وملأوا لى قرطاساً بالألوان التى أحبها جعلوا له قبة . ولم أنصرف على الفور كما أفعل حين آتى فى المساء ويكون الدكان مكتظاً ، بل وقفت أمام الواجهة أجيل نظرى فى أناة ولسانى يلعق القبة الثلجية فى تلمظ وتلذذ . وشاقنى أن أكتشف تفاصيل المكان . وإذا بى كنت أجهلها برغم ترددى منذ سنوات عليه كل يوم . فزحام الناس دائماً يربكنى فلا أملأ عينى من شىء . وهو إحساس قريب جداً من الإحساس بالعرى تحت وقع النظرات التى يخيل إلىّ لسبب أجهله أنها لا شغل لها إلا أن تنهبنى .

وتنقلت عينى من اللافتة التى تحمل لفظ الساحر ، إلى صورة ساحر له طرطور فى يده عصاً صغيرة لابد أنها الأداة التى يستخدمها فى سحره ، وداعبت شفتى من الداخل فقط ابتسامة . ثم تسللت الابتسامة من داخل شفتىّ إلى خارجهما عندما وقعت عينى على قفص أخضر فيه ببغاء كان ينظر إلىّ شذراً . فتخيلت أنه يتأهب لإبلاغى أن أبى السقا مات . . . . ورمقته بنظرة عتاب ممزوجة بالاستفزاز والاستزادة

وقد وضعت على طرف لسانى :

— يا قبيح . . . .

رداً على سبابه المنتظر . ولكنه لم يفتح منقاره. فلم أفتح فى. تذكرت عصفوراً ملوناً كان عند زوجة خالى رحمها الله، وكان ابنها الصغير قد أوهمها أنه ببغاء فصيح . فصدقته وهى فى خرف الشيخوخة وكانت تقضى ساعات النهار كلها فى تعليمه الكلام القبيح منه والمليح من غير جدوى . . . وأخيراً اشتركت فى خداع نفسها فكانت تقول لى :

— هذا ببغاء استرالى ليس كالببغاوات البلدى . إنه لا يفهم كلامنا العربى . وعندما يعود ابنى من أمريكا بانتهاء بعثته ، سيعلمه النطق بلغة بلاده . . . بالإنجليزى . . . .

وعندئذ كانت تعترض حلقى غصة . لأن ابنها ذاك مات فى غربته منذ سنتين ، وكتموا عنها الخبر رحمة بشيخوختها . وهكذا ظلت متلهفة على عودته تلتمس له المعاذير بالجد والاجتهاد عن الكتابة إليها إلى إلى أن ماتت ، واسمه آخر من ودعتهم فى الدنيا من الأسماء ، وهى لاتدرى أنه أول من تستقبله فى أخراها . . . وحولت نظرى عن ذلك الببغاء وقد وقفت الجيلاتى اللذيذة فى حلقى وكدت أشرق بها ، وحولت وجهى إلى الناحية الأخرى وقد أسخطنى على الببغاء أنه ذكرنى بما لا أريد من ظلال وادى الأحزان .

ولعل الرغبة فى التخلص من هذا الشجن قد أسهمت إلى حد كبير فى تلقف أول بادرة للسرور والتهليل لها . فقد وقعت عينى فى الجانب

الآخر على دمية آلية غريبة الشكل تمثل قزماً له رأس ضخم مستدير ووجه كالبطيخة له وجنتان حمراوان وعينان مستديرتان متحركتان فى عبث ومجون . والرأس كله يتحرك على إيقاع بصورة مضحكة ، وكان للمفاجأة أثرها فأعقبت الغصة الموجعة انفجارة من الضحك انطلق بها رشاش الجيلاتى من فمى فى حركة طفلية يعهدها فى من يعرفونى . ونظرت إلى صاحب الدكان الذى شاركنى الضحك مسروراً بغزوات دميته وما تحرزه من انتصارات فى عالم التهريج . وقلت له : « من أين اشتريت هذا الألعبان ؟ »

فأجابنى الرجل وفى لهجته شعور شديد بالأهمية : « إنه يعمل بالكهربا .. صناعة أوربا » . فظننته يروغ من السؤال ويطنب فى مزايا السلعة لأنه يريد أن يبيعنى إياها طامعاً فى ثمن باهظ . ولم يظهر على وجهى أننى أدركت خطته — فقلما تظهر ملامحى شيئاً مما يدور فى أعماق سريرتى أو فى رأسى — وكنت فى الوقت نفسه مستعدة لدفع أى ثمن يطلبه من غير مناقشة . فالثمن مسألة لا أهمية لها متى استولت على الرغبة فى الحصول على شىء . وهى دائماً رغبات مفاجئة ولكنها شديدة مثل ثورات البراكين . . .

— جميل جميل . من أين اشتريته ؟ أريد أن أقتنى واحداً مثله .

فخيب الرجل ظنى وهز رأسه أسفاً وهو يقول :

— الخواجة الذى أسس المحل أتى به من إيطاليا . كان يهودياً إيطالياً . ولما رحل أبناؤه المجانين إلى إسرائيل باعنى الدكان بما فيه

وعاد إلى إيطاليا . وأوصانى ألا أفرط فى هذا التمثال المتحرك . لأنه تعويذة تجلب السعد . وفعلا ياست ! كأنه مغناطيس يجذب الزبائن . . . .

وأدركت على الفور ما يعنيه : « السلعة ليست للبيع . إن كنت تحبين رؤيته تعالى كلما شئت واشترى من عندنا وانظرى إليه » .

وهززت كتفى مغيظة وانصرفت حانقة . فى داخل نفسى طبعاً . ولكنى كنت حريصة أن أحتفظ بابتسامتى التى يصفونها بأنها عجيبة . وأنظر بهيام إلى التمثال المضحك وأنا أقول له :

ــ إنه فعلا لذيذ جداً . . .

وكأننى أقول له عن طفل من أبنائه « ربنا يخلى » .

إن التمثال كان هناك طول هذه السنوات . فأنا عميلة المحل منذ أيام صاحبه الخواجة . ولكن هذه أول مرة أراه . ولا أظن أنى سأشعر بهذه المتعة حين أعود لأنظر إليه فى زحمة الناس . أكبر الظن أننى سألقى عليه نظرة عابرة وأنا ساخطة . فالأشياء التى أحبها أريدها دائماً لنفسى . ولا أذكر مرة أنى زرت متحفاً مع شدة حبى للتصوير . فما أريده أريده لنفسى . لى وحدى كى أتعلق به كما أشاء من غير استئذان ومن غير حقوق للآخرين عليه . . .

وركبت الترام وأنا أتذكر مئات الأشياء الصغيرة التى تعلقت بها . وكان لى أب يعشقنى ولا يرد لى طلباً . حتى إن أمى كانت تتهمه بالسفاهة لضعفه أمام أتفه رغباتى وأحمقها . ولن أنسى هياجها ــ رحمها الله ــ عندما قام فى شيخوخته من الفراش وهو فى دور النقاهة من حمى

ليذهب معى إلى السوق وأنا فى العاشرة فيشترى لى طربوشاً أحمر منقوشاً بالقصب و« الترتر » و«خرج النجف» من خان الخليلى . ولم ألبسه بعد ذلك إلا ربع ساعة أمام المرآة ثم وضعته فى الخزانة مع بقية اللعب والطرائف التى أشتهيها بقوة فأقتنيها . ثم أزهدها فجأة . . .

ولم أشعر بالترام وهو يجتاز بى عشر محطات ، لأنى كنت مستغرقة فى أحضان أبى الدافئة وكيف كان يدللنى . ثم جاء زوجى امتداداً لذلك الأب فى التدليل . لم يسألنى يوماً عن نقود أنفقتها . كنت أشترى الغرائب والطرائف ولا أذكر له شيئاً فى الغالب عنها . أنفرد بها وأداعبها بأناملى وقد أضغطها على خدى ، ثم أنسى ما كان من أمرها ، وحسبى أنها هناك أستطيع أن أصل إليها كلما خطر لى ذلك . لألقى عليها نظرة ثم أطرحها من يدى وذهنى . . . ولم تكن لى وجهة معلومة . ولكنى رأيت أمامى محلا تجارياً من المحلات الكبرى . فقلت فى نفسى أهبط وأتسكع أمام معروضاته فقد يستهوينى منها شىء .

وهبطت من الترام وتأملت الواجهة التى تمتد على ناصية شارعين ثم دخلت أستعرض ما فى الأقسام المختلفة وقد أطبقت أسنانى كمن تبحث عن شىء لا تدرى ما هو. ووقع نظرى على سوار من الفضة الرخيصة أشبه بأساور الفلاحات . ثمن الواحد خمسة عشر قرشاً ! ووجدتنى أحملق فيه وقد ملت برأسى إلى كتفى الأيمن . وجربته فى معصمى ، ثم خلعته وقلت للبائعة بلهجة السرور والعزم ، لأنى وجدت شيئاً يشوقنى أن أشتريه :

— اكتبي من فضلك قسيمة بثمن هذا السوار . . . .

وتناولت القسيمة فى يدى وانطلقت بخطى واسعة نحو الخزينة وقد شعرت بارتياح لأنى وجدت شيئاً أرضانى الحصول عليه . . . . فوجدت أمام الخزينة أربع سيدات منهن عجوز فى المقدمة سدت الكوة أمام عاملة الخزينة وقضت وقتاً طويلا فى مراجعة الحساب وعد النقود الباقية. فتملكنى الضيق . وجعلت أدق الأرض بقدمى اليمنى . وفجأة خطر برأسى أن صندوق مجوهراتى حافل بالأساور الذهبية والماسية التى أرفض التزين بها إلا بعد إلحاح شديد . فما فراغة العين هذه ؟ووجدتنى أمزق القسيمة وأنصرف خارجة إلى الشارع ولم يعد لى فى السوار أرب !

إن كثيراً من الأشياء التى أقتنيها لايستغرق تعلقى بها بعد اقتنائها أكثر من دقيقتين . ولكنى أكون استرحت باقتنائها فألقيها جانباً غير نادمة . ومن سوء حظ السوار الفضى العريض أن نصيبه المقسوم من تعلقى انقضى قبل أن أصل إلى كوة الخزينة ، فانطفأت كل رغبة لى فيه وانتهى من حياتى قبل أن يدخل فى حوزتى .

ونظرت فى ساعة معصمى فوجدت أنها لم تجاوز العاشرة إلا قليلا . فرحت أتمشى بتباطؤ فوق الطوار وأنا أتسلى بالنظر إلى الطبقات العليا من البيوت التى تحتل أسفلها المتاجر الكبيرة : عيادات أطباء ومكاتب محامين ومساكن . وامتلأ فمى بطعم كريه عند ما وقعت عينى على لافتة طبيب أسنان ، لأنى تذكرت حظى العاثر مع خائب منهم ترك جذراً من ضرس العقل فأحدث لى خراجاً وكاد يودى بحياتى . . . وركبنى

حب العبث ففكرت أن « أمتلك » طبيباً . لاأعنى أن أقتنى شخصه ، بل أقتنى خدماته ومعلوماته الطبية على سبيل التسلية والهزء . أصعد وأدفع الأجر للممرض وأدخل فأقضى نصف ساعة فى وصف أعراض . أى أعراض تخطر ببالى حينما اتفق . وأرقب علامات الحيرة وهى ترتسم على محياه . وأكاد أرى أصابعه وهى تنبش تحت شعره — أو صلعته — جميع ما فى ذاكرته من معلومات عن تشخيص الأمراض . وطبعاً لا بد أن يكتب لى وصفة للعلاج حتى لا يفضح جهله بتشخيص الحالة العجيبة التى أمامه . ولن يفوتنى أن أظهر له منتهى الامتنان وأذكر له أسماء وهمية لأصدقاء مزعومين حدثونى عن مهارته التى ليس لها نظير ، وأكدوا لى أن على يده سيكون الشفاء العاجل بعد طول تنقلى بين الأطباء عبثاً !

وفعلا دخلت الباب وصعدت الدرج وطرقت باب طبيب تجربته . ففتحت لى الباب سيدة شقراء مستديرة الوجه بدينة ، قالت لى باقتضاب وفى يدها ملعقة لاشك أنها كانت تذوق بها الطعام الذى تطهوه

— دكتور حسين بك ؟ . . . حياتك الباقية يابنى ! ألم تسمعى أنه مات منذ أسبوعين ؟

وغمغمت بكلمة أسف واعتذار ونزلت وقد اشتد غيظى وعنادى . وازداد تصميمى على اقتناء أى إنسان — أعنى مواهبه — لمدة ساعة فى هذا الصباح على سبيل التغيير . ما دامت التماثيل المتحركة غير ميسورة فى السوق . والأساور الفضية العريضة فشلت فى الاحتفاظ باهتمامى .

وأمام الباب . فى مواجهتى على الرصيف الآخر فوق المتجر الكبير الذى خرجت منه منذ قليل رأيت لافتة كبيرة تحمل هذا الاسم .

— المعهد الموسيقى الراقى . دروس خصوصية ومجموعات للبيانو والكمان والعود والقانون وسائر آلات الموسيقى الشرقية والغربية !

وقطبت حاجبى . . . . إلا الموسيقى !

لا أستطيع أن أجعل من الموسيقى مادة للعبث. لأنها تقترن فى نفسى بأحب ذكرياتى العزيزة مع أبى فى أواخر أيامه . حينما أجبره المرض فى شيخوخته على ملازمة البيت معظم الوقت. ولم يكن له من سلوة إلا آخر العنقود . وكنت كأخواتى الكبيرات قد تعلمت العزف سماعياً على البيانو . وبدأت أصابعى تمر على المعزف بتلك الأدوار الشائعة فى تلك الأيام : أفراح القبة . وزقزق العصفور صحانى يانينه . والعين عزيزة والقلب غالى . فلم تكن تتم تربية الفتاة يومئذ من بنات الطبقة الوسطى إلا بهذه المعزوفات « تشنف » بها أسماع الزائرات، تمهيداً لاستهواء العرسان . . . ولما لزم أبى البيت وكانت أخواتى قد تزوجن جميعاً ، كنت أعزف له بعض ما أسمعه من المذياع . وأتقن عزفه إلى حد لا بأس به على السماع بعد مرة واحدة .

ولم يكن يضايقنى أن أعزف لأبى طول الوقت ، فأنا لا أحب الاختلاط بالناس منذ صغرى . وإذ أراجع الآن حياتى يخيل إلىّ أن حاستى الجنسية تفتحت وأنا فى سن مبكرة جداً . ولكنى لم أدرك ذلك فى حينه . وكانت التربية المقفلة سبباً فى شعورى بالتأثم من مجرد وقوع نظر الناس

على جسمى . ويخيل إلى أنهم يعرونني من ثيابي فأنطوى وأصدف عن مجلسهم . وفى الوقت نفسه أشعر بجيشان يكاد يغلبني على أمرى كلما وقع نظرى – فى تلك السن المبكرة – على رجل من الجنس الآخر . قد يكون فى سن أبى أو دون العشرين . سيان ! فيخيل إلى أن الناس يشعرون بهذا الانفعال الغلاب الذى يمور فى داخلى فأسرع بالابتعاد كالغزال النافر ، أو الأرنب الجبان ! وفى وحدتى وانطوائى لم يكن لإحساساتى الفوارة العارمة متنفس سوى البيانو وتشنج أصابعى بالعزف . وانتشائى بضمات أبى حين يستخفه الإعجاب ببراعتى وحماستى واندماجى فى النغم حتى تتساقط الدموع من عينى . حتى إذا احتوانى أبى بين ذراعيه وقبل شعرى وجبينى أغمضت عينى وأخلدت إلى صدره وتمنيت لو أن عناقه لى لا ينتهى .

وقرر أبى أن يستحضر معلماً يلقننى العزف على النوتة بحسب الأصول الفنية الراسخة . ولكن الموت عاجل أبى . وحال الحداد دون هذا الأمر ، الذى كانت تسميه أمى جنوناً . وقد وجد تدينها الشديد فرصة مواتية بعد موت أبى لوضع حد لانطلاقاتى وصغارى ، على حد تعبيرها » . . . ولما تزوجت انتقل معى إلى بيتى ذلك البيانو العتيق . وفى السنتين الأوليين كانت أعصابى تتشنج وأنا أعزف . . . ثم وصلت الألفة بينى وبين زوجى إلى ذروتها الكاملة فى غضون السنتين . فلم تعد أصابعى تتشنج وأنا أعزف . ثم أهملت البيانو . وصار زوجى هو متنفس حياتى التى كانت مكبوتة ، واستطاع فى سنتين أن يحطم القشرة الصلدة التى

كانت انفعالاتى محبوسة داخلها ، وعرفت طعم الحياة على سجيتى وبغير وجل . . . والآن ما المانع ؟ لماذا لا أحقق رغبة أبى ويكون تعلمى تحية لطيفة لذكرى رجل لطيف ؟ ليكن إذن جداً لا هزلا ما يدفعنى إلى ارتقاء الدرج نحو أبواب المعهد الراقى للموسيقى . . .

واختفى الشيطان الماجن الذى ركبنى فى اللحظات الأخيرة ، وعبرت الشارع ألتمس الباب الجانبى وأدخل دهليزاً معتماً يفضى إلى السلم العتيق ، صاعدة نحو مشغلتى الجديدة .

٣

كان الباب مفتوحاً على مصراعيه ووجدت فى مواجهته عينين زرقاوين كبيرتين جداً تحدجانى بنظرة ترحيب باسمة من خلف منظار سميك عتيق . ينحدر على أرنبة أنف معقوف قليلا . ومن فوقهما حاجبان كثيفان شعرهما الأبيض مشعث . فاستراحت نفسى إلى هذا البوهيمى الشيخ . إنه صورة مطابقة تماماً لما فى ذهنى عن الفنانين العجائز ذوى العيون اللطيفة والشيب الوقور والنظرة الشابة المتفتحة للحياة . وقبل أن أفتح فمى بالتحية رأيته يدس مسماعاً صغيراً فى داخل أذنه . فازداد سرورى . وكدت أصفق بيدى جذلا وأقفز وأنط . « ومثل بتهوفن العظيم أيضاً » فنان أصم ؟ ما أشد استمتاعى بدروسه التى سأتلقنها على يديه ! »

ولكنى طبعاً لم أقفز ولم أنط ولم أصفق . بل استعنت بكل رصيدى من الوقار والرزانة وأنا أحاول أن أستولى عليه بسحر ابتسامتى المشهورة بصفائها الآسر :

ـ أريد أن أتلقى عليك درساً منفرداً فى البيانو .

فومضت عيناه الزرقاوان اللتان تستمدان حجمهما الكبير من سمك نظارته ، وأطلت منهما نظرة تواطؤ صريحة وهو يقول لى :

ـ درس بيانو منفرد ؟ هه ؟

ماذا يقصد هذا الرجل بنظرة التواطؤ هذه مع الإلحاح على كلمة منفرد ؟

ـ هذا ما أريده . وأفضل أن يكون ذلك فى ساعات الصباح من كل يوم .

فأطلت نظرة التواطؤ من عينيه مرة أخرى : «تريدينه فى الصباح؟ هه ؟»

كأن وراء رغبتى فى تعلم البيانو على انفراد وفى الصباح سراً، وهذا السر مفروغ من أنه متفق عليه بينى وبينه . أو مكشوف له على الأقل . وأردت أن أضع حداً لهذا التساؤل المحرج ، فحولت وجهى عنه وتصفحت الساعة المثبتة فى الحائط ، والأريكة الخشبية المعدة لجلوس المنتظرين والخزانة الخشبية التى تحفظ بها الملفات . وفجأة رن صوت جرس ، أقبل شخص ، فنظرت ورائى أتصفح وجه القادم فإذا فراش نوبى أعرج . ولا أدرى لماذا خيل إلىّ على الفور أن كل شيء فى

هذ المعهد أعرج . وتوقعت عندما أدخل الحجرة المعدة للدرس أن أجد البيانو مائلا من إحدى جهاته الأربع .

ـ دفتر المواعيد يا محمد .

ولمحت نظرة التواطؤ تتجه هذه المرة بوضوح تام إلى الفراش الأعرج . الذى أطبق فمه فى جد كامل ومشى يحجل نحو خزانة الملفات . وتوقعت من نظرة التواطؤ أن يكون دفتر المواعيد شيئاً غريباً . يكتنفه سر متفق عليه بين هذا العجوز وفراشه الأعرج . لكن الدفتر كان كراسة عادية . ولم يستغرق الاتفاق على الأجر والمواعيد أكثر من دقيقتين حرر فيهما الإيصال عن دروس الشهر الأول .وحددنا الساعة العاشرة من كل يوم لدرس البيانو مدة ساعة . ثم عادت عينه للغمز اللعين وهو يشير برأسه نحو باب دهليز طويل تصطف الحجرات على جانبيه، وتقدمنى نحو القاعة لأتلقى الدرس الأول . فشيت وراءه وأنا متوجسة مستثارة بعض الشيء . ترى كيف سيكون سلوك هذا الشيخ الغماز حين تضمنى معه حجرة واحدة والبيانو ثالثنا ؟

وقفزت إلى ذهنى جميع معلوماتى والحكايات التى سمعتها عن الشيوخ وما فى كثير ين منهم من شذوذ مذهل . ولكنى وضعت يدى خلف ظهرى ومددت ذقنى إلى الأمام وقد أطبقت أسنانى . لأنى مقبلة على تجربة من نوع فريد لم يصادفنى مثلها من قبل ، ولم أكن أحلم بمثلها . سنرى ماذا يفعل هذ الشائب العائب . سنرى .

ووقف أمام باب ثم انحنى وهو يفتحه وغمز بعينه قائلا : « تفضلى ! »

وتوقعت من نظرته أنني سأدخل مكاناً بعيداً كل البعد عن قاعة درس ! ودخلت حجرة صغيرة مستطيلة فى مواجهة بابها شرفة وعن يمينها بيانو وفى وسطها مائدة صغيرة مستديرة . وتنحنح الشيخ فظهر فى باب الشرفة شاب فارع العود ممتلئ الجسم يرتدى قميصاً كحلياً شمر كميه إلى ما فوق الكوع و بنطلوناً رمادياً . وقبل أن أستكمل استطلاع أوصافه كلها وأرفع عينى إلى وجهه سمعت العجوز يقول :

— مدام أميرة . درس منفرد فى البيانو الساعة العاشرة صباحاً يومياً . الأستاذ خورشيد . . .

ولم أشعر إلا وباب الحجرة يقفل من خلفى وقد اختفى العجوز . ولكن من المستحيل أن يكون هذا الحفيد هو مدرس الموسيقى بأى حال من الأحوال . فقامته تنبئ عن جسم رياضى لبطل من أبطال المصارعة . هذا هو الحفيد الرياضى لمدرس موسيقى ضامر العود مرهف الحس متقدم فى السن . أما هذا . . . إن وجهه المستدير الأملس الأبيض المشرب بحمرة يخالطها النمش ، لا يمكن أن تزيد سنه على العشرين . واستوقفنى وجهه . إنه وجه طفل كتلك الوجوه التى تطالعنا فى إعلانات الألبان الصناعية . فكيف يمكن أن يخلق هذا الوجه البرىء الناضر الجميل على هذا الجسم الممتلىء الضخم الذى ينبئ عن قوة ومقاومة وتجربة . . . وتكاد تفوح منه رائحة الرجال لتملأ الأنف . . .

محال ! محال لو صادفنى هذا الشاب فى مكان ما بعيداً عن هذا المعهد أن يخطر ببالى أنه مدرس موسيقى. من هواياتى تخمين صناعات الناس

وأوضاعهم من أشكالهم عندما يقع نظرى على الغرباء فى الأماكن والمواصلات العامة . أما هذا فلم يكن يتبادر لذهنى لو رأيته فى الترام سوى أنه طفل فى الرابعة عشرة استعار جسم أبيه ليتباهى به أمام الفتيات . وها هوذا يصطنع الجد الذى لاتساعده عليه استدارة وجهه الطفلى .وما كنت لأتورع عن تكوير تذكرة الترام وقذفه بها فى أنفه المفرطح بعض الشىء كأنوف الأطفال فى شهورهم الأولى . أو أربت على ظهره وأنا أغبط فى سرى المرأة التى هو ابنها . إن عينيه جميلتان كعيون الأطفال . ففيهما بريق الصدق والصراحة والثقة والإقدام . وعلى جبينه تتهدل خصلة شعر ذهبية ، لم يصطنعها . إنى واثقة من ذلك ! فلابد أنها اختلت ونفرت من مكانها عندما كان منهمكاً فى العزف . . . .

ولعلنى أطلت النظر إلى وجهه أكثر مما ينبغى دون أن أفطن إلى ما فى مسلكى هذا من إحراج للمسكين . وقد رأيت وجهه يكتسى بحمرة قانية وهو يتقدم منى ويصافحنى مرحباً بقدومى فى لهجة مهذبة جداً . ولم يترك لى مهلة لأى تعليق ، بل نظر فى جد وحزم نحو البيانو وطلب منى أن أعزف أى مقطوعة أعرفها كى يقدر مستواى الفنى . فجلست إلى البيانو ومرت أصابعى عليه وأنا أفكر فى اختيار مقطوعة . وخطرت لى فكرة طردتها بسرعة . فقد كانت نفسى الخبيثة أشارت على بعزف « كنت فين يا على وامك بتدور عليك ! » وبسرعة قطعت على نفسى خط الرجعة وبدأت أعزف أفراح القبة فى تصميم ومضاء برغم كثرة ما ارتكبته من أخطاء .

ومن عادتى أن أتطلع إلى وجه محدثى وأتفرس فى عينيه دون مواربة . مهما كانت الأفكار التى تراودنى خبيثة ماكرة . ولما كنت أريد أن آقرأ صدى عزفى على ملامح وجهه . فقد رفعت وجهى إليه وهو واقف بجانبى يتطلع إلى أصابعى فى صمت . وهمدت أصابعى فوق مفاتيح البيانو وأنا مشرئبة أتفرس فى وجهه الشاهق باستطلاع غريب . . .

إن هذا الوجه المستدير الطفلى لا يمكن أن يكون غريباً عنى . ليس من المستبعد أن أكون داعبت هاتين الوجنتين الناضرتين بأصابعى منذ بضع سنوات حينما كان غلاماً يلتصق بركبة أمه فى حجرة الحريم فى الترام . . . وأجهدت ذاكرتى برغم وجهى الباسم وجعلت أنقب بإصرار . وفجأة انشقت حجب الماضى عن عشر سنوات غبرت . وتجلى لى وجه ناضر لطفل فى السادسة من عمره ؛ ووجه مستدير جميل التقاطيع يكاد يضىء صحة وصفاء . . . إنه صورة طبق الأصل من هذا الوجه الماثل أمامى . أو لعل الأصح أن أقول الماثل من فوق . وعبرت أمام ناظرى سحابة قاتمة . . .

ترى لو أن طفلى عاش حتى اليوم أكنت أراه فى وضاءة هذا الشاب؟ إنه يشبهه إلى حد كبير . إلى حد يدفع بى إلى احتضانه والتربيت على رأسه وهدهدته !

واختلجت أهدابه عدة مرات أمام إصرارى على التطلع إلى وجهه . وومضت عيناه بابتسامة حائرة وهو يطلب منى فى احترام أن أتخلى له عن مكانى . فقمت متثاقلة لأقف خلفه وهو يتخذ مكانه أمام البيانو

ثم شرع يعزف عزفاً بديعاً بالنسبة لمعلوماتى المتواضعة . وركزت عينى على أصابعه . إنها أصابع طويلة متناسقة . ويده ليست كأيدى الرجال الخشنة المغطاة بالشعر ، بل هى تكاد تخلو من الشعر تماماً . . . ناعمة بضة ممتلئة . . . كأيدى الأطفال . ولكن فى ضخامة ، وفى قوة يد العازف المتمرس . . .

طفلى أيضاً كانت له أصابع طويلة بالنسبة لأيدى الأطفال . وكم تنبأت له وتنبأ معارفنا بمستقبل حافل فى الجراحة . والآن فقط تذكرت أنه كان خليقاً أيضاً أن يغدو عازفاً ماهراً . . .

ولا أدرى ما الذى خامره بشأنى . لأنى شعرت بأصابع الرجل الطفل ترتجف على المعزف . ولعل السبب أنى تماديت فى النظر إليه فأحس أننى امرأة خطرة . أو لعل وقوفى خلفه ضايقه أوزعزع ثقته بنفسه . فمن الأمور المقلقة لنفس شاب فى العشرين أو دونها غض الإهاب مفرط الحياء أن يصير موضع اختبار فاحص من امرأة مكتملة الأنوثة تخطت الثانية والثلاثين من عمرها . . وأحسست بالإشفاق عليه يخالط شعورى بالزهو لما أراه من تأثيرى فيه . ولكن هذه اللحظة لم تدم. فقد خيل إلىّ أن الطفل الذى يعزف على البيانو رفع إلىّ عينين ضاحكتين مذهواً بتقليده للكبار من العازفين . ثم قفز واقفاً على الأرض وانطلق إلى الشرفة ليركب دراجته الصغيرة ذات العجلات الثلاث وينطلق بها رائحاً غادياً . . . وأحسست غصة تعترض حلقى، ورأيت ابنى وقد تعرض فى يفاعته لامرأة مجربة تعبث بعواطفه ، فوخزنى قلبى وحقدت على نفسى

وتراجعت عن العبث واتخذت سمت الجد حينما رأيته يتململ فى مكانه وإصبعه ينقر بإصرار على أحد مفاتيح البيانو . ثم قام متبرماً وهو يقول :

– كم من مرة طلبت من الخواجة إلياس شد هذا البيانو وإصلاح أمر هذا المفتاح . ولكنه لا يستخدم السماعة حين نخاطبه فى موضوع يحتاج إلى إنفاق . ويحرص على استعمالها جيداً حينما يتعلق الحديث بالإيراد ! والظاهر أن الإنسان لا يمكنه أن يعتمد على غيره ، بل يجب أن يقوم بنفسه بكل ما يحتاج إليه . . . .

وكان يتكلم برزانة شديدة . شأن الكهل المثقل بتجربة العمر . فكدت أدفعه فى صدره وأدغدغ عنقه بأصابعى لشدة ما أشبه بوجهه طفلا يتشبث بسمت الرجال بدون طائل . ولكن الفرصة فاتت لأنه استدار خلف المعزف بسرعة وجعل يفحص الأوتار ثم يمد إصبعه وينقر على المفتاح المعطوب ، فتبخرت من رأسى كل فكرة عن طفولته أمام ذلك الانهماك الجدى . وسألته بفضول :

– هل لك خبرة بإصلاح المعازف أيضاً ؟

فرفع رأسه بسرعة اهتزت لها خصلته الذهبية وثبت عينيه فى وجهى وقال فى ثقة : « خبرة تمتد إلى نحو عشر سنوات بالعزف ينبغى أن يكون وراءها محصول من معرفة بأدق دقائق هذه الآلة . وإلا لما كنت أهلا لحمل أمانة هذا الفن ! »

ويبدو أننى فغرت فى برهة قبل أن أقول له : « عشر سنوات ؟



(٢)

أنت إذن بدأت العزف وأنت طفل صغير ! »

ولم يجبنى على الفور ، بل نقر على المفتاح نقرتين وهو مائل بجسمه فوقه ، ثم التفت نحوى وقال ببساطة تحمل كل أمارات الصدق : « بدأت العزف وأنا فى السادسة من عمرى . وفى الحادية عشرة كنت أعزف فى الحفلات . حتى إنهم أطلقوا علىّ لقب الطفل المعجزة . وبدأت أعطى دروساً للفتيات الصغيرات . حتى بلغت السابعة عشرة جئت إلى هذا المعهد وبدأت أمارس المهنة . مهنة تعليم البيانو للكبار أيضاً . ولى هنا زهاء خمس سنوات » .

فقلت بجد : « أنت فى الثانية والعشرين ؟ يا إلهى ! إن من يراك لا يقدر لك أكثر من تسعة عشر ربيعاً . لم تخطئ نظرتى فيك كثيراً على كل حال . فأنت فى سن ولدى تقريبا » .

قلت هذه الكلمة لأرى ماذا سيكون من تأثيرها عليه . ولم أر للدهشة أثراً على محياه الطفلى : بل انحنى بكل رزانة وقال بتؤدة شديدة « شد ما يسعدنى ذلك يا سيدتى » .

وانتهى درس ذلك اليوم . ولما مد يده ليصافحنى رأيته ينفخ صدره ويلقى رأسه إلى الوراء ليضفى على شخصه جلالا كجلال الرجولة . وليدخل فى روعى أنه وإن كان صغير السن إلا أنه يستطيع أن يقف على قدم المساواة — على الأقل ! — مع أى رجل فى الأربعين . وإذا كنت أكبره كثيراً فى السن فهو ليس كطفلى . وإنما أستاذى وأنا تلميذته !
وابتسمت فى أعماقى ابتسامة مشوبة بالأسى . فطفلى أيضاً كان يقلد

أباه فى حركاته وطريقة مشيه . ويختال أمامى بالمسبحة وهو يقول : «لماذا تأخر الخادم فى الخارج ؟ لابد من تأديب هؤلاء المناكيد وإلا ظنوا أن الحبل على الغارب ! »

أى حبيبى المسكين ! لقد اختطفك الموت منى ولم يمهلك حتى تسعدنى وتسعد بالمزدهر الواعد من أيامك . . .

وهاجتنى الذكرى . ووخزنى ألم فى أعماقى فاربد وجهى وأسرعت بالخروج قبل أن تفضحنى عيناى اللتان تخضلتا بالعبرات

٤

خرجت من عتمة السلم إلى وضح الطريق وأنا لا أكاد أرى ما أمامى . وغشيتنى سحابة من الكآبة المصحوبة بالزهد فى الحياة كلها . وكثيراً ما كانت تصيبنى هذه الحالات كلما ركدت حياتى واطردت على وتيرة واحدة لا يتخللها جديد يوقظ مشاعرى وينبهنى إلى جمال الطبيعة والأشياء من حولى . فعلى قدر حبى للحياة وتمسكى بها كانت تنتابنى نوبات من السأم تسلمنى إلى الهمود وعدم الرغبة فى رؤية أى مخلوق . وتطلعت إلى وهج الشمس الذى ينصب على الكائنات كلها من حولى بعين حانقة مستهينة : ما الحياة ؟ ولماذا نعيش ؟ وأى شىء يمكن أن نحصل عليه مهما طال بنا الأمد ؟ ما أعقم الحياة ! إنى لست أرى فيها ما تفضل به الموت ! ثم ضبطت نفسى وأنا أعبر الطريق من طوار إلى طوار أتلفت

بانتباه شديد يمنة ويسرة حرصاً على حياتى الزهيدة العقيم من سيارة تدهمها.

لاحقنى بائع عاديات متجول يلح على فى استعراض بضاعته . ووقفت أقلب الأساور الفضية والعقود الزجاجية . وهى عادة تستهوينى على فساد ذوقها، فلا أتزين بما أقتنيه منها على كثرته وإن كنت أحتفظ به، ولا أهب منه شيئاً لأحد . فى ذهنى دائماً أننى قد يهفنى الشوق للتزين منها يوما ما قلبت ما عرضه على الرجل فى زهادة . ثم ألقيته من يدى . وعندئذ لفت نظرى خاتم عادى الشكل جداً له فص كبير من الزجاج الملون . وكان الخاتم كالمنبوذ ناحية ولم يفكر الرجل فى عرضه على لسخافة شكله وعدم تميزه بشىء سوى تلك الضخامة المفرطة . ولعله لم يخطر بباله أن سيدة فى رقتى يمكن أن يروق لها شىء ضخم مثل هذا . . وتناولت الخاتم الزجاجى الأخضر وقلبته أمام عينى ، وقد مططت شفتى السفلى إلى الأمام فى حركة امتعاض . ثم وضعته فى خنصرى بعد أن خلعت خاتماً من السفير الثمين ، كان زوجى قد أهداه لى منذ بضعة أيام . وبدا الخاتم الجديد رخيصاً مبتذلا بصورة واضحة . ولكن العناد استولى على رأسى . فرغباتى هى المصدر الوحيد لمنح القيمة والأهمية لأى شىء، لتكن إرادتى وكفى . فالشىء مرغوب فيه عندى بمحض رغبتى ، لا لمزية فيه !

ورفعت عينى من تحت حاجبى من غير أن أرفع وجهى عن النظر إلى الخاتم وقلت بهدوء للبائع الأقصرى الحصيف : « كم ثمنه » ؟ وببرود أشد قال الرجل : « سبعون قرشاً » . وأدركت أنه يستغلنى

فخلعت الخاتم من يدى ووضعته مكانه وقلت : « إنه لا يساوى أكثر من عشرين . فهل تأخذ ربع جنيه أو دعنى أمضى لحال سبيلى ! . . . ». وتحركت فعلا نحو محطة الترام فأسرع يدس الخاتم فى يدى . ودسست فى يده ربع جنيه . ولكنى لم أركب الترام . بل اجتزت الشارع مرة أخرى إلى محل الصائغ الأرمنى الذى نتعامل معه منذ سنوات وقدمت إليه الخاتم فرفع الرجل إلىّ عينيه فى دهشة ثم ضحك قائلا : « هل تمارسين الآن هواية جمع الزجاج الملون ؟ » فابتسمت وهززت كتفى وأشرت إلى خاتم كبير فى دكانه وقلت : « أريد خاتماً ذهبيًّا بهذه الصياغة لهذا الفص ! »

– ولكن الفص ثمنه قرشان والخاتم سيكلفك تسعة جنيهات !

فهززت كتفى الأيسر فقط هذه المرة وأنا أفتح كيسى وأعطيه خمسة جنيهات عربوناً تناولها الرجل ولم يفتح فمه . وقد أحس أنه أبرأ ذمته بما فيه الكفاية وعليه أن يرحب بالرزق الذى سعى إليه . وحدد لى ثلاثة أيام موعداً لتسلم الخاتم المأمول . . .

ودخلت البيت . وكان عونى قد وصل قبلى . وما إن رآنى حتى أقبل هاشًّا بوجهه الطيب يحتضننى كعادته ويقبلنى . ثم أبعدنى عنه قليلا وأمسكنى من كتفى بيديه وصوب إلىّ نظرة حانية لمعت بها عيناه وسألنى : « أين كانت أميرتى ؟ » فأقفلت إحدى عينى وصوبت إليه نظرة ماكرة عابثة وقلت له : « بعدما شاب بعثوه إلى الكتاب ! » فمد يده وهز يدى بحرارة شديدة وقال : « ألف مبروك ! العلم نور !

على كل حال » .

ثم مال بعنقه إلى كتفه الأيسر وسألنى بصوت خافت : « وأى مدرسة انتسبت إليها أميرتى إن شاء الله ؟ » . فحدثته بولعى القديم بالموسيقى . وكيف أن تعلمها سيملأ حياتى ووقتى . وذكرت له عنوان المعهد ومواعيد الدروس . وكيف أننى بدأت اليوم .

وجذبنى من معصمى إلى أريكته القرمزية المفضلة فى حجرة نومنا الواسعة وجلس وأجلسنى بجواره وقال من غير أن ينظر نحوى ، بل انهمك فى خلع حذائه وهو يتكلم بلهجة عادية جداً كأنه يسألنى عن ألوان الطعام التى ستقدم إليه على مائدة الغداء : « ومدرستك هذا . . . . ما شكله إن شاء الله ؟ »

يا إلهى ! ألا يتخلى هذا الرجل يوماً عن جده الهازل ؟ لماذا يسألنى الآن هذا السؤال ؟ هل كان بحاجة إلى إلقائه لو أنه رأى ذلك الطفل الكبير ؟ إنه يقدر لهفتى على الأطفال . وأنا أعلم مبلغ لهفته وإن كان لا يشير مطلقاً إلى هذا الموضوع . ولو أشرت الآن إلى هذه المسألة لحز الأمر فى نفسه . وإن كان لا ذنب له ، فأنا التى يستحيل عليها أن تنجب على أثر تلك الجراحة المشئومة بعد ولادة طفلنا الوحيد الفقيد بثلاثة أعوام . فهل أتركه يعتقد أنها مغامرة جديدة ستبدأ فى حياتى ، أم أطلعه على الحقيقة ؟ إنه لن يأبه للمغامرة . فكم من مرة وقد رآنى راكدة آسنة لا أجد للحياة طعماً قال لى وهو يداعبنى : « أنا أعرف الناس بدائك ودوائك أيتها العزيزة ! إنك كالشعلة التى تزداد اندلاعاً

كلما وجدت ما يغذيها . فهل نضب معين حياتك يا عزيزتى من الفحم أو الحطب أو البوتاجاز ؟ لماذا أرى شعلتك تكاد تخبو؟ هل أقفرت الدنيا من الرجال . . . حتى ولو من رجل نصف عمر؟ » فأضحك من قلب صديع . لأنه يقرأ ما فى أعماقى ثم لا يكتفى بالرقة الحالى . ما أكبر قلبه ! ثم أقسم بينى وبين نفسى ألا أتورط فى شىء يؤلمه . ولكن ماذا أصنع والحرص على الحياة غريزة . وحياتى لا تقبل الهمود . وطبيعتى النارية إما أن تندلع كألسنة اللهب وإما أن تموت !

ويظهر أنه طال به الانتظار لجواب سؤاله وهو يخلع حذاءه عن شكل مدرسى الجديد ؛ فرفع وجهه إلىّ وسألنى وقد أجفل للأسى المرتسم على صفحة وجهى من أثر ما طاف بذهنى من الخواطر هاتفاً : « ماذا بلك يا أميرة ؟ هل حدث شىء » وعلى الفور عادت الابتسامة المشرقة إلى محياى وداعبت صفحة خده بفمى من غير أن ألتصق به وقلت وأنا أنهض واقفة : « لم يحدث شىء . ولكنك لو رأيت مدرسى لما صدقت أن هذا الفتى اليافع . أن هذا الطفل أستاذ بارع فى الموسيقى » . فقال بجد : « كيف ؟ أهو صغير إلى هذا الحد ؟ » فقلت : « يزعم أنه بدأ عامه الثانى والعشرين. ولكننى لا أظنه يزيد على التاسعة عشرة يوماً واحداً . إن براءة الطفولة تنبع من عينيه الصافيتين البريئتين المستديرتين . . . ووجهه . . . ! » وضممت قبضتى فى حركة يعهدها من يعرفوننى كلما راوغتنى الكلمات التى أريد التعبير بها عن شىء خارق للعادة . فاكتسى وجه عونى بسحابة من الأسى

ووضع يده على ذراعى وقد انتصب واقفاً بجوارى وسألنى برقة يغالبها حتى لا تبدو فى صوته الأجش : « هل حرك فيك عاطفة الأمومة إلى هذا الحد ؟ » فقلت : « بشكل جبار . حتى إننى لم أستطع مغالبة جيشان عواطفى ». فجذبنى من ذراعى وهو يتقدمنى قائلا : « ألم تجوعى ؟ هيابنا نتغدى . . . »

وعلى المائدة جلس قبالتى .

وظننته سينصرف إلى الأكل . ولكنه بعد أن وضع أول لقمة فى فمه وهو مطرق رفع عينيه إلىّ من غير أن يحرك رأسه وقال بلهجة عادية : « لا تستسلمى للأنغام التى تصدر عن أوتار الأمومة فى قلبك كلما وقعت عيناك على هذا الغلام الأستاذ . . . فكم تسلل كيوبيد من خلال هذه العاطفة البريئة . . . »

فنظرت إليه نظرة عتاب ولم أقل شيئاً . . . فرمقنى بنظرة إعجاب تفيض غزلا . فازدادا خداى توردا . ولم أعد أشعر فى الحياة إلا بهذا الزوج الطيب الذى لا يرى جمالا فى الدنيا إلا فىّ أنا ؛ ومددت يدى عبر المائدة وضغطت على يده ضغطة حملت كل معانى الامتنان وتأكيد الطمأنينة والثبات على العهد والميثاق . . فانحنى على أصابعى المتشنجة وقبلها . واستأنفنا تناول الطعام فى هدوء سابغ وأمن وثقة وسلام . . .

وبعد ضجعة القيلولة شغلنا باستقبال ضيوف من الأصدقاء. ولم يخطر ببالى كل ما جرى فى فترة الصباح ودرس الموسيقى ، وما أعقبه من

أسى . وكنت فى أوج مرحى وبشاشتى . . . .
وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً .

٥

وقفت أمام مرآة مائدة الزينة أتجمل كعادتى . . . ولم يكن من طبعى الإفراط فى وضع المساحيق . فغالباً ما كنت أخرج فى الصباح دون أن أضع شيئاً على بشرتى . أما ما كنت أبرزه فى التجميل إبرازاً خاصًّا فهو حدود الشفتين والحاجبين ... وتحسست بشرتى بأطراف أصابعى . إنها ناعمة كالمخمل من أثر الحمام البارد الذى درجت عليه منذ كنت طفلة صغيرة . فقد كان والدى إلى أن تجاوز الستين من عمره لا يفوته كل صباح صائفاً وشاتياً أن يقف تحت رذاذ الرشاش البارد . وأنا بنت أبى، تعودت أن أقلده فى كل شىء . ويقينى أن ذلك الحمام البارد يجلب الصحة والنضارة وينشط الدورة الدموية . . . .

أجل كان وجهى ناضراً . ولكن بعض معالم السن بدأت تزحف على مواضع حساسة من بشرتى . ولم أكن آبه لها كثيراً أو أجتهد فى مداراتها . فهى أقل الأعراض التى يمكن أن تظهر على امرأة بلغت سنى . فما بالى اليوم لا أستطيع منع عينى من التفرس فيها ؟ !ولم تكفنى مرآة الزينة العادية لأتبين المواضع التى يجب أن أعمل على إخفائها . فهذه المرآة لا يسقط عليها الضوء . فأسرعت إلى الحمام ووقفت والشمس تنصب على

مرآته وجعلت أتفرس فى وجهى بإمعان !

ــ عجباً ! ما كل هذا الاهتمام يا أميرة وأنت ذاهبة إلى درسك الثانى فى الموسيقى ؟ إن هذا الطفل فى سن ابنك!

ــ ابنى ؟ كيف ؟ أيكون لى ابن فى الثانية والعشرين ــ وهذا ما يعترف به من عمره ! ــ وأنا لم أتجاوز الثانية والثلاثين . . . ووجهى لا يعترف بأكثر من الثامنة والعشرين ؟

ــ إنه يحترمك ويقدرك فلا ترتكبى حماقة توقفك منه موقف الصغار . وتذكرى أن شاباً مثله كان محط الأنظار منذ الثالثة عشرة لابد أن تكون له مغامرات مبتذلة مع المتصابيات من النساء . . . ولابد أن يكون على علم بتكوين المرأة ودقائق طبعها وأسرار سلوكها الخفية .

ــ هراء ! هو خبير بالنساء ؟ مستحيل . . إن أصابعه كانت ترتجف حينما أحس بمراقبتى له من وراء ظهره . فهل من مارس النساء يرتجف تحت وقع نظرات امرأة غريبة عنه ؟

ــ أميرة ! لا تتناسى أنك نمط مختلف من النساء . نمط متفرد . فاللواتى له معهن مغامرات من نوع شائع متداول ، نساء شائعات مبتذلات لا يشعرن مثله بالتهيب أو التأثم . أما أنت . . .

ــ أنا ؟ وهل تستطيعين أن تخبرينى من أنا من فضلك وإن لم أكن امرأة ؟

ــ أنت مكانك فى المجتمع مرموق . وزوجك له شهرة فى الأوساط الاجتماعية . ولك شخصية قوية . هل غاب عن فطنتك مبلغ الاحترام

الذى قدمك به المدير إلى هذا الغلام . ومبلغ ما استولى عليه من تهيب ؟

— أوه ! وماذا تريننى فعلت ؟ هل فى عنايتى بمظهرى انحراف عن سواء السبيل إلى مهاوى الرذيلة ؟ !

— لا تضحكى على نفسك ! لا تغررى بنفسك ! أنت اليوم غيرك بالأمس . وهذا وحده علامة كافية على التغير فى البواعث والنيات . وهذا لا يليق ! ثوبى إلى نفسك واطرحى من ذهنك كل تفكير فى المناورات الصغيرة التى تعبثين فيها بكبار السن لكى تشعرى بالزهو والخيلاء وتستمرئى سطوتك . ولكن هذا الفتى اليافع لا يجوز لك أن تجعليه هدفاً لإشباع غرورك !

وكان عقلى على العهد به لا يمكن أن يهدأ . فهو فى صراع دائم . ولكن على حين تكون رحى ذلك الصراع دائرة على أشدها فى أعماقى ، تظل أسارير وجهى ساكنة هادئة كأنى لا أفكر فى شىء أو كأن عقلى صحيفة بيضاء وليس به هذا الموج المتلاطم من الانفعالات ! كانت نفسى تمور ويدى دائبة على الحركة ، حركة التزين والتجمل وتصفيف الشعر . ثم اختيار الثوب الملائم للصباح . ثم اختيار الحذاء وحقيبة اليد . وحتى منديل يدى عنيت باختياره كى يلائم ملابسى . . . وأخيراً وقفت طويلا عند اختيار العطر المناسب .

ونزلت فى آخر دقيقة مسرعة نحو موعدى . وإن كنت أفضل الوصول متأخرة قليلا حتى أتأكد من انصراف من قبلى وتتاح فرصة

الراحة والاستعداد للدرس التالى . ولست أحب أن أذهب فى زحمة الخروج والدخول . بل أفضل أن يكون المكان خالياً تماماً حتى يكون المسرح كله متفرغاً لإبراز دخولى وحركاتى . فلا تتلاشى شخصيتى المتفردة فى هرج الزحام .

وصعدت السلم المعتم مثنى مثنى . وطالعنى وجه المدير جالساً فى مكانه . فأومأت إليه محيية برأسى بإشارة عابرة غير ملتفتة إليه كأنما أقول له لا تبرح مكانك . فليست بى رغبة فى أن تتبعنى . . .

ووجدت حجرة الموسيقى خالية .

الأستاذ خورشيد لم يحضر بعد . . . فوقفت أتفقد الحجرة بعينى فوجدت كراسة بها نوتة موسيقية وإلى جوارها صورة لطفل صغير . . . إنه النابغة موتسار وهو يقود الأركسترا . وأظنه يومئذ كان فى التاسعة من عمره . ولكن وجهه شديد الشبه بوجه الأستاذ خورشيد فى عمره الراهن . إن وجه خورشيد لو فصلناه عن جسمه النامى لهو وجه فتى فى العاشرة أو نحوها ، ليس فيه أثر للخشونة أو النضوج الانفعالى أو التجربة . . .

ولم أفطن لدخوله إلا عندما سمعت صوت الباب من خلفى يقفل ببطء شديد . فاستدرت فوراً على عقبى . . .

يا إلهى ! إنه اليوم أنضر من أمس وأصغر منظراً فى هذا القميص الأبيض الناصع . وعيناه تضحكان دائماً . حتى وهو جاد لا تخلو نظرته من حنان ضاحك .

ولا أدرى لماذا استشعرت له قلباً كبيراً حانياً. ربما لأنه دمث جداً فى

معاملته . أو ربما لأن حركاته تفيض بالحنان الذى تحسه فى كل لفتة منه . فتلك الطيبة المرتسمة بوضوح على ملامحه الطفلية تجعل من العسير جداً أن أقاوم رغبة التربيت على وجهه وضم رأسه إلى صدرى فى حنان الأمومة الفياض الدافق . . .

وسألنى فى رقة متناهية :

— كيف حال الموسيقى معك منذ أمس ؟

فقلت وأنا أثبت عينى فى وجهه كعادتى كلما خاطبت إنساناً :

— لا بأس . ولو أننى لا أميل كثيراً للانحصار داخل إطار مرسوم . بل أفضل ترك نفسى على سجيتها . ولذا وجدت مشقة كبيرة وأنا أتتبع النوتة .

فهز وجهه المستدير الأملس هزة العليم الخبير وقال : « لا عليك . ستتعودين ذلك متى أخذت نفسك بالشدة فى أول الأمر . أما إذا تراخيت فلن تحصلى على نتيجة سريعة ».

ثم سدد نظرته الضاحكة إلى وجهى فى تساؤل وقال : « أليس كذلك؟ لنبدأ الآن درسنا لأرى مبلغ تقدمك . . . »

عجيب هذا ! إنه يكلمنى كما يكلم الرجل الكبير طفلة على قدر عقلها ! ماذا دهاه ؟ لم يكن هذا حاله بالأمس . ألعله يريد أن يثبت لى رجولته وشدة بأسه بعد الذى قلته له بالأمس عن سنى . وأنه فى عمر ولدى؟ إن الشاب فى هذه السن يزعجه أن تعده امرأة ناضجة طفلا إذا كانت هذه المرأة تعجبه أو يريد أن يحوز رضاها . فهل أعجبته ؟

أم تراه يريد أن يختبرني ليعرف إن كنت امرأة فاضلة حقًّا . لأنه يعتقد أن كل النساء سواء فى أعماقهن ، لا فرق بين من تدعى الفضيلة والشرف وبين من تمارس الدعارة إلا فى المظهر الخارجى ، ومتى أمنت الفاضلة المتصونة الرقباء خلعت العذار وغدت أشد دعارة من الساقطات المحترفات ؟

وأحنقنى هذا الخاطر فاحتقرت نفسى وسخطت عليها سخطاً شديداً . أبلغ بى التهور أن أسمح لطفل أن تراوده مثل هذه الفكرة عنى ؟ أى ابتذال وامتهان لكرامتى ؟ أى حمأة أضع نفسى فيها مختارة واعية مفتوحة العينين ! ؟ يالضيعة السن ! زوجى إذن على حق حينما يقول لى كلما رآنى أمارس مناوشاتى الصغيرة عابثة بخلق الله من الرجال :

ــ ستعيشين مائة عام يا امرأة . حتى وأنت فى عامك الواحد بعد المائة لن تفلتى رجلا يمر بحياتك متى كان فيه شىء يستهويك !

فهل أنا حقًّا كما يقول؟ كم من الرجال حاولت أن أوقعهم فى شباكى حتى اليوم ؟

وأخذت أستعرض فى مخيلتى القائمة . فأحسست إحساساً عميقاً صادقاً أننى لم أكن أعنى أى رجل منهم لذاته ، بل كان الدافع الأكبر لى استمراء اللعبة . بدليل أننى كنت أتراجع بصورة حاسمة فى اللحظة التى كنت أحس فيها بالخطر . ولم تكن المسألة تترك فى أعماقى أى صدى من اللوعة . وإنما صداها الوحيد كان فى إحساسى بالحنق الشديد

على نفسى لأننى تورطت تورطاً قد يشعر هذا الشخص أنه شىء ذو بال وهو فى الحقيقة لاشىء على الإطلاق . . .

ونبهنى من شرودى الطويل صوت الأستاذ خورشيد الرصين العميق الذى لا يتفق مطلقاً مع وجهه الناعم الأملس : « ماذا جرى يامدام أميرة ؟ أهناك شىء يضايقك ؟ » فالتفت إليه مذعورة كأننى خفت أن يكون قرأ أفكارى وسألته وأنا أرفع عينى إلى وجهه : « هل أخطأت فى العزف ؟ »

فهز رأسه عدة مرات متواليات ، ثم قال وهو يبتسم بعينيه ويضم شفتيه . وكانت هذه لازمة من لازماته : « إن من يسمعك يقول إنك لم تتمرنى فى البيت دقيقة واحدة . . . اسمعى يا مدام أميرة . . . إن البيانو يحتاج إلى تركيز الذهن لا إلى شتاته . وأنا أريدك هذه الساعة أن تطرحى جميع أفكارك الشخصية من ذهنك وتجعلى كل همك فى الدرس والعزف ! »

كيف تجرأ على أن يكلمنى بهذه اللهجة ؟ ما هذه السلطة التى يخولها لنفسه فى أثناء الحديث ؟ أيعتقد أننى تلميذة فعلا وأن له الحق فى إملاء أوامره وفرض إرادته على ؟ ولكنى سكت . ولم أظهر أى تأفف بل على العكس اعتذرت له بأنى لم أتمرن فعلا دقيقة واحدة . وكنت كاذبة ! ولكن لأن أدخل فى روعه أننى لم أتمرن إطلاقاً خير ألف مرة من أن أكون قد تمرنت وارتكبت هذه الأخطاء . وحاولت فى بقية الدرس أن أحصر ذهنى ولا أشرد لحظة واحدة . وأن أتجاهل شخصه تمام التجاهل كأنى

أتلقى التعليمات من آلة صماء . واتخذت سمت الجد والوقار حتى إننى كرهته فعلا وكرهت البيانو . وعولت فى نفسى على ألا أعود . فأنا لا أحب أى مناسبة تفرض على الشعور بالضآلة . . . .

٦

ركبت سيارتى التى كانت تنتظر حيث تركتها أمام باب المعهد وكلى عزم وإصرار على عدم العودة إلى درس الموسيقى . فقد ركبنى الحنق لهزيمتى أمام هذا الغلام بعد أن كان زمام الموقف فى يدى . واندفعت بالسيارة فى طريق خلفى طويل خال تقريباً من السيارات وأنا ألعن الساعة التى رأيت فيها اللافتة واليوم الذى دخلت فيه باب المعهد . وهذه الشطحات التى تركب دماغى وتستولى على بدون مقدمات .

وضرب الهواء وجهى فأعاد إلى نفسى بعض هدوئها وانبلجت أمام ناظرى حقيقة كنت أحاول التملص منها .

لماذا إذن تذهبين إلى هذا المعهد إن لم يكن للتعلم والجلوس مجلس التلميذة ؟ إذا كنت تعتقدين أنه ملهاة لتزجية فراغك ، فقد غاب عن ذهنك وفطنتك أنه يأخذ الدرس مأخذ الجد الجاد . وأنه خبزه اليومى الذى يتعيش منه . وهل خطر ببالك أن يترك العمل ليطرى جمالك ويركع تحت قدميك ؟ كلا يا أميرة إن عيبه أنه جاد معك أكثر مما يجب .



فكم من رجل فى سن أبيه له عقلية طفل . أما هذا الغلام فله عقلية رجل ناضج .

ـ أتستهويك إذن عقلية الأطفال أم نضوج الرجال ؟

ـ لا أدرى ! أحياناً هذه وأحياناً تلك . وأنا لا أستطيع فهم نفسى . زوجى يفهمنى أكثر منى ؛ سأقص عليه ما حدث وأطلب منه المشورة !

واندفعت أسابق الريح إلى البيت . ولم يكن قد حضر بعد وجلست أنتظره وأنا على أحر من الجمر ولكنه تأخر على غير عادته . عندئذ تملكتنى رجفة مخيفة . وجزع شديد . وكان هذا ديدنى كلما أحسست غيبته . فأنا أحتاج إليه حاجتى إلى الهواء والطعام والماء . أمرح وأجوب الحياة طولا وعرضاً وأنا مطمئنة إلى أنه خلفى يؤازرنى ، ولا يمكن أن يخذلنى أو يتخلى عنى مهما حدث . ويدفع عنى السوء ويحنو على ويمسك بيمينى ليقودنى فى ساعة الخطر إلى شاطئ الأمان .

وسمعت على درج السلم وقع قدميه فأسرعت أفتح الباب قبل أن يصل إليه الخادم . واحتوانى بين ذراعيه وهو يلهث قليلا . فتخلصت منه وجذبته إلى الداخل . إلى حجرة النوم . . . وشرعت أساعده على خلع ملابسه . فقال وهو يزوم دون أن يلتفت إلى : « م م . . . . ماذا وراءك من جديد ؟ كيف حال بتهوفن اليوم ؟ » . ولم أدر لماذا أجبت على الفور وبغير تفكير : « لن أذهب بعد اليوم ! » فاستدار حتى واجهنى وقال فى عجب : « هكذا مرة واحدة ؟ هل حدث شىء ؟ » فقلت بقلة اكتراث : « لم يحدث شىء ولكن صدق من قال إن من تخرج من

دارها تقلل من مقدارها . والمسألة من البداية كانت رعونة لا معنى لها » .

— هوه هوه ! ما المسألة بالضبط ؟

— هذا الغلام يعتقد أنه يستطيع إملاء أوامره على من فوق وكأنه صدق أننى تلميذة حقًّا . . . !

ولم يتكلم فوراً بل تشاغل بخلع بقية ملابسه وارتداء ملابس البيت . ثم استدار إلىّ وعلى وجهه مسحة من التفكير الجاد ووضع يده على كتفى وقادنى بجواره إلى آخر الحجرة حيث الأريكة القرمزية الكبيرة . وجلس وأجلسنى بجواره ثم أمسك يدى بين يديه وجعل يربت عليها تربيتاً رتيباً ويعد أصابعى واحداً واحداً . . . وكانت هذه عادته كلما حز به أمر ، وكنت أعلم أن وراء هذا المظهر الهادئ الحانى عقلا جباراً يرتب الأمور ويحللها ويعطيها حقها الطبيعى . فتأهبت لتلقى كلماته وأنا ألعن اللحظة التى أفلتت فيها الألفاظ من فمى دون أن أعنيها . واللوم فى ذلك على التدليل الذى أخذنى به طوال حياتى ، فأنا أتكلم دون تقدير لعاقبة كلماتى التى أفوه بها عفواً فتسبب له أرقاً وهمًّا كان فى غنى عنهما . وأتانى صوته الأجش الهادئ :

— تعلمين جيداً يا أميرة أننى لا يمكن أن أحجر على حريتك أو أضع قيوداً أو تحفظات على انطلاقاتك الطبيعية فى الحياة . وتأكيد ذلك لك الآن من نافلة القول . وأنا أعلم أن هناك نماذج من البشر تستهويك طرافتها وتدفعك دون روية أو تبصر إلى معرفة كنهها أو العبث بها .

كأنهم لعب أو كلاب وقطط تربينها للتلهى بها في أى وقت يخطر لك ذلك . وهذا ما يغضبني . لا من أجلك بل من أجلهم هم أولا . فالآدمية يا أميرة شيء ينبغي أن يكون له احترامه . إنهم بشر وليسوا جمادات أو عجماوات . فهذا التلهى "بالآدميين إهدار لكرامة الآدمية منهم . ولئن كنت قد تزوجتك طفلة فتركتك تختبرين الحياة بنفسك دون أن أتدخل فى أمر من أمورك مباشرة . فذلك كان عن قصد لكى أترك لك حرية اختبار الحياة اختباراً عمليًّا . وأعتقد أنك قد فهمت الآن كل شيء وصار لك من رجاحة العقل وسلامة الفهم ما ينأى بك عن التورط فى عمل من شأنه أن يهدم حياتك وأنت امرأة محترمة ناضجة . وقل بين النساء من تضارعك فى حصافتك وفهمك . . . .

ورفعت يديه الممسكتين بيدى ومرغت فوقهما خدى فى امتنان . واستطرد هو من غير أن تتغير طبقة صوته :

— إن أخطر ما فى الموضوع أن الشبان فى سن ذلك الفتى منهم من يأخذون الحياة مأخذ الجد الخالص . أما الرجال المتمرسون الذين يأخذون الحياة كما هى ولا يطالبونها بأكثر مما تعطيهم فلا يأخذونها مأخذ الجد الصارم كالشبان . فالشباب دائماً متطرفون . وتجربة السن هى التى تعلمهم التسليم بالأمر الواقع وتلقنهم فلسفته . فإذا كان قد راود نفسك أمر بخصوص هذا الشاب اليافع — وأنا أعرف أن ذلك ليس بمستحيل — فإنى أحذرك وأنا أشعر لأول مرة أننى مسئول عن ضرورة تحذيرك . إن هذا الشاب لن يتراجع خطوة واحدة إذا أوقعت فى روعه

أنك تميلين إليه . سيعتبرك على الفور ملكاً خالصاً له . فالشباب لايعرف الوسط . . . فإن كنت آنست من نفسك ذلك الاتجاه فأنت على صواب فى وجوب قطع الدرس قبل أن يستفحل الأمر .

وخلص يديه من يدى ونهض إيذاناً بانتهاء كلامه . وكأنه يقول ها إنى قد بلغت اللهم فاشهد !

وانتابتنى رعشة لكلماته القاطعة . ولكنى أفلحت فى مداراتها وواجهته بنظراتى فى تحد سافر قائلة : « ما هذا الذى تقول ياعونى ؟ وهل جننت أنا حتى يخطر مثل هذا الخاطر بعقلى ؟ إنه مجرد استياء المرأة الكبيرة حينما تجد غلاماً فى سن ابنها تقريباً يحاول أن يملى عليها أوامره . وهذا كل ما فى الموضوع » .

وكنت صادقة فيما أقول كل الصدق . فتصرفاتى لاتحدث بتدبير سابق . بل هى بنت ساعتها . ولا أعلم بعد ذلك ما سيكون . وكل أمورى متروكة لوحى اللحظة . . .

وهدأت نفسه قليلاثم قال يؤنبنى فى ترفق :

ـ يجب أن تقدرى يا أميرة ظروف كل إنسان . ومن أدراك أن هذا الشاب لم يلاق عنتاً من تلميذاته اللواتى ينظرن إليه على أنه طفل . فهو يتصرف على هذا النحو ليملأ مركزه ، مركز الأستاذ . . . فكونى رفيقة به ما دمت تقدرين أنه فى سن طفلك . . .

ووضع يده على كتفى . يستحثنى على النهوض للغداء . ولكنى لم أتحرك وظلت ملامحى جامدة حادة وإن كانت خالية من العبوس

الواضح . فأنبه إحساسه الفطرى الرقيق على قسوته التى لم يكن لها موجب كما خيل إليه ، ولام نفسه على تسرعه إلى إساءة الظن ، فانقلب حانياً حنو الأب الرحيم وجعل يقبلنى فى كل موضع من وجهى كأنه يريد أن يمحو الصفعات المعنوية التى كالها لى منذ حين . وقد تعودت منه هذا الانقلاب من النقيض إلى النقيض . وتذكرت أيام كان لنا طفل . كان يشتد عليه أحياناً فيضربه . ثم يدخل حجرة نومنا وعضلات وجهه ترتجف وتدمع عيناه . ولا يهنأ حتى يهجم على الطفل الباكى فيحتويه بين ذراعيه ويغرقه بقبلاته ودموعه . . .

وغاص قلبى بين جوانحى لتلك الذكرى ، فعانقته وأخذت ألوم نفسى . ألست أنا التى تحرك كوامن شكه وهواجسه ؟

* * *

وفى المساء تحريت أن أجلس إلى البيانو وقتاً طويلا حتى أتقنت درسى إتقاناً تامًّا . فى حين جلس زوجى يطالع فى كتاب . ولم أكف لحظة واحدة عن تأنيب نفسى تارة واختلاق الأعذار لتصرفى تارة أخرى . لماذا قلت له أى شىء عن أزمتى ؟ ألكى أستثير الشك والريبة فى نفسه ؟ ألا أتعلم قط من تجاربى السابقة ؟ سيظل يراقب حركاتى على طريقته الساكنة وهو يظن أنى لا أفطن إليها . لقد خلقت لنفسى متاعب كنت فى غنى عنها .

وكان علىّ أن أثبت له سلامة نيتى تجاه هذا الشاب . وأننى لا أنظر إليه سوى نظرتى إلى طفل يافع . فقلت ونحن على مائدة العشاء حينما

تطرق بنا الحديث إلى المعهد بعد أن وصفت له المدير العجوز وحركاته العصبية العجيبة :

— إن رأيت يا عونى أنه لا داعى لهذه الدروس فأنا مستعدة لقطعها فوراً !

فقال بلهجة عتاب :

— أأنت بلهاء ؟ ومتى حرمتك من متعة تصبو نفسك إليها ، فما بالك وهذه المتعة هى الموسيقى أجمل الفنون وأجلها ؟ إنما أردت فقط أن أنبهك وأنا أدرى الناس بفرط حساسيتك ورهافة تكوينك حتى لا تؤذى نفسك ولا تؤذى الناس . . .

٧

كان الدرس الثالث فاتحة عهد جديد بينى وبين الأستاذ خورشيد . فقد تطرق بنا الحديث دون أن ندرى إلى مضايقات المهنة التى صادفته فى مطلع صباه . وأعتقد أنه أراد أن يعتذر بهذا الحديث عن طريقة معاملته لى فى المرة السابقة بدون أن يشعرنى بذلك . . . وكنت أؤدى مقطوعة صغيرة على النوتة . وارتكبت فى الأداء عدة أخطاء متوالية مما أدى به إلى مراجعتى مرة بعد مرة حتى شعرت بالسأم . فضحك ضحكة طفلية مرحة وقال وكأنه يدعونى للعبة الاستخفاء بين حوارى الحى : « دعينا من العزف الآن مادمت تشعرين بالملل . ولنتحدث

بضع دقائق فى شىء آخر . سأقص عليك قصة صغيرة إلى أن تستعيدى إقبالك على العزف » . . . فقلت وأنا أستدير بمقعدى اللولبى كى أواجهه ووضعت يدى فى حجرى : « يسعدنى أن أستمع إلى قصتك ». فلمعت عيناه المستديرتان وسط وجهه المستدير وقال : « حينما أتيت إلى هذا المعهد لأدرس فيه كنت صغير السن جداً . لم أتم عامى السابع عشر . ولا تنظرى لضخامة جسمى الآن ، فقد كنت حينئذ ضامر العود جداً لم أمارس بعد الألعاب الرياضية وتمرينات الحديد . ولما كان منظرى يغرى التلاميذ باستصغار شأنى فقد عولت على أن أتخذ الجد والوقار طابعاً مميزاً لشخصيتى حتى لا أفقد ثقة تلاميذى . . . . وأفلحت فعلا فى حملهم على احترامى . . . وذات يوم دخل على المدير بتلميذة من نوع جديد : ما إن رأيتها حتى كدت أصعق فى مكانى . وكانت على ما أظن سيدة فى نحو الخامسة والثلاثين ذات قامة فارهة وجمال أخاذ . وشعرها الأسود مسترسل على كتفيها العاجيتين . وبشرتها بيضاء صافية وعيناها سوداوان واسعتان . وقد أخذت حينما وقع بصرها علىّ . بيد أنها لم تتكلم ، بل نظرت إلىّ شذراً وجلست دون أن تنبس بكلمة . أما المدير فظل يطنب فى الثناء علىّ ويعدد مآثرى وأنا كالغريق يبغى النجاة من هذا المأزق الذى وجدت نفسى غارقاً فيه حتى أذنى . . »

وكان يتكلم وأنا أتتبع نظراته وحركات شفتيه . وكان رائعاً فى سرده لطيفاً كالأطفال فى ضحكاته الصافية . وإذا كان وهو فى الثانية والعشرين وله هذا الجسم الضخم الناضج يوحى بأنه غلام لم

يتجاوز دور الطفولة بوجهه المستدير الأملس . فما بالك عندما كان في السابعة عشرة ؟

واستطرد خورشيد يقول : « واتخذت أمامها مظهر الجد والصرامة في شيء من المبالغة لأداري الرجفة التي انتابتني لأواجه الموقف . ولسوء حظي كانت السيدة تنتمي إلى أصل تركي . فهي ممن ينظرن إلى المصريين نظرة التعالي . فما إن نبهتها في حزم إلى بعض ما ارتكبته من أخطاء في عزفها حتى انتفضت من مكانها مستشاطة وتركتني وتركت الحجرة إلى مكتب المدير . ومن هناك سمعت صوتها يجلجل في أرجاء المعهد وهي تصيح : « إن لم يكن لديكم غير هؤلاء الأطفال للتدريس فالأولى بكم أن تغلقوا هذا الذي تسمونه معهداً » . ولا أدري ما الذي أصابني في تلك اللحظة — مع أنه مشهود لي ببرود الطبع — فقد أسرعت نحوها . ودون أن ألقي نظرة على المدير وجهت إليها كلماتي قائلا : « إذا كنت تعدينني طفلا في السن فلي عقل رجل وإلمام شيخ بجميع دقائق الموسيقى . وأنا ، وإن كنت لا تعلمين ، ذو شهرة في العزف يتطلع إليها كثير من المخضرمين . فالمسألة ليست في الفن مسألة سن ، بل مسألة دراية وإتقان ! » . . . فلم ألبث أن رأيت هذه المتألهة تنكس رأسها ولا تحير جواباً ، ثم مشت أمامي ساكتة إلى حجرة الموسيقى . ومنذ ذلك اليوم صرنا صديقين إلى أن رحلت عن البلاد نهائياً . . . »

وكنت أعلم أن القصة كلها من تأليفه وتلحينه . ولكني تظاهرت بتصديقها حتى لا أجرح شعوره . وظللت أرقبه باستمتاع خفي وهو

يضحك ملء شدقيه لتغلبه الموهوم على ربة الحسن والجمال . وقد أيقنت أنه يريد بذلك أن يدخل فى روعى أنه ليس طفلا وإنما هو رجل مكتمل الرجولة تخضع لسيطرته ومهابته أعنى النساء ! وإياك أعنى فاسمعى يا جارة بطبيعة الحال !

وانتفخت أوداجه وهو يتمشى فى الحجرة جيئة وذهاباً ثم قال : « والفتيات الصغيرات حالهن أدهى وأمر . إننى أضيق بعقولهن الفارغة . فأفكارهن فى منتهى التفاهة . وما إن يظهر الإنسان لهن بادرة عطف واحدة أو يوجه إليهن كلمة رقيقة حتى يعتقدن أنه متدله فى حبهن . . . فيأخذن فى القيام بحركات تضيق لها نفسى وتزهدنى فى مجرد مجاذبتهن الحديث . . . »

فقلت وأنا أتفحصه بعينى فى هدوء تام دون أن يبدو على وجهى شىء مطلقاً مما يعتمل فى أعماقى ، وكأننى أسأله عن حالة الجو اليوم : « أى نوع إذن من النساء يعجبك ويملأ نفسك بالرضى ؟ » فقال بغير اكتراث : « لم أقابل حتى الآن فتاة أو امرأة — على كثرة من قابلت وعاشرت من هؤلاء وهؤلاء — يمكن أن أعدها شخصية كاملة يعتد برأيها أو لها طابعها الخاص المميز . فحتى من يقال عنهن فضليات ممن عرفتهن من النساء علمتنى الخبرة أنه ما إن تزال القشرة الخارجية التى يغلفن بها أنفسهن أمام الناس ويظهرن على حقيقتهن حتى تصدمى بما يتكشفن عنه من تفاهة وضيق أفق وصغر عقل . فلا فرق هناك بين فتاة السابعة عشرة وامرأة الخامسة والثلاثين . فالاثنتان لا مشغلة لهما

فى الحياة وراء الثياب . . . والحب طبعاً ! ولكن الحب نفسه عندهما مسألة خلع ثياب أيضاً وكل الفرق بين هذه وتلك إنما هو فى طريقة الكلام والتفكير المائع عند فتاة السابعة عشرة وفى المناورات الخائفة منها والمفضوحة عند امرأة الخامسة والثلاثين ! »

وأفزعتنى كلماته ! فهذا الشاب الذى كنت أعتقده غرًّا ساذجاً إذا به ملم بأدق دقائق المرأة . خبر كل شىء فلم تعد تستهويه فى سنه هذا فتاة السابعة عشرة الفارغة . ولا امرأة الخامسة والثلاثين اللاهية .

٨

حينما توجهت للدرس الرابع كانت شخصية الأستاذ خورشيد قد تغيرت فى نظرى تغيراً كليًّا . وقد وطنت نفسى على اتخاذ سمت الجد والوقار . وعلى أن أتكلم بحساب ولا أفلت حركة تنم عن تهاونى . . . . ولا أدرى ما الذى جعلنى أقرر فى صوت رصين هادئ النبرات حينما أتى ذكر أمه فى معرض الحديث وقال إنها سيدة ليست صغيرة السن ، فهى فى الخامسة والأربعين . . . . قررت وأنا أرفع حاجبى دهشة : « عجباً ! فى الخامسة والأربعين ؟ إذن هى فى مثل سنى تماماً ! » فرمانى بنظرة ضاحكة وهو يقول : « أنت يامدام أميرة فى الخامسة والأربعين ؟ لا يمكن أن أصدق هذا ؟ فمن يراك لا يمكن أن يقدر لك أكثر من ثلاثين . . أو على أقصى تقدير خمسة وثلاثين سنة . . . . »

فقلت وأنا أطوح رأسي فى أناة شديدة : « إنها الحقيقة يابنى . ولكنى سعيدة لأنى أبدو أصغر من سنى بهذا العدد العديد من السنوات... » فقال : « ولكن المرأة حين تبلغ الخامسة والأربعين تبدو السن واضحة على مواضع معينة من وجهها وجسمها . . . » فقلت أستزيد إيضاحاً وأنا أعلم سلفاً ما يقول : « وكيف ؟ » فأجاب وهو يتفحص وجهى جيداً بعينيه المستديرتين : « كأن يكون لها مثلا ذقن آخر تحت ذقنها ، ذقن مترهل . وأنت لا أثر عندك لهذا الذقن . وأن يكون حول فمها خطان غائران . أما أنت فأعتقد أن الخطين اللذين حول فمى أنا غائران أكثر مما عندك أنت . ثم هذا الجسم لا يمكن أن يكون لامرأة فى الخامسة والأربعين . . . »

وكانت لهجته وإشارة يديه وهو يقول عبارته الأخيرة تدل على خبرة رجل له باع طويل فى تقليب أجسام النساء . . . وشعرت بالزهو وهو يطربنى بهذا الشكل الساذج . ولكنى فى الوقت نفسه تأثرت لأنه قدر لى لغاية سن الخامسة والثلاثين . أى أنه تجاوز عمرى الحقيقى . ولكن له عذره إذ لا يمكن أن يقول إننى فى الثامنة والعشرين على حين أشهد أنا على نفسى بملء فمى أننى فى الخامسة والأربعين .

وتحريت أن أناديه يابنى كلما ناقشنى فى شىء فى أثناء الدرس . وقد غاظه جداً هذا النداء ، بيد أنه كان من اللباقة وخفة الدم بحيث يضم كفيه خاشعاً ويقول فى احترام زائد وهو يسبل عينيه : « حسناً يا والدتى . أنا طوع أمرك » .

وبدأ الدرس يأخذ لوناً لطيفاً من المناقشات الفكرية ، ثم من العزف. وسألني بجد بعد مرور نصف ساعة من الوقت المحدد للدرس : « وما رأيك في الحب يا مدام أميرة ؟ أترين أنه يوجد شيء اسمه حب مستقلا عن الرغبة ؟! »

فقلت وكأني ألقي عليه درساً : « إذا كنت لا تؤمن بوجود الحب مستقلا عن الرغبة كما يظهر لى ذلك من طريقة سؤالك فلا سبيل إلى المناقشة لإقناعك برأى» فقال : « إذن أستطيع أن أفهم من كلامك أنك — كسائر النساء — تؤمنين بما يسمونه الحب دون إحساس بالرغبة؟ » فأجبته : « كلا. لا تفهم ردى على غير حقيقته . فالحب مقترن دائماً بالرغبة . وإنما الرغبة فى نظر النساء غيرها فى نظر الرجال » . فسألني : « وكيف ذلك يا مدام أميرة ؟ »

— الرجل مثلا يريد أن يستمتع بالحب حتى آخر قطرة ، ولهذا لا يكفيه أن يكون حبه أفلاطونيًّا لأن ذلك يضنيه.. يضنى جسده على الأقل . فإذا لم يجد المرأة التى يحبها وتهبه نفسها عن طيب خاطر هبطت حرارة حبه ، ولا يلبث أن يتلاشى تماماً متى وجد امرأة أخرى ترضيه قلباً وجسداً . . .

—والمرأة يا مدام أميرة ؟

— المرأة تحب بقلبها وكيانها كله . ولكنها لا تستسلم للرجل إلا إذا أحست أنه لها بكيانه كله . ولخوفها من غدر الرجل بها بعد قضاء غرضه تكتفى فى إشباع رغبتها بالقبلة والحنان الدافق . وتجد فى ذلك إشباعاً

كلياً دون أن تلجأ إلى العلاقة الجنسية الكاملة. وها أنت ترى مدى اختلاف عنصر الرغبة والدور الذى يؤديه فى الحب عند الرجل والمرأة .

فنظر إلىّ بإكبار صادق وقال : « لأول مرة فى حياتى ألتقى بامرأة تتكلم بطلاقة وفهم دون مواربة أو تصنع للخجل . فما من امرأة ذكر أمامها الجنس فى مجلس يضم الجنسين إلا وأغضت خجلا وتورعاً كأنها لا تمارسه مع كل من هب ودب . » فقلت معاتبة : « لا تكن متجنياً على المرأة إلى هذا الحد يا أستاذ خورشيد . أم هل يرضيك إذن أن تخوض المرأة فى الجنس وملحقاته بوجه صفيق وإقدام كإقدام الرجل ؟ أعتقد أن ذلك حرى أن يحدث عندك صدمة نفسية دون أن تشعر » . فأجاب بحماسة : « كلا بالعكس . فها هى المسائل بعينها تفحص فيما بيننا ونناقشها بكل بساطة لأننا نحن الاثنين نتناولها من الناحية السيكولوجية البحت ولا ننظر إليها على أنها مجرد فاتحة شهية كل الغرض منها التمهيد لفعل يرتكب فى التو واللحظة ، كما تعدها غالبية النساء ؛ ولذا يصيبهن الخجل [illegible] مجرد الإشارة إليها !

ـــ لا تنس من فضلك يا أستاذ خورشيد أننا هنا اثنان لا ثالث معنا . وأن كلاً منا يفهم مقصد الآخر على وجهه الصحيح . ولذلك نتكلم بصراحة وصدق دون خجل أو مواربة . أما فى المجتمعات العادية فإذا وجدت رجلا أو رجلين يناقشان هذه المسألة مناقشة سيكولوجية خالصة . فستجد الغالبية العظمى لا يرمون من وراء الخوض فى هذه المسائل إلا أموراً تدفع الدم حاراً إلى وجوه النساء اللواتى لم يتعودن مثل هذه الجلسات المشتركة . فعهدهن بها قريب . . .

فأجابنى وهو يهز رأسه هزة غير الموافق : « كلا يا مدام أميرة !

قد أفهم أن تصدم الفتاة العذراء بهذه المناقشات . وإن كانت الفتيات الآن لا تقل خبرتهن بالموضوع عن أمهاتهن . أما المرأة التي مارست هذه الأمور وتمارسها كل يوم فلا أفهم إطلاقاً سر احمرارها وخزيها . . . »

وأفزعني للمرة الثانية حكمه القاسي السافر القاطع على النساء . ولا سيما الفتيات. وأردت أن أعرف مدى علاقاته بهن . فسألته في بساطة : « هل لك علاقات كثيرة بالنساء والفتيات ؟ » فقال كأنما يقرر أمراً واقعاً هو به مزهو : « منذ السادسة عشرة وأنا منغمس في تلك العلاقات . وأما الفتيات فأنا لا أميل إليهن كثيراً لأنهن يدفعن بي إلى الملل والسأم . فالفتاة تريد من الرجل الذي يدعوها إلى الرقص أو إلى نزهة أن يظل يردد على مسامعها طول الوقت كلمة « أحبك » أو تضم هي فمها في كل لحظة وتهمس في ضراعة مبتذلة « أتحبني حقًّا كما أحبك ؟ » . . . وهذه أشياء تزهدني جدًّا في الفتيات وأفضل عليهن النساء الناضجات لأنهن — وإن كن كالفتيات في قلة الإدراك والتفاهة — يستطيع الإنسان أن يأخذ راحته معهن سواء في المناقشة أو السلوك ! » فقلت بجد : « ألم تحب قط ؟ » فقال بتؤدة كأنما يقرر أمراً لاسبيل إلى الرجوع فيه : « قلت لك يا سيدتي إنه لا يوجد شيء اسمه الحب . وحتى إن وجد فأنا لاأعترف به ولن يكون له دور في حياتي » .

فأجبته بصدق وإخلاص : « إذن لافائدة من الكلام الآن في هذا الموضوع . فعندما تحب ستذوب جميع هذه المعتقدات التي تملأ رأسك . وستجد نفسك إنساناً آخر يؤمن بأشياء ويقدسها ، مع أنه كان يكفر بهذه الأشياء عينها ويلعنها منذ حين . . »

فنظر إلي في صمت دون أن يجيب .

٩

قال وهو يقترب بمقعده حتى واجهنى تماماً : « حدثينى يا مدام أميرة عن حياتك . كم أتوق لمعرفة كل شىء عنك » .

فأجبته وأنا أهز رأسى بأسى : « إن حياتى ملآنة بالأعاصير ولا أرى داعياً لإزعاجك بالخوض فيها » .

فزادته كلماتى إصراراً على التشبث بما يريد . وكان من عادته إذا طلب شيئاً وأحجمت عن تلبية رغبته أن يحمر وجهه وتومض عيناه ويلح فى الطلب ، حتى إذا رأى منى تشبثاً سكت على مضض . ولكنه لا يلبث بعد برهة أن يكرر الطلب فى صورة أخرى ظناً منه أننى سأنزل تحت ضغط الإلحاح على رغبته . بيد أنى كنت أتعمد مراوغته متخذة عدم الفهم سبيلا للتخلص من إلحاحه . وكانت هذه المناورات تثيره فيعمد إلى المشى جيئة و ذهاباً فى الحجرة طالباً منى أن أسمعه الدرس ، ثم يكثر من إبداء الملاحظات ليشفى غليله وهو حريص على إغاظتى . ولكنه كان فى إصراره هذه المرة لطيفاً كالأطفال المدللين ، دمثاً كالكبار المهذبين ، فلم ألبث أن بدأت أقص عليه قصة حياتى . منذ مات أبى . وكيف تزوجت فى سن صغيرة . وكيف عشت أنا وزوجى قصة حب تخطو الآن نحو عامها السابع عشر . وقصصت عليه أمر طفلى الوحيد الذى مات فجأة . . .

وكنت أتكلم وهو يتابعنى بعينيه، وذهنه كله منصرف إلى كلماتى كلمة كلمة حتى وصلت إلى قصة طفلى فلم أتمالك صوتى من التهدج والحشرجة وأنا أقول : « أتذكر حينما رأيتك أول مرة وكيف تشبثت عيناى بوجهك ولم أفلح فى رفعهما عنك إلا بجهد جهيد ؟ » فهز رأسه موافقاً بدون أن يجيب واحتقنت عيناه حتى أصبحتا فى لون الكرز : « إن وجهك يا أستاذ خورشيد يشبه إلى حد كبير وجه طفلى . لذا أخذت بوجهك الطفلى المستدير الأملس ولم أستطع أن أمنع نفسى من التحديق فيه . وأعتقد أنك عجبت لموقفى ذاك فى أول مقابلة بيننا » .

وحتى هذه اللحظة كنت أغالب نفسى بمشقة حتى لا تتسرب الدموع المحتبسة فى حلقى إلى عينى . ولكن الذكرى كانت أشد وطأة على قلبى الصديع فلم أستطع حبس قطرات من الدموع طفرت إلى وجنتى . وأسرعت أضع يدى على عينى معتمدة بمرفقى على مفاتيح البيانو فندت عنها نغمة حادة كصرخة وليد تبددت فى الهواء وأعجزه أن يتبعها بأخرى . وأسرع الأستاذ خورشيد يحضر لى كوب ماء ولمس كتفى بطرف أنامله لمسة يسيرة جداً ، ثم رفع يده . فتناولت الكوب وابتسمت ابتسامة أمر من البكاء لأهون عليه ضغط الموقف ، فتركنى وتحول عنى ليقف أمام باب الشرفة يتطلع إلى الفضاء هنيهة .

ومددت يدى فداعبت أوتار البيانو ثم انسقت فى العزف وقد تسمرت الابتسامة على وجهى . وكان هذا شأنى كلما حزبنى أمر . . . . ألجأ إلى الابتسام المفتعل إلى أن ينجلى الموقف الأليم . . وأحسست

به وأرنى فرفعت عينى وتطلعت إلى وجهه باسمة . ورأيته آسياً حزيناً ، فاتسعت ابتسامتى وأنا أقول له : «أعتقد أن عزفى لم يرقك ! » فأجابنى بدون أن يبتسم : « إنما أردت فقط أن أقول لك إن الحياة مملوءة بالمآسى . وإن كل بيت لا يخلو من شقاء وتعاسة . فإذا كان الموت نهاية طبيعية لكل إنسان . فإن آلام المرض المستمرة هى الشوكة التى تظل تخز الإنسان حتى ينزل القبر . وآلام فرد من العائلة — خصوصاً إذا كان هذا الفرد طفلا عزيزاً — هى آلام العائلة كلها ، لا آلام ذلك الفرد وحده » .

فقلت وأنا أرمقه بحنان وأكاد أضع يدى على ذراعه : « من يسمعك يظن أنك تعانى من مرض عزيز لديك » . فأجابنى دون أن يحول عينيه عن وجهى : لى شقيقة وحيدة فى العاشرة من عمرها ؛ كالملائكة طيبة وصفاء نفس وقلب . وهذه الشقيقة الوحيدة مصابة بضيق مزمن فى الجهاز التنفسى . وبالأمس حينما كنت راقداً فى فراشى بعد الغداء وقد أغلقت باب حجرتى ، حدث مالا يحدث عادة ، إذ سمعت بعد ربع ساعة طرقاً خفيفاً على بابى . فتنبهت من نعاسى متعجباً منزعجاً وصحت « ادخل » وإذا بى أفاجأ بأختى تدخل على استحياء شديد تقدم رجلا وتؤخر أخرى . فعجبت لمنظرها ونهضت فأدنيتها منى واحتضنتها وسألتها عما حدث حتى أتت لتوقظنى فى هذا الوقت . فقالت بخجل شديد وعيناها مسمرتان فى الأرض : « لقد نسيت جهاز تنفسى فى حجرتك عندما كنت ألمع أثاثها فى الصباح . ولم أفطن إلى ذلك إلا حينما حاولت النوم عبثاً . فأحسست بالاختناق يزحف إلى صدرى » . . . فبكى قلبى

يا مدام أميرة ألماً وحسرة على هذه الصغيرة المسكينة التى لا تستطيع التنفس من دون جهاز طبى . وإلى متى ستستمر على هذه الوتيرة ؟ ألم يكن الموت أهون علىّ من رؤيتى إياها تتعذب بهذا الشكل الموجع ؟! . . . وليت عذابها وقف عند هذا الحد . فكثيراً ما تصاب بالإغماء حتى نظن أن نهايتها دنت. وتنقلب الحياة غمًّا ونكداً إلى أن تئوب إلى وعيها ...»

وكان على فى هذه المرة أن أقوم بدور المواسية . ولكن هذه القصة المؤلمة فتتت البقية من أعصابى فألجم لسانى عن الكلام وامتلأ فمى بالمرارة وفاض قلبى بالحسرة .

وشعرت أن هذا الطفل الكبير ليس غرًّا كما كنت أعتقد . بل إن آلام الحياة قد صهرته فى بوتقتها وأخرجت منه فى سنه الصغيرة هذه رجلا مرهف الحس قوى المشاعر عميق الإدراك لأغوار النفس البشرية وما يصيبها من محن وحز فى نفسى أن يكون هذا الفتى اليافع عائلا منذ صغره لعائلة كبيرة العدد بين أفرادها طفلة بائسة تعانى المرض والألم . وينفق هو كل قرش ليسعدها ويرى فى وجهها نضارة الأطفال ، وهو يعلم جيداً أنه لا طائل يرجى من وراء ذلك .

١٠

كان الألم يعتصر قلبى وأنا أخطر داخل البيت كأنما أحمل فوق كاهلى عبء البشرية جمعاء . وقابلنى الخادم النوبى فى الدهليز يزف

إلى همساً بشرى ترقية زوجى ويشير بسبابته فوق شفتيه حتّى لا أفضحه ، لأن عونى أوصاه أن ينكر وجوده فى البيت كى يفاجئنى بالخبر السار . . .

وكان علىّ أن ألقى بمتاعبى وأحزانى على السلم خارج باب المسكن لأدخل خفيفة مرحة حتّى لا أصدم صديق عمرى . رآى حزينة مكتئبة فى يوم فرحه . وعلى الفور أخذت أصفر بفمى لحناً مرحاً . حتّى إذا توسطت حجرة النوم إذا به يخرج من خلف الباب ويندفع نحوى معانقاً مقبلا وهو يصيح فى حبور :

ــ خمنى ماذا ورائى من أخبار ؟

فجعلت أحاوره وأداوره وأتكهن بجميع الأشياء التى تخطر بالبال إلا الشيء الذى أعرفه جيداً . . . وأخيراً « فاجأنى » بالخبر الذى لم يحرك ساكناً فى أعماقى لأنى فى الحقيقة كنت راضية بوضعه لاأفكر فى المزيد. فحياتنا رخية . ونحن اثنان . وما عندنا يكفينا لنعيش فى بحبوحة ناعمة . ثم إن الخبر جاء فى ظرف أنا أبعد ما أكون فيه عن البهجة . وزاد فى تحريك كوامن أشجانى أننى تذكرت طفلنا . فلو عاش لأمكن أن يسرنى مثل هذا الخبر ، لأنه سيزيد مواردنا فنزيد فى الإغداق على الحبيب الصغير . . . ومع ذلك كله سارعت أعانق زوجى وأنا أهتف فى حبور مصطنع : « ألف مبروك ! » وما إن هدأت فرحة الخبر حتّى التفت إلىّ وقد ضاقت عيناه وقال : « ماذا حدث ؟ لست كعهدى بك.» فلم يخف على عينيه أننى لست على طبيعتى المرحة برغم كل ما تجشمته من عناء لإخفاء ثورة نفسى . بيد أننى عولت على ألا أخبره بالحقيقة .

فليس هذا وقت الأشجان . وقلت وأنا أرفع قدمى وأقذف بالحذاء إلى الحجرة ، ثم أدلك قدمى تدليكاً دائرياً وأنا أتأوه : « لعنة الله على الأحذية وعلى اليوم الذى اخترعوها فيه ! لماذا لا تمشى النساء حافيات ؟ ليس لمثلى أن تلبس حذاء أبداً ! » فاستدار نحوى يعاتبنى : « إنك أنت التى تكبلين نفسك بهذه الأشياء . ولو استمعت إلى كلامى لما أصابك هذا العناء . ولكنك ككل النساء قاصرة العقل والإرادة . تزهقين أنفاسك فى سبيل الموضة . . . ماذا لو لبست ما يريحك وليذهب العالم إلى الجحيم ؟ ماذا يحدث ؟ هل يقولون امرأة متأخرة لا تفهم أصول الموضة ؟ وهل هذا يساوى شيئاً بالقياس إلى ما تتكبدينه من عناء الكالو والكعب الذى يشبه المسمار ؟ »

وتركته يتكلم على سجيته بدون أن أقاطعه . فهو شخصياً من ذلك الصنف من الرجال الذين لا يهمهم آراء الناس فيهم ما داموا مقتنعين أنهم على حق فيما يعملون . . . . لذلك كان يخرج أحياناً إلى سهرة بلباس النهار . ويرتدى فى الأيام الصائفة صندلا أو خفاً وقميصاً . وربما خرج فى المصيف بالجلباب غير مبال بشىء؛ أما أنا فامرأة أقدس المظهر الحسن ولا يمكن أن أخلط بين لبس النهار والليل . وأظهر دائماً بأحسن مظهر ، حتى ولو كان ذلك على حساب صحتى . وهذا التباين بيننا كثيراً مادى إلى التشاحن العابر ، لذا كنت أخفى عنه غالباً ما أعانيه من متاعب الهندام .

وأفلحت فى تغيير دفة الحديث ونحن على مائدة الغداء بدون أن أشير

إلى خورشيد من قريب أو بعيد . ونسى هو أن يسألنى عن درس اليوم وما جرى فيه بيننا من حديث . . . وفى المساء خرجنا كعادتنا إلى نزهتنا الليلية . وما إن أخذنا مكاننا فى المشرب المعهود حتى رأيت أستاذى يمر من أمامنا فى خطوات بطيئة رزينه وعيناه تتطلعان إلى الأمام كأنما يحملق بهما فى الأفق البعيد ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح طمأنينة هادئة شأن من لا يعنيه من الصخب الذى حوله شىء . أو كأنما هو فى عالم آخر غير عالم الأحياء . . . وأشرت بيدى أنبه زوجى لمرور أستاذى . وأعتقد أن حركتى وصوتى نبها الأستاذ فالتفت نحونا لفتة سريعة . وما إن وقع بصره على حتى أخذ ، لكنه استدرك بسرعة وأحنى رأسه إحناءة مهذبة للسلام . فأشرت بيدى أدعوه لمشاركتنا . ونهض زوجى يرحب به ترحيباً جميلا وقدم له كرسيًّا . وقمت بتقديم كل منهما للآخر . وقال زوجى : « إن زوجتى أميرة تثنى عليك كثيراً . وقد كلمتنى فى مناسبات عدة عنك حتى بت مشوقاً إلى التعرف إليك . فهذه فعلا مناسبة سعيدة وفرصة موفقة . . . »

فضحك خورشيد فى خجل كخجل العذارى وازداد خداه احمراراً فوق احمرارهما المعهود وقال : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه ! كان الأفضل ألا ترانى إطلاقاً حتى تحتفظ بالصورة الطيبة التى تفضلت بإسباغها على مدام أميرة » .

وكان فى طريقة كلامه وحركاته صورة جميلة للطفولة البريئة . فشاقنى التطلع إليه وأحسست بالفخر كأنى أرى ابنى أمام عينى . . .

وتباحثنا فى موضوعات شتى . وكان زوجى قابضاً على زمام الموقف كعادته فى كل مجلس . فهو ملم بكل ما يستطيع إنسان مثقف واع أن يختزنه فى جعبته من قراءاته المتعددة الجوانب واللغات الشتى التى يتقنها . واكتفيت أنا بالإصغاء ، اللهم إلا بعض تعليقات قصدت بها أن أثبت وجودى . وأما الأستاذ خورشيد فلم يرفع عينيه عن وجه زوجى إلا فى لحظات نادرة جداً حينما كان يرانى أناقش بعض مواضع الحديث . . . . وشعرت أنه محرج وغير مستريح فى جلسته . فالإنسان حينما يكون على سجيته تحس بملامحه منبسطة .أما هو فكان متوتر الملامح بادى التيقظ كأنه تعاطى منبهاً قوياً قبل حضوره مباشرة . فالابتسامة لم تفارق شفتيه كأنها كليشيه مطبوع على فمه . أما يداه فكانت دائبتى الحركة فى تقطيع علبة سجائر انتهى من تدخين ما كان فيها سيجارة تلو الأخرى فى مدة تقل عن ساعة من الزمن !

١١

ضم خورشيد فمه بمجرد أن صافحنى حين دخلت عليه ثم أسبل عينيه وقال : «إن زوجك يا مدام أميرة رجل جاد جداً . حتى إننى شعرت برغم تبسطه ومراحه أننى بين يدى أستاذ كبير . وأحسست بالحرج وأنا معكما ، لأنك أنت نفسك بدوت لى وأنت بجواره مختلفة تماماً عن مدام أميرة التى أعرفها هنا فى ساعات الدرس » .

فقلت أعاتبه : « أما زوجى فلا يذهبن بك الظن إلى أنك أنت

وحدك الذى تشعر بالرهبة فى وجوده . لأننى وأنا زوجته التى تخالطه طيلة هذه السنوات كثيراً ما تنتابنى مثل هذه الرهبة منه . وأشبهها برهبة سكان السهول أمام شم الجبال الراسية المتوجة على مدى العام بالثلوج . . . وأما أننى بدوت لك مختلفة عن أميرة التى تراها هنا فى أثناء الدروس ، فما هو وجه هذا الاختلاف ياترى ؟ »

فاحمر وجهه حتى حاكى الأرجوان ، وازداد النمش الذى يغطى وجهه الأملس ظهوراً . ومال برأسه ميلا شديداً إلى الأمام حتى اختفى وجهه فى صدره وانكشف قميصه الأبيض من خلف عن جزء من ظهره فلمحت عينى شعرات طويلة نابتة فى ظهره . وأخذت بمنظر هذا الجسم الفتى الذى يدل على عنفوان رجل مكتمل الرجولة . وتحولت عيناى بسرعة إلى ساعديه القويتين المفتولتين المكسوتين بشعر كثيف أصفر اللون . فتحركت فى أعماقى ثورة رغبة حارة دفعت الدم قانياً إلى وجنتى ولمعت عيناى ببريق ثاقب . . . . ثم رفع وجهه فجأة من إطراقه فإذا وجه طفل ضاحك لا يمت بصلة إلى ذلك الجسد الناضج . وكأنما كان هناك تمثال رجل فحل مقطوع الرأس . وكان طفل مختبئاً وراء التمثال ثم برز لى برأسه من فوق كتفيه . فهذا الرأس ذو الوجه الأملس والعينين المستديرتين الصريحتين لا يمت بصلة إطلاقاً إلى ذلك لجسم الفاره . . .

ويظهر أن عينى كانتا تلمعان بصورة لم يألفها عندى ، فقد رأيت عينيه تتسعان فى نظرة دهشة طفلية ممتزجة بالرهبة والخوف والتطلع . ثم صاح يسألنى : « لماذا بالله تنظرين إلىّ هكذا يامدام أميرة ؟ »

فغضضت من بصرى ثم قلت والابتسامة المشرقة الطيبة تحل محل الرغبة العارمة : وهل لاحظت اختلافاً أيضاً بين نظرتى الآن ونظرتى المألوفة ؟ فأجابنى بصراحة تامة : « كان فى نظرتك الأولى نوع من الافتراس! أما الآن فقد عادت إليك ابتسامتك المشرقة التى أعهدها فيك . فعدت مدام أميرة التى أعرفها » . فقلت وأنا أتضاحك خزياً : « وقبل ذلك ماذا كنت ؟ » فأجابنى : « لا أدرى ... كنت مدام أميرة التى لا أعرفها ... لقد أخفتنى حقًّا وإن كان هذا الكلام لا يليق أن يصدر عن رجل مثلى » .

فقلت أستزيده إيضاحاً :

ــ لا عليك ! أعتقد أننا أصبحنا الآن أصدقاء . فقل لى لماذا أخافتك نظرتى يا أستاذ خورشيد ؟

ــ لا أستطيع أن أحدد بالضبط الإحساس الذى خالجنى بمجرد أن لمحت هذه النظرة على وجهك . وأعتقد أنها نظرة تختلف تماماً عن نظرتك الصريحة المشرقة . الأمر الذى سبب لى رعدة خفيفة لم تلبث إلا لحظة واحدة ثم عدت إلى طمأنينتى المعتادة حينما أكون معك .

فتضاحكت بدون أن يبدو على وجهى ما أعانيه من خجل فى أعماق : « إذن لنترك ما فات ولنعد إلى حديثنا الأول . ما هو وجه الخلاف بينى فى جلسة الأمس فى المقصف ، وبينى الآن فى أثناء الدرس ؟ »

ــ أعتقد أن جلستك مع زوجك ، وطريقة المناقشة التى دارت بيننا أضفت عليك فى نظرى هيبة وسنًّا أكبر من سنك . أما هنا فأنا

أشعر أنك تلميذتى . وأحس بسيطرتى عليك لأنى ألقنك شيئاً لا تعرفينه . وأين هذا الشعور من إحساسى بالأمس بأن شخصيتك تطغى على شخصيتى وتكاد تمحوها تماماً ، فقلت وأنا أرفع عينى دهشة : سنّاً أكبر من سنى ؟ ماذا تعنى ؟ هل كنت أبدو أكبر سنّاً من الخمسة والأربعين عاماً ؟ »

فضحكت عيناه ثم استلقى برأسه إلى الخلف راجعاً بكرسيه إلى الوراء فوق قائمتيه الخلفيتين وفتح فمه الصغير على سعته فى ضحكة رنانة أحسست بها صادرة من أعمق أعماقه . ثم عاد إلى جلسته الطبيعية ، وقال والضحكة ما زالت تملأ وجهه : « لن تستطيعى تضليلى بعد اليوم . فمن ثنايا الحديث أمس عرفت من فم زوجك بضعة تواريخ . وبمعاوناتى المحدودة فى علم الحساب عرفت عمرك الحقيقى . أنت فى الثانية والثلاثين ولم تخطئ نظرتى فى التكهن بسنك منذ اللحظة الأولى . وإن كنت قد قدرت لك أكثر قليلا من حقيقتك فلكى أدفعك إلى الاعتراف بالحقيقة. فالمرأة لايثيرها شىء قدر مايثيرها موضوع السن . إلا أننى أخفقت حين استعملت هذه الحيلة معك فأنت فعلا غير النساء جميعاً » .

فقلت وأنا أرسم الدهشة بوضوح على معالم وجهى : « من قال لك ذلك ؟ أنا فعلا فى الخامسة والأربعين . فلايغرنك ما سمعته بالأمس . . . . »

فأجابنى وهو يهز سبابته فى وجهى كطفل يعابث أمه : لا تتشبثى

بهذا القول وإلا صدقتك فعلا ! »

فقلت وأنا أعاتبه بنظراتى : « ومن قال لك إننى أكذب ؟ »

فصاح يقاطعنى : « حاشالله ! لم يقل أحد إنك تكذبين . فأنت امرأة فاضلة لم أر فى حياتى نظيراً لها . ولكنى لا أدرى لماذا أنت على عكس النساء جميعاً مصممة على إضافة عمر آخر إلى عمرك ؟ »

لماذا حقًّا ؟ ولماذا تخيرت الخامسة والأربعين بالذات ، ولماذا أتبع هذه السياسة معه دون سواه مع أننى مع الناس جميعاً أشعر بالزهو الشديد حينما يقدرون لى أقل من سنى ؟ ثم أنا مثل سائر النساء ميالة إلى تنقيص شىء من عمرى الحقيقى ... هل أنا حقًّا أختلف عن بقية النساء ؟ ربما . . . هذا ما يردده المحيطون بى . وزوجى نفسه أول من ينادى بذلك . . . . وها هو ذا الأستاذ خورشيد قد قرره حتى الآن مرات . . . . فليكن رأيهم ما يكون على كل حال . . . المهم الآن ما هى هذه الرغبة العجيبة التى دفعتنى إلى تكبير سنى ؟ ألكى أقف فى وجه الرغبة الخفية الخبيثة فى الإقدام على المناورات والمناوشات مع فتى غر ؟

ربما ! . . . فنحن نتصرف أحياناً عن غير قصد تصرفات تأتى عفو الساعة ولكن يتضح لنا فيما بعد أنها لم تكن خالية من حكمة خفية فى أعماقنا .وتصرفاتى أنا على الخصوص لا ضابط لها . ولم أفلح فى تغيير هذا الطبع ، برغم كل ما بذله زوجى من جهود فى ذلك السبيل . فكان يقول لى أحيانا: « إنك تعيشين بطبيعة المرأة الفطرية

التى لم تتعلم من العقل أو المنطق شيئاً . . . إنك كالحيوان الآبد ! »

وحينما يرانى أغضى وأسكت يداعبنى بقوله : « لا تأبهى يا أميرة . فهذه شخصيتك وطابعك الخاص . إنك على فطرتك أجمل بكثير مما لو كنت متحفظة . ومن أجل هذا الجمال الحى مغفورة لك جميع خطاياك ! »

وكثيراً ما كنت أجد نفسى حيرى عاجزة عن فهم ما يريده منى هذا الزوج ، فهو أحياناً يطرينى لهذه الصفة وأحياناً أخرى يكيل لى الاتهامات ! ولو أننى استطعت أن أفهم نفسى لكان من الجائز أن أتغلب على اندفاعاتى وأقمعها . ولكن من ذا الذى فهم نفسه كل الفهم ؟

إنى أخاف أحياناً من نفسى خوفى من شخص قاصر الإدراك لا يفقه مغبة أفعاله الخطرة ، فألجأ إلى الله فى خلوتى وأتجه إليه ضارعة فى حرارة كى يخلصنى من اندفاعات هذه النفس المتمردة . وما أكثر ما كنت أبكى وأنا أتوسل إليه أن يرد هذه النفس الخرقاء عن ارتكاب الحماقات ، وقد صمت أذنيها عن كل مراجعة . . . .

ناقش ذهنى هذه الأمور فى سرعة متناهية . واستغرقنى ذلك حتى لقد أجفلت إجفالة يسيرة حين سمعت صوت الأستاذ خورشيد يأتينى كأنما هو صادر من واد سحيق ، يلقى على سؤاله العجيب : « لماذا يا مدام أميرة تزيدين فى عمرك بهذه الصورة المفرطة ؟ ! »

وابتسمت ابتسامة تعمدت أن تحمل كل معانى للغموض والمراوغة ،

وأشرت بهزة من رأسى نحو البيانو وقلت : « ألا ترى أن صديقنا هذا قد أضجره طول الانتظار ؟ »

فمد رأسه إلى الأمام بحركة تدل على الإذعان والتسليم ، وبدأت أناملى تجرى على مفاتيح البيانو .

١٢

أنا امرأة شكاكة . شكاكة إلى أبعد حدود الشك . ما إن يداعبنى إنسان بكلمة . و يلقى شخص على مسمعى عبارات من أى نوع حتى يبدأ عقلى فى استنباط مغزى هذه المناورات ، وماذا عساه يكون وراءها من نوايا صاحبها ؟ وإلى أى هدف يسعى ؟ . . . وقد يكون هذا الشخص لا يرمى من وراء ما يقول إلا إلى الدعابة السليمة . ومع ذلك لا أصدق إلا أن له غاية يريد أن يصل إليها . ولكنى أستمر فى التبسط معه باسمة كأننى أشد الناس ثقة به واطمئناناً إليه . ولكنى فى الوقت نفسه أتعذب بما أعانيه من شك وحيرة وارتياب فى الناس. . . .

وكانت لى حتى ذلك العهد — أى منذ خمس سنوات تقريباً — رائحة عطر مميز لا تخطئها الأنف بين عشرات الروائح . وذات يوم كنت أتلقى درسى . فإذا به يسألنى فجأة : « ما نوع هذا العطر الذى تستخدمينه يا مدام أميرة ؟ »

فرفعت عينى إلى وجهه وقلت :

— أهو لطيف ؟

— إنى أحب أنواعاً معينة من العطر . أما هذا النوع فلم أشمه على سيدة من قبل .

فقلت بشيء من الدلال : « إنه لحنى المميز ! »

فابتسم فى مكر وقال : « وما اسمه ؟ »

فسألته فى مكر أشد : « لماذا ؟ »

فاكتسى وجهه بطابع الجد وقال : « لقد اقترب عيد ميلاد أختى . وإنى أعد زجاجة من هذا العطر هدية مناسبة لها . . . »

وكنت أذكر جيداً أن أخته الوحيدة سنها تناهز العشر سنوات . فلا يمكن أن يصلح لها هذا العطر . ولكنى تغابيت تماماً وقلت : « إنى أصنع هذا العطر بنفسى . فإن شئت صنعت لها زجاجة . . . » فقال باعتراض شديد : « كلا كلا . قولى لى فقط كيف تصنعينه وأنا أقوم بصنعه » .

فتضاحكت وأنا أهز رأسى ذات اليمين وذات اليسار وقلت : « كلا يا سيدى الفاضل ! أتريد أن تسلبنى سر الصنعة التى أحتفظ بها لنفسى فقط . يفتح الله ! إما أن أصنعه لك أنا أو فاذهب وفتش بنفسك عنه فى المتاجر . فى الحوارى والأزقة لعلك تعثر عليه ! »

وشاركنى الضحك وهو يقول : « وهو كذلك ! أعطنى اسمه وعلىّ أنا البحث عنه ولو فى تحت الربع » ! » فقلت : « ولا هذا أيضاً ! احمل أنفك إن شئت أمامك وسر فى الطرقات تتشمم الدكاكين !

هذا عطرى الخاص بى يا أستاذ . لن يكون لسواى » :

وإنى لأنانية فى كل شىء بطريقة لاتقبل المناقشة . فإذا أحببت شخصاً مثلا فلابد أن يكون خالصاً لى وحدى. لا يجد للحياة طعماً إلا فى جوارى . ولايهمه أمر أحد فى الوجود سوى أمرى، وعليه أن يدأب على التفكير فىّ ليل نهار بحيث أرى الحب والولع يطلان من نظرات عينيه على الدوام . فأعبده وأفديه بحياتى . أما إذا رأيت منه إشارة عابرة إلى امرأة أو غزلا مكشوفاً ولولم يقصد به سوى الدعابة ، فالويل له ثم الويل له ! إنى لا أتوانى فى إسقاطه من حياتى تماماً . أتجهم له وأبتعد عنه مهما حلف لى بكل محرجة من الأيمان أنه لم يكن يقصد شيئاً . وتزهد فيه نفسى كأن لم يكن يوماً محور حياتى . ولهذا السبب كنت أحب زوجى وأعده الشمعة المضيئة فى حياتى التى بدونها أغدو كالعمياء لا أبصر موطئ قدمى . وأما ما يعترض حياتى من علاقات فهى أمور عابرة لا محالة إلى زوال طال الأمد أو قصر . . . .

ولكن هل لو أقدم زوجى على مداعبة امرأة أو إظهار الإعجاب لها أمامى كنت أسقطه من حياتى وأبتعد عنه ؟

لست أدرى . فإن الأعوام الطويلة التى انقضت على زواجنا حتى تلك اللحظة لم أضبطه فى خلالها مرة واحده متلبساً بمحاولة الإقدام على مغازلة امرأة . . .

ولكن لماذا أبيح لنفسى ما أحرمه على زوجى؟ إن المرأة فى العادة لا تكون البادئة بالغزل . وإذا كان الرجال يحاولون مغازلتى بعيداً

عن عين زوجى فإننى أقص عليه كل شىء . وفى ذلك أوضح دليل على خلوص نيتى ! . ولكنى فى أحوال أخرى لم أكن كباقى النساء أنتظر الرجل حتى يتحرك للمغازلة . بل كنت أعمد للمبادأة . مندفعة بحرص شديد إلى حض من يعجبنى من الرجال على التمادى فى الحديث معى . أما من لا يروقنى فلا أسمح له بالتمادى مهما كان صفيقاً !

ولم أكن أرمى إلى جرح شعور الأستاذ خورشيد حين حرصت على كتمان اسم عطرى عنه . بل أحسست إحساس المرأة المجربة أنه ربما فكر فى إهدائه لامرأة أخرى يعجب بها أو له بها علاقة . فآلمنى هذا الخاطر . كأنما خورشيد قد أصبح ملكاً لى على نحو ما ، بحيث يحرم عليه أن يفكر فى امرأة أخرى .

وعولت على أن أستدرجه حتى أعرف لمن يريد هذا العطر . فقلت له وأنا أتصنع عدم المبالاة : « إن قلت لى لمن تريده حقاً ذكرت لك اسمه . . . » .

ولكن الماكر كان خبيراً حقاً بمناورات النساء فأدرك غرضى . وأراد أن يدخل فى روعى أنه « دون جوان » عريق له مغامرات مع نساء يطاردنه ويتهافتن عليه . ولماذا لا يكون ذلك صحيحاً ؟ فهو شاب حديث السن جميل الشكل له شهرة فى فنه . فماذا يمنع أن تجرى وراءه النساء قاصرات العقل ؟ واندفع من أعماقى صوت حانق يقول لى فى تهكم : « ولماذا هن قاصرات العقل ؟ ألست أنت أيضاً تنصبين حوله شباكك يا امرأة ؟ »

فأجبته فى غضب واستنكار : « يالك من ضمير ظالم مفترٍ ! أأنصب شباكى حول طفل ؟ »

وكان قد أتانى صوت الأستاذ خورشيد عريضاً خشناً يسألنى فى خبث : «وهل يزعجك أن تستعمل عطرك امرأة تروقنى » ؟

ولأدرى لماذا أحسست رائحة الرجولة تفوح من صوته الخشن فرحت أعجم عود قامته عضواً عضواً من غير أن أرفع عينى إلى وجهه . وغاظنى أن يظن نفسه مستطيعاً أن يستثير نى بهذه الكلمات . والحقيقة أننى كنت مستثارة النفس فعلا ولكن ليس للدرجة التى تدفعنى للاستيلاء عليه استيلاء صريحاً . ولم يخطر ببالى أن أنشىء معه علاقة من أى نوع سوى الصداقة البريئة التى تتأرجح بين الأخوة والأمومة . ولكنى أحسست إهداراً لقدرى فى إعطاء عطرى المفضل لامرأة لا أدرى ما هو معدنها وما هو مستواها . . .

ولما رأى إطراقى هتف قائلا : « أنا متأسف جداً يا مدام أميرة فأنا لم أقصد إزعاجك أو إحراجك . فأنت حرة طبعاً فى الاحتفاظ بعطرك لنفسك خاصة . فمن حكم فى ماله ما ظلم . . . »

ياله من ألعبان ! لقد قصد أن يؤكد لى أن هناك امرأة فى حياته . بيد أنه لا داعى لأن تكون موضع بحث بيننا . . . .

ماذا جرى لعقلك يا أميرة ؟ شاب فى مثل حيويته وفحولة جسمه الفاره ، أتخالينه يحبس نفسه فى قمقم ليرضى غرورك السقيم ؟

وهل قلت أنا شيئاً من هذا ؟ ما شأنى أنا بأحواله الخاصة ؟ إنى

والله لا أرجو له إلا كل سعادة . ولكني حرة طبعاً فى عطرى . ومادمت لا أحب أن تستعمله امرأة أخرى فهذا شأنى وحدى . وهذا كل ما فى المسألة !

١٣

كان الأستاذ خورشيد يدخن سيجارة فى الردهة الخارجية وهو يتجاذب أطراف الحديث مع المدير الشيخ حينما دخلت من باب المعهد . ومال المدير وهما يقتربان منى ، وقد صار يرمقنى بعينيه الواسعتين من فوق إطار النظارة ونظرة التواطؤ لا تفارقه : « كيف حال الدروس يا مدام أميرة ؟ »

فأجبته وأنا أبتسم ابتسامة رزينة « على خير حال » .

فوضع يده على ظهر الأستاذ خورشيد . مربتاً . فكان منظره بقامته القصيرة وكرشه المتكور واستدارة رأسه الأصلع ، وهو ملتصق بقامة خورشيد المفرطة فى الطول الجميلة التكوين صورة هزلية جعلت تدغدغ أمعائى من الداخل وتستثيرنى للضحك . وخفت أن أنفجر فى وجهه فينتثر الرذاذ على سحنته وصلعته اللامعة ، فأسبلت جفونى على غير عادتى مطرقة إلى الأرض . فإذا به يقول : « الأستاذ خورشيد ابنى . صنعته على عينى . فإذا ضايقك منه شىء أو لاحظت منه تقصيراً فلا تترددى فى إبلاغى . فأنا أعرف كيف أسوسه » .

ولم تعجبني هذه اللغة برغم اللهجة الضاحكة والمزاح . فأنا أكره أن يوجه صاحب عمل ملاحظاته إلى إنسان يعمل عنده فى مواجهة العملاء . وشعرت بما فى موقفى من إحراج لأستاذى ، وإن كان فى سن والدى . فأردت فى التو واللحظة أن أرد إليه اعتباره فقلت جادة : « أنا التى أرجو أن يكون الأستاذ خورشيد راضياً عنى . أما من جهتى فأنا ممتنة له جدًّا لما يضيعه من وقته الثمين فى تعليمى . . . . »

فربت الشيخ بيده الصغيرة الممتلئة تربيتاً متوالياً على ظهر خورشيد ثم قال له : « ما كل هذا الإقبال السامى! عسى أن تحتفظ به دواماً ... »

ولم أنتظر تمام الحديث بل هززت رأسى محيية ثم اتجهت نحو حجرة الموسيقى وتبعنى خورشيد . وما إن أغلق باب الحجرة من خلفه حتى سألنى فى دهشة بالغة : « هل آلمتك كلمات المدير يا مدام أميرة ؟ »

فسكت قليلا وأنا أعبث بالخاتم فى خنصرى . وكنت قد أحضرته منذ دقائق من عند الصائغ وأنا أتساءل فى سرى هل يستحق فعلا ما بذلته فى سبيله من اهتمام ومال ؟ إنه زجاج ملون ولكنه لم يزل يعجبنى !

ووجدت صمتى طال ففكرت فى مفاجأة أغير بها اتجاه الحديث مفاجأة خبيثة تستغرق اهتمامى وتسليتى . فإذا بى أقول بغير تفكير : « لى صديقة عزيزة علىَّ جدًّا عندما عرفت أننى أتلقى دروساً فى الموسيقى فى هذا المعهد طلبت منى أن تتلقى هى أيضاً دروساً مماثلة . فهل يلائمك أن أحضرها معى ؟ »

فقال وهو يرفع حاجبيه مرحباً : « أهلا وسهلا ! فأنا هنا لاستقبال

كل من يرغب فى تلقى الدروس » .

فقلت بخبث وقد بدأ شيطانى يبرجس فى أعماق : « إنها تريد أن تلازمنى فى أثناء درسى . وأن ألازمها فى أثناء درسها ! »

وكنت طبعاً أريد بهذه الكلمات أن أعرف إلى أى مدى يرغب فى الانفراد بى. ورأيته سكت قليلا وغض من بصره ثم رفع عينيه إلى وجهى وقد كست الحمرة وجهه وقال: « إننى أفضل يامدام أميرة أن يكون درسك بمفردك . فإن المناقشات الطريفة التى تدور بيننا ربما لاتستسيغها سيدة أخرى . أو قد تفهمها على غير حقيقتها . ألست معى فى ذلك ؟ »

ورقص قلبى فرحاً لهذا الاعتراف الصريح الذى جاء عفو الخاطر . إن خورشيد يريد أن يختلى بى ولايرحب بوجود تلميذة أخرى معنا . ولو كان أمرى لا يعنيه لما رفض وجود ثالثة . وأنا أراه يعلم التلميذتين والثلاث معاً . ولم تكن هناك تلميذة طبعاً أو شبه تلميذة وإنما هى حكاية اخترعتها ارتجالا كى أختبره، واستمرأت كذبتى فمضيت أستمتع بحيرته: « كلا لست معك . فصاحبتى مثلى تماماً فى كل شىء . إنها سيدة مثقفة واعية محبة للمرح وسيعجبك حديثها كثيراً » .

فتململ خورشيد فى مكانه كفأر أطبقت عليه المصيدة . بيد أنه كان لبقاً حاضر البديهة إذ أسرع يقول مستنكراً بحماسة : « مثلك أنت ؟ مستحيل ! فأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أنه لاتوجد فى الدنيا امرأة مثلك ! »

وأحسست بفطرتى المتشككة أنه يطريني ليرضى غرورى كى يكسب المعركة . فصممت على مراوغته كى أهزمه . وكم من مرة كسب هو منى الجولة بلباقته .

— لولا أنى صديقتها الحميمة منذ عشر سنوات لما قلت لك هذا . فأنا لا أومن بصداقات النساء . ولم يكن لى يوماً صديقة إلا هذه . . .

وسكت عند هذا الحد لأننى خفت أن ينزل عند رغبتى فى آخر الأمر ، فماذا يكون موقفى حين يتضح كذبى وتزويرى ؟ والحقيقة أنى لم أفكر قبل هذه اللحظة فيما عساى أصنعه لو أنه وافق على اقتراحى . فتفكيرى دائماً مرتجل ولا يتجاوز اللحظة التى أنا فيها .

وهز خورشيد رأسه بجد ثم قال معقباً على كلامى : « وأنا أيضاً أقول لك يا مدام أميرة لا تثقى بأى امرأة وتأتمنيها على سرك قط . فليس أقسى من المرأة على امرأة مثلها . لأن الغيرة بينهما تكون على أشدها . وأعتقد أن أى امرأة مهما كانت ستغار منك لأنك نوع نادر غير مألوف من النساء ! »

وعرفت مكانتى عنده ومبلغ تأثيرى فيه . فهو صريح إلى أبعد حدود الصراحة . وهذه الكلمات صادرة من قلبه وليست شقشقة لسان . . .

وأحسست أنى أتعبت أعصابه أكثر مما ينبغى . فأخذتنى الشفقة به وقررت أن أتراجع بلباقة فقلت : « ما دام هذا رأيك فسأصرف

نظارها عن هذه الفكرة . لأنها فى الواقع مصممة على أن تلازمنى وألازمها فى الدروس ».

فأسرع خورشيد يقول : « طبعاً طبعاً . وإذا سألتك عن هذا الموضوع مرة أخرى أظهرى لها تأففك من الدرس ومن المدرس . وأنك غالباً لن تستمرى . . . »

وابتسمت فى أعماقى !

حقاً لابد من هنات يقع فيها كل إنسان مهما بلغ من الحصافة وبعد النظر . وهأنذا قد استطعت أن أسبر غور خورشيد وأعرف كل ما أريد أن أعرفه بدون أن يساوره أدنى شك فى صدق كلماتى . . .

وعندما أوليته ظهرى لأبدأ العزف كنت أحس أن كلا منا أقرب إلى صاحبه من أى وقت مضى . . .

١٤

وبعد بضعة أيام قال خورشيد مطرياً أناقتى : « إذا كانت أناقة الرجل تبدو فى ربطة عنقه ومنديله ، فأناقة المرأة تبدو فى عطرها . وعطرك ليس له نظير . ولك حق فى أن تبخلى بسره على جميع الناس . ثم إن لك ذوقاً جميلا فى اختيار ثيابك . وقلما توجد بين سيداتنا من تحسن ارتداء ثيابها على الوجه الصحيح ! »

وتقبلت كلماته فى هدوء تام وعدم اكتراث . كأنما هو يقرر

حقيقة لم تكن لتغيب عن نظرى. ولكن باطنى كان يمور بشتى التكهنات: إنه يطرى ملابس اليوم وطريقة زينتى . وغداً سيطرى وجهى . وبعد غد جسمى . . . ثم يقع المحظور ! ومن يدرى ؟ ربما كانت هذه طريقته فى خلب عقول النساء ! ألم يقل مراراً إنهن ناقصات عقل . وأن أى كلمة إطراء كافية أن تجعل منهن مطايا طيعة إذ يعتقدن أن الإطراء معناه التدله فيهن . فيستسلمن بدون قيد أو شرط . . .

وأحنقنى أن يستعمل معى الطريقة نفسها التى يستعملها مع « ناقصات العقل» وقررت أن أوقفه عند حده وأظهر له أن كلماته أتت بعكس ما كان يظن . فانهمكت فى العزف بدون أن أعيره التفاتاً . وكان من الحصافة بحيث أدرك على الفور أن أسلوبه فى الحديث اليوم لم يرقنى فقام يتمشى فى الحجرة . حتى إذا انتهيت من عزف المقطوعة صفق طرباً وهو يصيح :

— مرحى يا مدام أميرة ! عفارم ! لم أسمعك تعزفين بهذه المهارة من قبل . وأعتقد أنك تأخذين الآن نفسك بالشدة والحزم فى أثناء تمريناتك اليومية ! وقد أثمرت جهودك ثمراً يانعاً .

فالتفت نحوه لأرى هل يقول حقاً أم هو يريد التمويه على ليصانعنى بعد ما رأى انصرافى عنه . فقلت : « أتقول حقاً ؟ »

فقال بجد : « ولماذا أكذب ؟ » فأجبته : « لكى تشجعنى ! »

فوضع يديه خلف ظهره وقال : « كلا يا مدام أميرة . ليس هذا من طبعى خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالموسيقى . فهى عندى شىء

مقدس لا يمكن أن أغالط نفسى فيه حتى ولو كانت المسألة تتعلق بحياتى ! »

فقلت بدهشة مصطنعة : « آه ؟ إلى هذا الحد ؟ »

فإذا به ينقلب إلى رجل جاد جداً وهو يقول : « أيدهشك أن تسمعى ذلك منى حقاً ؟ عجباً ! وهل يمكن أن تعتقدى فى غير هذا ؟ »

— إذن أنا قد أجدت العزف ؟

— جداً ! بصورة لم أكن أتوقعها . ولذا فأنا أستميحك الآن عذراً فى أن أصارحك بشيء أرجو ألا يغضبك !

— يغضبنى ؟ ولماذا ؟

— لأن الإنسان أحياناً ما يبنى أحكامه لأول وهلة قبل أن يكتشف شخصية من يصدر عليه هذه الأحكام . حتى إذا عرف الشخصية جيداً بعد ذلك تكشفت له عن عكس ما كان يظن .

ففهمت غرضه فوراً ولكنى أردت أن أسمع الاعتراف كاملا من فمه :

— وماذا يا ترى كان حكمك علىّ ؟

فقال برقة وعيناه تضحكان فى اعتذار واضح :

— إنها يا مدام أميرة تكهنات لم تلبث أن تلاشت تماماً ، فأرجو ألا يغضبك قولى !

فهززت رأسى معاتبة وقلت :

— إطلاقاً . ولماذا أغضب ؟ إنك لم تكن تعرفنى ، فهل كان فى وسعك أن تنصفنى قبل أن تلم بحقيقتى ؟ لن يتسنى لك ذلك إلا إذا عرفتنى تمام المعرفة .

فقال وهو يستقر على كرسيه قبالتى :

لقد اعتقدت فى أول الأمر أنك أتيت لا لتتعلمى الموسيقى حقاً بنية جادة ، بل لتزجية وقت فراغ كنت حائرة لا تدرين كيف تقضينه بغير ملل . والحق أننى شقيت بذلك الخاطر وتألمت . ولعلك قد لاحظت أننى كنت فى بعض الأوقات آخذك بشىء من العنف . وكان ذلك يحدث دائماً كلما طاف بذهنى أننى أداة للتسلية فقط . وهذا إحساس موجع ينتاب كل إنسان يقدر فنه بل يقدسه ويضعه فى المكان الأول من حياته . ولكن بمرور الوقت تلاشت من عندى هذه الفكرة وحل محلها إكبار لشخصيتك وإعزاز لما تتصفين به من سجايا . . .

وكنت أستمع إليه وعيناى ترمقانه أحياناً ، وأحياناً أخرى تشرد نظراتى وراء مغزى كلماته لأعرف نصيبها من الحقيقة .

وأحسست أن لهذا الشاب نفساً بريئة طاهرة ، فعولت على ألا أجرحه بأى شكل ، حتى ولو اضطررت فى هذا السبيل إلى الكذب والتمويه . وأنا أعرف بالخبرة أن الكذب فى بعض الأحيان يكون شفاء للنفس على حين تقضى الحقائق عليها .

وطال سكوتى وأنا أقلب كلماته فى رأسى . فاعتقد أنى غاضبة وأحنى رأسه قليلا حتى استطاع أن يواجه عينى وقال : «أغاضبة أنت منى ؟ »

فأجبته وأنا ألتفت إليه بجسمي كله : « كلا بالعكس . لست غاضبة إطلاقاً . بل إن كلماتك هذه أعادت إلى ذاكرتي حادثة مرت بحياتي ، وكان لها أثر كبير في نفسي . حتى إنني حاولت بعدها أن أغير الكثير من طباعي . . . »

وكالطفل حينما تقول له جدته : « تعال احكي لك حكاية » رأيته يتحول في لحظة واحدة من رجل جاد يتكلم برزانة وفهم إلى طفل صغير . وشعرت أنه يود لو قفز إلى حجري واستوى جالساً على ركبتي ، ليستمع إلى القصة وهو يلتقط الكلمات من فمي . فقلت له وقلبي يبتسم ونظرة الجد تلمع في عيني :

– حدث ذلك منذ عشر سنوات تقريباً . بعد موت طفلي بشهور قلائل . وكان الحزن قد خيم على البيت وأحاله إلى سجن رهيب يفتت أعصابي كلما خلوت بنفسي . ولم يكن هناك مفر من ذلك لأن أعمال زوجي كثيرة وغالباً ما تبعده عن البيت . فأشار علىّ بعض الأصدقاء أن أعمل في الصحافة . ولم يبد زوجي اعتراضاً . ولما كنت أتقن لغة أجنبية ولي من المظهر ما يؤهلني لأن أكون مخبرة صحفية ناجحة فقد التحقت بغير صعوبة بالعمل في إحدى الصحف . وأنا لا أدرى عن جو المهنة شيئاً . ولما كانت طبيعتي منبسطة ، لم يمض على شهر حتى اندمجت في الجو الجديد وأحببت عملي لما فيه من طرائف وحركة وتجديد . وعاد إلىّ بعض مرحي القديم . وطبعاً انتشر كالبرق في الوسط الذى أعمل فيه أنني امرأة ثرية لست بحاجة إلى هذا العمل وإنما هو للتسلية وإزجاء

الفراغ — وكانت هذه هى الحقيقة فعلا فى أول الأمر إلا أنى لم ألبث أن أحببت العمل وأفنيت فيه نفسى . والظاهر أن طبيعتى المرحة أغرت بعض الزملاء بالتودد إلىّ ، لا كزميلة محترمة . بل كصيد سهل يقتنص . وبدأت المناوشات تدور من حولى وأنا أحاول أن أكذب عينى وأتغاضى أحياناً . وأحياناً أخرى أتغابى . حتى وصل الأمر بزميل معروف بالوقاحة وسوء الأدب ، وكنت أصانعه مداراة لسفاهته، أن تصدى لى يوماً وأنا أسير فى الدهليز إلى حجرة مكتبى ووقف يجاذبنى أطراف الحديث . وكان من المألوف أن يطرى الزملاء أناقتى وأنا أتقبل هذه الكلمات منهم على سبيل المجاملة . وإذا بهذا العتل يقول لى فى صفاقة :

« امرأة فى مثل جمالك لا يمكن ألا تكون لها مغامرات ! »

فتصنعت عدم المبالاة مع أن كلماته صدمتنى فى أعماقى وقلت :

« وما الذى يدعوك إلى هذا القول ؟ »

فقال متشجعاً متمادياً :

« أناقتك . عنايتك الشديدة بزينتك ومظهرك . فالمرأة متى تزوجت تترك هذا كله . أما أنت فلا يمكن لإنسان أن يصدق من مظهرك أنك متزوجة . ثم إن عملك هذا ما هو إلا تسلية . والمغامرات أعظم تسلية ! »

وركبنى شيطانى وأنا أستمع إلى الكلمات الوقحة وهى تخرج من فمه بصفاقة لم أرها على رجل من قبله . فأردت أن أستدرجه حتى أعرف

مرمى حديثه وما هى الغاية التى يرمى إليها . فقلت بهدوء :

« وبعد ؟ »

فتضاحك بخبث وقال :

« وأنا أعرف طبيعتك المحبة للضحك والسرور . وأنا بحكم اتصالى بجميع الأوساط أعرف النوع الذى يناسبك من الندوات والسهرات ، بحيث تكونين واسطة العقد ومحط أنظار المعجبين»

ونظر بعينه نظرة تواطؤ ، شبيهة بنظرة صاحبنا مدير المعهد . فمنعت يدى بجهد جهيد عن صفعه صفعة تفقأعينه . وقلت متبالهة :

« وأين يا ترى تعقد هذه الندوات؟ »

فقال ووجهه يطفح بشراً لأن الصيد وقع فى الشرك :

« فى دار كبير من الأثرياء . والجميع هناك من أصحاب الملايين ينفقون الذهب بلا حساب ويطرحونه تحت أقدام الحسن والخفة والظرف! »

وعندئذ لم يعد فى قوس صبرى منزع . فانقلبت سحنتى انقلاباً مروعاً . وقلت وكأنى أبصق كلماتى فى وجهه :

« أنت حيوان سافل طمست الرذيلة بصيرتك حتى فقدت التمييز بين معادن الناس أيها القواد المنحل ! »

وشأن كل جبان رعديد خبيث الطوية انفلت مولياً من أمامى كأنما فى أعقابه الشيطان . ولم أسكت وأدع المسألة تمر . بل انتهزت أول فرصة جمعت بينى وبين الزملاء وكان هذا الحيوان جالساً معنا ، وانطلقت

أروى لهم ما كان من حديثه معى حرفاً حرفاً ! وإذا بالكل وقد انقلبوا إلى شرفاء يغارون على الفضيلة وتباروا أيهم يقذفه بالكلمة الجارحة . حتى صار وجهه فى لون الطين . وبعدها تركت الصحافة غير آسفة .

وسكت خورشيد برهة ثم قال فى ارتياع :

— كم أنت قاسية يا مدام أميرة ! ألم يكفك ما ناله على يدك على انفراد ؟ إن قسوتك تفوق كل حد ولو كنت مكانه لأصابنى الفالج من هول اللطمة . الحقيقة أنى لم أكن أعرفك مخيفة إلى هذا الحد . . .

فأجبته وأنا أتفرس فى وجهه :

— وهل كنت تفعل فعله وتقول قوله؟

فصاح على الفور :

— أعوذ بالله ! كلا بالطبع !

— ألا يستحق إذن ما أنزلته به ؟

— بل يستحق ما هو أكثر . وإنما ارتعت لتصرفك لأنه ذكرنى بقصة وقعت لى وأنا لم أتم بعد السابعة عشرة من عمرى . . . .

وعندئذ رن جرس انتهاء الدرس .

١٥

قال خورشيد حينما رآنى ألقى عليه تحية الصباح واتجه فوراً نحو البيانو : — « كيف حالك اليوم يا مدام أميرة ؟ »

فأجبته وأنا أمر بأصابعى على المعزف : « بخير والحمد لله »

فتجاهل العزف وقال : « أين قضيت سهرة الأمس ؟ »

فنظرت إليه متسائلة..فاحمر وجهه واستطرد يقول: « لقد مررت بالصدفة على مشربكما المفضل فلم أجدكما هناك . . . »

بالصدفة ؟ ولماذا الكذب ؟. . . . كان به حنين إلى رؤيتى . . .

لا بأس . . . إنه إنسان لطيف جداً . . . وأنا أرتاح لرؤيته . . .

وقلت وقد رفعت يدى من فوق مفاتيح البيانو ووضعتهما خلف ظهرى ثم درت فواجهته . وجعلت أنقر بإصبع واحدة على مفتاح بعينه :

ــ كان أمس يا أستاذ خورشيد عيد زواجنا . فأقمنا فى البيت حفلة صغيرة للأصدقاء .

فرفع حاجبيه دهشة وقال :

ــ ولكنك لم تذكرى لى شيئاً عن هذه المناسبة بالأمس . . .

وأجبته بصوت يدل على عدم الاكتراث :

ــ لم تأت مناسبة . وأعتقد أن ذهنى بالأمس كان منصرفاً إلى الحديث عن أمور أخرى . . . .

وكان من اللباقة بحيث أحس فى صوتى أننى لا أريد الخوض فى هذا الموضوع . فقال والابتسامة الطفلية تشع من وجهه :

ــ وهل أستطيع الآن أن أقول لك مبروك ؟

فالتفت إليه متصنعة الدهشة وقلت :

ــ طبعاً . كأنك قلتها . شكراً لك !

وأحسست أن به بعض الضيق . ولا أدرى لماذا استشعرت حناناً دافقاً نحوه . ولمت نفسى على أنى أخبرته بأمر الحفلة . فلم يكن هناك مبرر لإخباره بأمرها ما دمت لم أشر إليها أمس . . . واجتهدت أن أحول دفة الحديث لأعيد الابتسامة المرحة إلى وجهه اللطيف البرىء الذى يعكس انفعالاته بشكل صريح . فقلت وقد أشرقت ابتسامة الحنان على وجهى وثبتُّ عينى فى عينيه :

— لقد وعدتنى بالأمس أن تقص علىّ ذلك المأزق الذى حدث لك وأنت فى السابعة عشرة من عمرك ، ولكن انتهاء الدرس حال دون ذلك ، فهل لك يا سيدى الأستاذ أن تسمعنى قصتك ؟

فهز الأستاذ رأسه وقد عاد الإشراق يملأ وجهه كأنما كان الضيق قناعاً نخلعه فى لحظة وقال وهو يحنى رأسه باحترام وإجلال :

— سمعاً وطاعة يا سيدتى الأميرة !

وضحكنا معاً فى حبور طفلى. وكأننى عدت إلى الوراء عشر سنوات وأصبحت من أترابه نلهو معاً. وتأهبت لسماع قصته وكأنما خلت الحياة من كل إنسان عدانا . وكان من صفاتى حسن الإصغاء فرأيته يغض من بصره فى تفكير كأنما يستعيد الماضى ثم رفع رأسه وقال :

— كنت فى ذلك الحين على أبواب السابعة عشرة من عمرى . وكنت فى خجولا جداً حتى إن رجلىّ كانتا تتخاذلان وتلتف إحداهما بالأخرى ويحمر وجهى كقطعة الجمر ويلجم لسانى عن الكلام لمجرد إحساسى أن فتاة تنظر إلىّ . ولهذا السبب كنت أكره المجتمعات

وأتحاشى الوجود فى حفلة من الجنسين حتى لا أشعر بالاختناق من شدة الخجل . وذات يوم أقام صديق لى حفلة فى بيته بمناسبة نجاحه وألح علىّ إلحاحاً شديداً فقبلت الدعوة . وكم كان خجلى حين قدمنى للمدعوين وأطنب فى مدحى ودعانى لافتتاح الحفل بعزف مقطوعة على البيانو . وجلست إلى العزف ألوذ به من ارتباكى . ولكن ارتباكى زاد عندما وجدت الفتيات يلتففن حولى بعد العزف ويتطلعن إلىّ بعيونهن النجل ونظراتهن الجريئة ، وأحسست أننى سيغمى علىّ فعلا إن لم أخرج من هذا الحصار الناعم . وشعر الصديق بسوء حالى ففرقهن عنى وأخذنى إلى مائدة ووضع أمامى شراباً وطعاماً . ورأيت الجميع يرقصون على نغمات الحاكى . ولكنى اندفعت فى الشرب لأتغلب على خجلى الذى ضايقنى جدًّا لأنه يبعدنى عن مظهر الرجولة . وكانت هذه أول مرة تقريباً أشرب فيها الخمر بصورة جدية . فدار رأسى وأحسست أننى أستطيع أن أعمل كل ما أريد . وفى هذه اللحظة كان الهرج والمرج على أشده ، ورأيت فتاة تجلس فى ركن قريب وحدها وهى ترمقنى بنظرات مختلسة فأقبلت عليها وأنا أترنح وطلبت منها أن تراقصنى . فقامت فوراً وقد بدا السرور على وجهها مما ملأنى زهواً وغروراً . وفى أثناء الرقص ملت على وجهها — أنا الخجول الحيى — وطبعت قبلة شرهة ضمنتها كل ما يعتمل فى نفسى من اشتهاء مجنون . ولم ألبث حتى أحسست صفعة قوية ترن على خدى الأسيل ! وكانت الصفعة من الشدة بحيث أدارت رأسى إلى الجهة الأخرى . ودفعتنى الفتاة فى



صدرى بعنف ثم،جرت تاركة إياى وقد طارت الخمر من رأسى وتمنيت فى تلك اللحظة لو أن الأرض انشقت وابتلعتنى . . . واندفعت إلى الخارج كالمجنون لا ألوى على شىء إلى أن صرت فى عرض الطريق . . . ومنذ ذلك اليوم أقسمت ألا أقرب فتاة أو امرأة إلا إذا خطت هى نحوى أولا وأعربت عن رغبتها فى ذلك . . .

وسكت قليلا وهو يحملق فى عينى فلم أطرف . واستطرد يقول :

— أتدرين ؟ إن هذه الفتاة بعينها كانت تلاحقنى بعد بضعة أسابيع ملاحقة فظيعة . ولكنى لم أستطع أن أغتفر لها الصدمة التى أنزلتها بى . أما هى فكانت ترضانى قائلة : « لو أنك فعلت ذلك معى بعيداً عن الأنظار لما اضطررت إلى هذا التصرف معك . ولكنك تعمدت أن تقبلنى أمام الناس وأنا معروفة بينهم بالاستقامة التامة وحسن السلوك » .

وسكت مرة أخرى وهو يحدق فى عينى ثم قال : أرأيت منطق النساء يا مدام أميرة ؟

فقلت وقد أحنقتنى كلماته : « أكنت تريدها إذن أن تدعك تقبلها أمام الملأ بدون أن تفعل شيئاً ؟ ألعلك كنت تنتظر منها أن تخر ساجدة أمامك تطلب منك المزيد ! ؟ »

فقال فى عجب : « كلا . وهل قلت أنا ذلك ؟ » فسألته : « ماذا قلت إذن ؟ ماذا تعيب عليها ؟ » فأجابنى : « كان ينبغى ألا تتصنع الفضيلة إلى الحد الذى ترتكب فيه هذا الموقف المسرحى على

حسابى وهى تعلم كما يعلم الجميع أنى كنت مخموراً لا أدرى ماذا أفعل » .
فقلت أعابثه :

— لعلها سلكت معك هذا المسلك لشعورها أنك لم تقبلها عن رغبة بل كنت غير شاعر بها إطلاقاً . فثارت لكرامتها !

فانفرجت أساريره وضحك قائلا :

— وهل تدرك هى مثل هذه الأمور ؟ على رسلك يا مدام أميرة ! إنما فعلت ما فعلت لكى تظهر لمن حولها مبلغ ما تتحلى به من فضيلة مزيفة . بيد أنها قدمت لى بفعلتها تلك خدمة جليلة عن غير قصد إذ جعلتنى أفهم النساء على حقيقتهن . ولا أغتر بمظهرهن مهما أسرفن فى تصنع الفضيلة !

— أما زلت على رأيك هذا فى النساء ؟ ألم تصادفك حتى الآن من استطاعت أن تغير من هذا الرأى؟

فجعل يعبث بكراسة النوتة الموسيقية ، يطويها ويبسطها ثم قال :

— لقد ظللت على اعتقادى هذا إلى أن وضع القدر فى طريقى منذ عهد قريب جداً من غيرت عقيدتى هذه تماماً وقدمت إلى صورة فريدة للمرأة الفاضلة . للمرأة الكاملة . . . .

وتمهل قليلا ثم تنهد وقال من غير أن يرفع بصره نحوى .

— ولكننى أعتقد أنه لا توجد على وجه الأرض امرأة أخرى على منوالها .

فقلت وأنا أتصنع الدهشة وأراوغ فى الحديث :

ـ عجبا ! إنك إلى وقت قريب جداً كنت حانقاً عليهن . فلابد أن هذه الفتاة فى مستوى عال جداً من حسن الفهم واللباقة واحترام النفس . بحيث أثرت فيك هذا التأثير الحاسم وغيرت معتقداتك فجأة من النقيض إلى النقيض !

فقال وهو يتنهد ويرفع عينيه إلى وجهى :

ـ من أسف يا مدام أميرة أنها ليست فتاة كما تظنين . . . بل هى سيدة متزوجة . . . ولولا هذا ما توانيت فى الزواج بها !

فقلت أستزيده :

ـ وهل تعلم هى هذا ؟

فأجابنى وقد عاد إلى الإطراق :

ـ لست أدرى . لعلها تعلم ، فهى ذكية جداً . أو لعلها لا تعلم لأنها مشغولة عنى فى أعماقها بحياتها الحافلة السعيدة . . .

فقلت بدون أن أرفع عينى عن وجهه حتى لا أدخل فى روعه أنى أدركت حقيقة مقصده :

ـ ومهما علمت ، ماذا سيكون فى وسعها أن تفعل ؟

فقال بحزن ظاهر :

ـ لا أدرى . . . ولكنى أعتقد أنها تحب زوجها جداً !

فقلت له بصوت حاسم :

ـ إذن يا أخى من الخير أن تدعها لا تعلم !

وخفت أن يتطرق الحديث بنا إلى أمور رأيت من واجبي ألا أمهد لها ، فالتفت إلى البيانو وعبثت أصابعي بسرعة بجميع مفاتيحه فأحدثت رنيناً شق جو الحجرة الساكن . فحرك خورشيد رأسه بسرعة كمن ينفض منه شيئاً ثقيلا ، وقال في أسى واستسلام انقبض لهما فؤادى :

— أنت على حق . . . فلنبدأ في العزف .

ثم ابتسم إحدى ابتساماته الثابتة ، التي كأنها قناع تقتضيه أحكام المهنة ، ويتوارى خلفه الإنسان وعالمه الخصوصي كله من سرور أو أمل أو شجو . . .

١٦

وحينما حضر عونى في هذا اليوم من عمله كان متطلق الوجه بادى البشر . فاستبشرت خيراً ، لأنى قلما كنت أراه على هذه الحالة من السرور . فسروره هادئ وحزنه أهدأ وأساريره لا تفشي ما يعتمل في داخله . إلا إذا كان الانفعال فوق طاقته .

واقترب مني وعيناه تلمعان ببريق أخاذ . فصحت وأنا أتعلق بعنقه : « ماذا وراءك ؟ »

فأجابني وهو يطبع على فمي قبلة : « سنسافر فوراً . . إلى طنطا ! »

— طنطا ؟ ولماذا ؟

فأخرج من جيبه بطاقة دعوة دفعها إلى يدى وهو يقول :

— تصورى بنت أنور تتزوج غدا !

فصحت بدهشة : « غير معقول ! منى ؟! »

وظل فمى مفتوحاً برهة . فمنى فى السابعة عشرة . أكبر من رفقى ببضعة شهور . وكنا نمزح أنا وأمها ونقول إنهما خطيبان .

وأطبقت فمى وغضضت بصرى وقلت من حلق جاف : « ما أسرع مرور الأيام ! »

وأعتقد أن عونى أدرك ارتباط منى فى ذهنى بفقيدنا رفقى . ولكنه تجاهل وصاح فى صوت ينبض بالتهريج : « أهكذا يا امرأة ؟ »

ووضع سبابته تحت ذقنى ثم استطرد : « كل ما يذكركن بالتقدم فى السن مكروه عندكن ولو كان من المفرحات ! منى يا امرأة بنت أعز صديقاتك لا تستحق عندك إلا هذا التعليق الفاتر؟ »

وأدركت مراده فى تناسى ذلك الجانب المعتم من حياتنا الذى لا خير فى تذكره . وارتسمت على وجهى بسرعة ابتسامة تهلل عندما داعبت أنامله خاصرتى ووضعت يدى وراء عنقه وسألته :

— ومتى نسافر ؟

— بعد ساعة على الأكثر . فيجب أن نصل إلى طنطا فى ساعة مبكرة . ففى الريف لابد من حفلة ضخمة عشية العرس . أنسيت ليلة الحناء يا امرأة ؟

ثم أنشأ يغنى بصوته الأجش وهو يرقص حاجبيه :

— جوزى اتجوز عليه . . . وأنالسه الحنه فى إيديه !

فقبلت خده . ووجدت لحيته شائكة فدفعته فى صدره إلى الحمام كى يحلقها ريثما أعد المائدة . وانتهزت الفرصة وسألته وأنا واقفة بجوار التليفون :

– كم يوماً سنمكث فى طنطا ؟

– نبيت الليلة هناك والليلة القادمة ونعود بعد غد .

– فى أى ساعة بعد غد ؟ صباحاً ؟

– هل نسيت يا امرأة تقاليد الزواج لطول عهدك به ؟ إن بعد غد هو يوم الصباحية . لا بد فيه من زيارة للعروسين فى الضحى . ولن يتركونا طبعاً قبل أن نتناول طعام الغداء .

ووضعت يدى على السماعة وطلبت المعهد لأعتذر عن دروس غد وبعد غد . وظل رنين التليفون فى الطرف الآخر بغير جواب . وتذكرت أن المعهد يغلق أبوابه حتى الساعة الرابعة فوضعت المسماع ومضيت إلى حجرة المائدة .

ومر الغداء فى لهوجة شديدة ثم قمنا نعد الحقائب وعونى لا يكف عن الكلام دقيقة واحدة . وهى حالة تستولى عليه حين يتحمس لشىء أو تستثار نفسه استثارة شديدة . فصديقه أنور عزيز عليه جداً حتى إنه ينسى العالم كله حينما يكون معه .

ولم يكف عونى عن الكلام إلى أن خرجت بنا السيارة إلى الطريق الزراعى . وعندئذ أخلدنا كلانا إلى الصمت ، كأنما حدث ذلك باتفاق سابق . وأسلمنا جسدينا لأشعة الشمس التى أخذت تنصب علينا .

وأرسلت بصرى فى المزروعات التى تمتد إلى نهاية الأفق . .

وقبيل قليوب انتصب أمام عينى فجأة ذلك البرج الأبيض اللون الذى يطير منه وإليه مئات من الحمائم البيضاء . . . وكأنما ضغطت يد خفية على زر سحرى . فانتفضت انتفاضة غامت بها المرئيات وارتددت نيفاً وعشر سنين إلى الوراء . . . وارتفع من المقعد الخلفى ورائى صوت ناعم يهلل للحمائم البيضاء ويصفق . . . ولم أنظر خلفى لأننى كنت أخشى أن أواجه المقعد الخلفى خالياً إلا من حقيبة زرقاء اللون وضعتها بيدى قبل أن أستقل السيارة وتشبثت بالنظر أمامى . وقلت من غير أن تتحرك شفتاى إلا بابتسامة مرتعشة أسوانة :

— أجل أيها الحبيب! إنها أسراب الحمام . وهذا بيتها . . .

ومرة أخرى شددت عزيمتى حتى لا ألتفت ورائى لأواجه المقعد خالياً ، حينما أحسست على كتفى وقع أنامل تستحثنى على النظر إلى الوجه الصغير الأبيض المتلهف على كل شائق جميل من مناظر الطريق وطرائف الحياة

— نعم أيها الحبيب . تكلم قل ماذا تريد فإنى مصغية إليك . . . .

وأحسست بالأنفاس الصغيرة الحارة تتخلل شعرى وتداعب أذنى ، فارتجفت أوصالى ، وارتكضت أحشائى وأوشكت أن أنقلب بجسدى كله إلى الخلف لأعانق الرأس الصغير الجميل . وأرى مرة أخيرة العينين الواسعتين وكأن كلا منهما سماء كاملة لانهاية لأغوارها الشفافة . ولكنى عصرت صدرى بذراعي المعقودين وتشبثت بمكانى حتى لا أواجه الفراغ .

— أريد برجاً كهذا فى بيتنا أربى فيه الحمائم البيضاء . .

وترقرقت فى عينى دمعة تركتها تتسرب فى صمت وتنزلق على وجنتى وأنا أقول من غير أن تتحرك شفتاى إلا بابتسامة باهتة مرتعشة :

— سيكون لك يا حبيبى برج أبيض فيه حمامات بيضاء . . .

واشترينا له بعد أن عدنا ست حمامات صار يربيها ويغذيها ويلاعبها .وأحبها وأحبته . ولم يقبل بعدها أبداً أن يأكل لحم الحمام كلما طهوناه . فكان ينظر إلينا فى عتاب وألم . وكنا لبلاهتنا نسخر منه ونأكل ما نشترى من السوق ونذبح . . . .

— لا تحزن يا حبيبى . فمن ذلك اليوم . . . منذ فارقتنا ونحن لم نذق لحم الطائر الذى أحببت . لعلك طبت الآن بهذا نفساً . . .

ومن غير أن ألتفت رأيت كأنما أنظر فى مرآة لمعان الغبطة والسرور فى عينيه وقد مال بظهره إلى الوراء فوق المقعد . فاستروحت نفسى السعادة والأمن . لأنه علم . ولأنه رضى وصفح . . . وتبللت بدموع ليس فيها حسرة ولا أسى ابتساماتى التى ارتعشت بها فى وجد صامت شفتاى .

ولا بد أنه رأى دموعى . فأراد فى حكمة الأبد التى اكتسبها فى كيانه الجديد أن يسرى عنى ويشغلنى ببعض أمرى .

— هذه سيارة جديدة يا أماه . . . .

ورأيته من خلال دموعى المتأرجحة وأنا أنظر فى نقطة ثابتة أمامى ، وقد أخذ يتحسس بيديه المقعد الذى يجلس عليه . فأجبته بإيماءة من جفنى . فانفرطت حبات الدمع من بينهما ، ولكنى لم أتحرك ونظر

نظرة عتاب . نظرة رجاء خاب . وأحزنته دموعى التى أراد أن يشغلنى عنها ويبددها ، فإذا حنانه وترفقه وقد فجرا ينابيعها الفائرة . . .

ولم أعد أراه . . . وتنهدت فى زفرة عميقة .

ومن جوارى فى هذه المرة لا من خلفى سمعت الصوت يخاطبنى :

ـ ليت هذه الشمس التى تزيغ بصرى غائبة . والقمر طالع . . . حتى كنت أخرجك من هذا الصمت بوقفة على جانب الطريق وشىء من الغزل والعناق . . . لا ينتهى إلا على ضرب النبابيت من الفلاحين الذين يحرسون الحقل المجاور . . .

ورفت على فى ابتسامة ونظرت إليه بطرف عينى فوجدته يكلمنى وهو يقود السيارة من غير أن ينظر إلى جهتى . فأدركت أنه يعلم . وأنه يقاوم ولهذا أخذ يتكلم . . . وهز رأسه وقال :

ـ هل يفتحون دماغى ؟ ليكن ! وهل تريد يا عونى أن تذوق صبوات العشق بعد المشيب من غير علقة ؟ من طلب الحسناء . . . أستغفر الله ! الأميرة الحسناء . . . لم يغله المهر !

ولم ينظر وهو يرقص حاجبيه بهذه الكلمات إلى جهتى . ولمحت وجهه مكفهراً . وصفحة خده اليمنى تختلج . فأدركت أنه يصانع وأنه لو نظر إلى وجهى لسقط القناع الراقص عن حاجبيه ، وألقى رأسه على كتفى منتحباً كما فعل أكثر من مرة من قبل ، بعد أن يكون قضى السهرة بين ضيوف هازلا معربداً . ويودعهم معى عند الباب . ويغلق بيده الباب ويلتفت ليواجهنى فى البهو الساطع بالأنوار حيث آثار المرح

والقصف . وفجأة يلقى برأسه على كتفى ويبكى لحظة من غير أن يتكلم . ثم يجرر قدميه ويختفى فى حجرة مكتبه فلا أطرقها عليه . ويظل نورها موقداً حتى الصباح . وأفتح بابها لأجد رأسه بين يديه فوق صفحة كتاب . . .

واهتزت بى السيارة ثم وقفت . عند مركز من مراكز المرور وفى جواره بائع مثلجات ناداه عونى وقدم لى زجاجة وهو يقول ونظرة الحنان تداعب صفحة خدى :

ـ اشربى يا امرأة . .

١٧

قبلات حارة وصخب ولغط . وابتسامة عريضة على شفتى . وفراغ بارد فى أعماق . وأسئلة منها وأسئلة منى . والإجابات فى الحالتين معروفة سلفاً وحتى غير المعروف منها لم يكن مهماً جداً أن أعرفه أو لا أعرفه إطلاقاً . . .

والعروس . . .

بنية ناضرة . وجهها ناعم . وقلبها مثل وجهها أملس لم يكتب عليه القدر شيئاً من سطوره بعد . واختلج جفناى وأنا أقول فى نفسى :

ـ لا بد مما ليس منه بد . كل آت قريب . وهذا الانهيار سيختفى

وتبدأ الرحلة فى الخضم الواسع . وتنتابها الأشواق إلى الشاطئ . وهى اليوم تفارقه لهفانة لا تريد أن تلقى نظرة واحدة إلى الوراء، والزورق يقلع بها فوق بحر هادئ تحت أضواء الفجر الوردية . وغداً يوم جديد مجهول . . .

وتحيات أخرى . وسيدات غريبات ووجوه جديدة . وأنا أصافح وأبتسم .وأضع أحياناً الخد على الخد وتجذبنى خيرية (أم منى) من معصمى إلى مخدعها لتريني فى فرح شبكة ابنتها . وتناولتها وقلبتها . وقلت الذى كنت أعرف أنى سأقوله قبل أن تقع عينى على الساعة المرصعة بالألماس . قلت ما كنت أعرف أنى سأقوله حتى لو كانت قرطاً أوسواراً أو عقداً أو زوج خلاخيل . والبسمة العريضة تفتر بها شفتاى . ولسانى يقطر عسلا منقوشاً فى كلمات . والفراغ البارد فى أعماقى . . . والظلمة تزحف . وأنا أكرهها، تلك العتمة بين المغرب وسواد الليل الحالك . وامتدت كف . وتلألأت الأنوار . وتنهد صدرى . واختلست لحظة أمام المرآة . وطلوت بصباغى الأحمر سطح فمى . وضعت عليه من فوق الصبغة بسمات الفرحة . وأهازيج سرور ودعاء . وخرجت أوزعها . والساقى يتنقل بين القوم بكئوس من شراب الورد ، قانى اللون . . . كصباغ الأحمر فوق فمى . رشفة من كوب واحد . كمذاق الأكواب جميعاً . شىء معسول . نغسله من فمنا بعد قليل. . . .

ورحت وجئت . وصديقة عمرى خيرية تدعونى فى اللحظة بعد اللحظة لتشاورنى فيما تفعل . ومحياها محتقن . بسرور فائر . أتلقاه من عينيها بهدوء يتوارى مزدرياً خلف بشاشة بسماتى . وأجيب بما عندى من

فتوى . وأضغط بأناملي على يدها في مواساة لا تتبينها . فهي ترى صفحة يوم . وأنا أقرأ في طي الغيب صحائف أيام تأتي . . . . لا بد . . . . لا حيلة في أيام ستطالعها في أفق الغد . بحديث غير حديث الشبكة ، والسهرة ، وأفانين الزينة ، وجلاء العرس . . .

وازداد فراغي البارد في أعماق حتى غطى كل كياني . وتهددت السآمة تلك البسمة الملتصقة فوق صباغي الأحمر . وتملكتني رغبة لا حيلة فيها أن أدخن سيجارة ؛ ومضيت أنقب في شوق عن عوني . وشققت إليه زحام الناس . حيث تصدر في الصف الأول . وقطعت عليه انصراف النظر إلى راقصة تتلوى . وأشرت إليه فأتاني في فرجة باب مفض إلى حجرة فيها أثاث مكوم . وقلت بصوت خافت ساهم :

ـــ أعطني سيجارة يا رجل !

فتطلعت عيناه إلى عيني بقلق وهو يقدم إليّ السيجارة ويشعلها . وتركت عضلات وجهي تستريح تحت ضوء الشعلة ليبدو فمي وأنا أنفخ الدخان مختلجاً سأمان . وبدا القلق على وجهه الطيب . فقلت كأنني أجيبه عن سؤاله الصامت : « ما قيمة هذا ؟ ألا بد أن يتزوج الناس ؟ »

فمط شفته السفلى ولمع في عينيه بريق ساخر : «يبدو أنه لا بد ! »

فقلت بضيق مخنوق : « ولماذا الضجة ؟ لماذا لا يتوارون ويتزوجون ؟ »

فنظر إليّ برهة طويلة ، نظرة تفيض فهماً . وتشنجت أصابعه على كتفي . فأحسست ندماً لأنني عبت الزواج أمام هذا الزوج

الحنون الطيب . فغضضت بصرى ثم اختطفت قبلة من طرف أنفه ودفعته فى صدره متضاحكة وأنا أقول : « عد بسرعة إلى موضعك . قبل أن يتحطم قلب الراقصة لا نصرافك عنها » .

وأخذت سيجارتى وتواريت بها فى ركن من القاعة المظلمة التى تكدس فيها الأثاث كى تخلو حجرات البيت لإعداد الحفل .ووجدت حشية مطوية فرقدت عليها وأغمضت عينى ورجوت صادقة لو لم أكن أفتحهما بعد ذلك أبداً . فلا أرى ولا أسمع ولا أحس . . . وينتهى وأنا فى غيبوبتى كل شىء . . .

ودخنت سيجارتى حتى نهايتها،ثم ظللت مستلقية لا أجد همة للقيام والخروج إلى الناس . ثم سمعت اسمى يتردد . يردده صوت خيرية المشحون بالانفعال : « أميرة . . . أين مدام أميرة ؟ . . . ليتها تعزف لنا مقطوعة . . »

واستبدبى الضيق . فالعزف آخر شىء كنت أصلح له ويصلح لى فى هذه اللحظة التى استولى فيها الفراغ البارد على أعماقى كلها وفاض على وجهى . . . .

ولكنى سمعت صوت عونى عند الباب ينادينى . ورأيت من خلفه خيرية وفى ظلام الحجرة وظلال الأثاث المكوم دسست الفراغ وكومته فى أعماقى وأخليت وجهى لمعالم الاحتفال . . . للنظرة ذات البريق . والابتسامة ذات الرنين . وخرجت لأستجيب للرجاء، وتمر أناملى على المعزف ، لسامعين مخمورين أو بلهاء . . . يرتدى الفن الجليل لإمتاعهم

مباذل المهرجين!

وكان ظهرى وأنا أعزف إلى الجالسين . وتهيبت أصابعى المفاتيح . لا عن جهل . لا عن خوف . بل عن إحجام وعزوف . ورأيت أمامى على سطح البيانو اللامع بريقاً . وخيل إلىّ أنه يعكس فى تشويه غامض قامة خورشيد وهو واقف خلفى ينظر إلى أصابعى ويشجعنى بابتسامة صامتة كأنه يقول لى :

ــ تشجعى . ألم أحدثك أننى كم ابتلعت مرارة فى وأنا أستخدم الموسيقى ملهاة للتافهين : يدنسون جمالها المهيب بمشاعرهم الغليظة التى تسندها موازين مجتمع يزن كل شىء بالفضة ويبيح كل شىء لمن يملك الثمن ؟ اعزفى !

وأحسست أننى معه فى عالم وحدنا . فوق هؤلاء الذين أسمع ضجة أنفاسهم من خلفى فيملكنى الاشمئزاز . وفى شجاعة وتحد ــ لأنه معى ــ مرت أصابعى على مفاتيح البيانو فى ترفع وازدراء . . .

وواجهت عاصفة التصفيق . وأوليت البيانو ظهرى وأنا أعلم أن عينى لن تقعا عليه حيث أحسسته واقفاً خلفى، يلازمنى فى معية مقفلة . فقد آن له أن يذهب وأن أواجه الناس وأرد على التحية . وأواجه نظرات عونى وهى تفيض بالإعزاز والاعتزاز . . .

وتسللت إلى حجرة فى أقصى الدار وضع فيها الطباخ جانباً من أدواته ، وجلست بعد أن أحضرت من المطبخ كوباً فيه قليل من الشاى المركز وفى كفى قرص من الأسبرين . ثم أغمضت عينى قليلا وأنا

جالسة فى الركن يواريني عن الباب دولاب لا أدرى لماذا وضعوه هكذا فى وسط الحجرة . ولعله ثقل على الحمالين والخدم وهم ينقلونه من حجرة أخرى أخلوها للمدعوين .

وفى هذا المجلس المنزوى عن الأنظار طاب لى أن أخلو بأعصابى وأغمض عينى على المقعد العتيق الوثير . وأنسحب بوجدانى من ضجة الاحتفال . . .

١٨

لم أفتح عينى إلا وقد افترشت الشمس حجرة النوم المنعزلة المخصصة للضيافة فى الطابق العلوى من الفيلا . وكانت السهرة قد امتدت إلى الساعة الأولى من الصباح. ولكنى لم أجد فى جسمى أثراً للتعب والإرهاق وأنا أتمطى بعد نوم عميق وأحلام لا أذكر منها شيئاً إلا ذلك الأثر الباقى فى نفسى من التفتح والانشراح . . .

ونظرت إلى جانبى فى الفراش وأنا أتهيأ لإلقاء تحية الصباح . فوجدت المكان فى جانبى خالياً . وأحسست فى أعماقى بالارتياح لأننى استيقظت فوجدت نفسى وحيدة ، بمفردى ، فى الفراش الواسع . وسجلتها فى نفسى مأثرة أخرى لعونى . . . إنه كان من اللباقة عن قصد أو عن غير قصد إذ تركنى للنوم حين أوينا إلى الفراش . ثم ها هوذا يتركنى لخواطرى حين فتحت عينى . . . .

وكأنما أردت أن أتأكد من أن الفراش كله لى لا يشركنى فيه أحد ، فمددت رجلى ويدى فى مساحة الفراش كلها ، وأخرجت صوتاً عميقاً يجمع بين التأوه والتثاؤب . ونظرت بعدها إلى ساعتى .

إنها تجاوزت التاسعة . لو كنت فى القاهرة لتأهبت الآن للذهاب إلى درس الموسيقى . ولكن المسكين سينتظرنى عبثاً . . .

وقفزت من الفراش فى مرح ونشاط فوجدتنى فى مواجهة شابة لامعة العينين ناضرة الوجه فى قميص نوم واسع تطل علىّ فى تطلع ودود من صفحة مرآة كبيرة معدة للتزين . فسرنى أن أجد الصباحة فى محيا الشابة وابتسمت فابتسمت . ثم رفعت يدى إلى مفرق رأسى بالتحية وقلت :

— بإذنك . كنت أريد أن أجلس إليك . ولكن لابد لى أن أدخل الحمام أولا . ثم نلتقى هاهنا بعد عشر دقائق على الأكثر . فأنا أستحم على عجل برشاش الماء البارد . . .

ودخلت الحمام بمخدع النوم وأنا أصفر مسرورة للطلعة الناضرة التى واجهتنى بها المرآة منذ قليل . فمن ذا يقدر لهذه الطلعة حقيقة سنى ؟

وانساب الماء البارد على جسمى العارى وأنا أتطلع مسرورة مزهوة فليس فى هذا الجسم أوقية واحدة من فضول الشحم . وبشرتى مشدودة ريانة . . . .

والتقيت مع صورتى العارية فى المرآة . ووقفت أتأمل فى زهو تناسق أعضائى حتى لم أكد أجد فيها عيباً .

وفى هذه اللحظة انفتح الباب فصرخت . ولم يفرخ فى روعى إلا حينما تبينت عونى وقد وقف مفتوح الفم يحملق بعينيه فى دهشة مصطنعة وقد أدرك الموقف بذكائه اللماح :

ـــ رحماك يا سيدتى ! صونى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن ربانى !

وضحكت وفتحت ذراعى . فعانقنى وأخذ يتشمم معاطفى ثم رفع حاجبيه بدهشة ونظر نحوى شزراً ويده تداعب الشعر وراء أذنى.

ـــ روحانى ؟ كلام فارغ ! ماذا يكون الجسمانى إذن أيها الشاعر المعتوه ؟ وماذا كنت تقول لو شممت هذا العطر المتضوع يا مسكين ؟

وتخلصت من يده بلباقة وأخذت أرتدى ثيابى .

فنهض عن الفراش وأخذ يقبلنى إلى أن دفعته فى صدره وطلبت منه أن يخرج كى لا يعطلنى عن ارتداء ثيابى .

وخرج عونى وجلست إلى المرآة أتم زينتى وأنا مزهوة . وأخذت أسأل نفسى وأنا أضع الصباغ الأحمر على شفتى :

ـــ لو لم أقل له إننى فى الخامسة والأربعين على سبيل المزل . ولو لم يعرف طرفاً من تاريخ حياتى . لو كان أول لقاء بيننا فى هذا الحفل . كان مدعواً للعزف مثلا ورآنى لأول مرة . هل كان يقدر لى عمرى الحقيقى ؟

وحين انتقلت يدى إلى تخطيط الحاجبين وجدت نفسى أسأل :

ـــ قد لا أكون متمتعة ببلاهة الصبا الباكر مثل منى وصاحباتها .

ولكنى قطعاً أبدو أصغر وأنضر بكثير من أم منى . إن الفرق بينى وبين خيرية ضخم .

وتصورت عينيه اللتين تحسنان وزن مزايا الجمال وقد دارتا فى أرجاء المكان ثم وقفتا أخيراً عند قامتى المشوقة وبشرتى الناعمة وابتسامتى الوضيئة . وكنت طبعاً سأدعى للعزف . فيزداد تعلق نظراته بى وقد زاد التقاؤنا فى الموسيقى عمقاً ومغزى . . .

ونظرت إلى ساعتى مرة أخرى لأراها تزحف إلى العاشرة . إلى الموعد . موعد اللقاء الذى لن يتم اليوم ولا غداً . . .

إن الفتى ذواقة . حساس للجمال . وأنا لم أقدر أنه معذور حتى رأيت نفسى وسط هذا الجمع من النساء والفتيات اللواتى لا معنى لأشكالهن وشخصياتهن . . .

وهل كان من الممكن لفنان مثله أن يعبر بى من غير أن يقف عندى بإحساسه وتفكيره ؟

ودقت ساعة فى برج مدرسة أجنبية عشر دقات . فلمعت عيناى وأنا أتخيله يتوقع دخولى .

وفى هذه اللحظة سمعت نقراً على الباب ثم دخلت خيرية تحيينى وتدعونى إلى مائدة الإفطار. وودعت صورتى فى المرآة بنظرة سريعة فيها اعتذار وفيها تواطؤ . ونزلت مع خيرية إلى الطابق الأسفل . ولم آكل شيئاً كثيراً كعادتى فى الإقلال من طعام الإفطار . ثم نهضت فى طريقى إلى المغسل فاخترقت البهو . وهناك لفت نظرى البيانو القائم

فى الصدر . حيث عزفت عليه بالأمس . فاتجهت نحوه بخطوات متراخية . وفتحته . ثم لمست أصابعى مفاتيحه فى رفق فخرجت منه نغمات السلم . كأنها همسة هامس بتحية الصباح فى لغة سرية . ثم أغلقت البيانو ومسحت بيدى على غطائه كأنى أودعه معتذرة وأعده أن أعود إليه وأننى لن أهجره . . لولا أنها الظروف القاهرة . . .

وكأنما أصرت الظروف القاهرة أن تعبر عن نفسها فدخل فوج وصيفات الشرف ليأخذن العروس ووالدتها ويأخذننى إلى الحلاق . وهو تقليد لابد منه فى يوم كل عرس .

وحانت منى التفاته وأنا أولى البيانو ظهرى لأتجه نحو مجموعة الوصيفات . فرأيت عونى من خلفهن ينظر نحوى وأنا منفردة بالبيانو فى الطرف البعيد من البهو نظرة ذات وميض خاص . فيه من الذكاء وفيه من الخبث الضاحك ومن التوقع والإغضاء . . .

١٩

الطريق طويل ممتد لا يريد أن ينتهى . والشمس تجنح للمغيب . وفى رأسى دوار خفيف . الخدر يسرى فى أعصابى من دوامة اليومين الماضيين بين الضجة المتصلة والحديث المستمر الذى لا يقول شيئاً . والتشابك مع الناس تشابكاً لم يترك لى خلوة إلى نفسى . فكدت أستسلم للنعاس على حركة السيارة التى تنساب ناعمة نحو القاهرة . . . لولا أن

قلقاً فى داخلى لا يريد أن يتركنى لأغفو .

كيف سيستقبلنى ؟ إلى أى حد استبد به اليأس من عودتى إلى استئناف الدرس ؟ كم مرة راودته يده أن تمتد إلى التليفون ؟ وكم مرة امتدت يده فعلا ثم ردها ؟ . . . . ومن يدرى؟ لعله أدار القرص بالرقم على مضاضة ثم أخذ وجهه يحمر فازداد النمش ظهوراً وهو يصغى لرنين التليفون .وقد ازدادت دقات قلبه . ولكن الرنين لم يجد سميعاً ولا مجيباً !

وغمرتنى الفرحة فعقدت ذراعى فوق صدرى وشددت وثاقهما وتركت صفحة وجهى لقبلات الشمس الغاربة وأغمضت عينى باستمتاع وأنا أتمثله حائراً لهفان ثم يائساً تلاشى من وجهه الأمل وألقى المسماع من يده على مضض .

وعند هذه الصورة هدأت نفسى وغفوت قليلا . . . .

واهتزت السيارة هزة قوية ثم وقفت ففتحت عينى لأجدنا عند مدخل الضاحية وقد أوقفتنا أول إشارة مرور . ونظر عونى إلىّ وابتسم فى رقة وقال : « لا بد أنك متعبة . أوشكنا أن نصل » .

ويبدو أننى كنت متعبة أكثر مما قدرت . فلم أدر كيف استغرقت فى النوم ولم أستيقظ إلا ونحن أمام البيت . وما كدت أصعد حتى دخلت الحمام وخرجت وأنا أشعر بشىء من الانتعاش . وكان عونى قد خرج ليأتينا بشىء من الطعام . فوجدت فى نفسى خفة غير عادية حتى كدت أرقص وأنا أتنقل بين الحجرات وحدى . كأن العودة إليها متعة من وراء التصور .

واتجهت إلى البيانو فجلست إليه برفق وبدأت أعزف التمرين الأخير . ثم خطر ببالى ما عزفته فى طنطا . وكيف كان ماثلا طوال الوقت خلفى . وتمثلته جالساً فى هذه اللحظة على الأريكة الكبيرة التى ورائى . والتى تستغرق جدار الحجرة بأكمله . تمثلته جالساً هناك وقد وضع ساقاً على ساق وفى يده فنجان قهوة والصمت شامل وأنا أعزف له وحده . حتى إذا برغت مط شفته السفلى واتسعت حدقتاه . دليلا على الإعجاب :

« برافو مدام أميرة ! »

وعزفت . عزفت له وحده . ولكن الصمت لم يستمر طويلا . إذ انفتح الباب وهرول خادمنا النوبى يصيح بلهجته الطريفة مرحباً بعودتنا . فلم أفكر فى النظر إلى الأريكة لأعتذر ، لأنى وثقت أنه اختفى منذ تعكر الصمت ولم نعد وحدنا .

وتمطيت . وتأهبت للاشتباك فى أحاديث وحركات مع حسن فى المطبخ ومع عونى على المائدة ثم فى حجرة النوم . اشتباكات أشبه بالمناوشات تخرجنى من أمنى ومن ذاتى .

وأسرع إلىّ النوم بعد العشاء فغفوت وتركت مصباح عونى موقداً لأنه كان يقرأ . ولا أدرى متى أطفأ مصباحه . لأنى لم أفتح عينى إلا على ضوء الشمس . وترامى إلىّ خرير الماء فى الحمام حيث كان عونى . فأرسلت بصرى إلى الساعة الصغيرة التى تحتل وسط الشيفونير ثم تمطيت . .

« لم تزل الساعة مبكرة . باق من الزمن ثلاث ساعات . . . . »

وانقطع خرير الماء . ولم يلبث أن دخل عونى كما توقعته أن يدخل :

مبتل الشعر حافى القدمين ضاحك الوجه . وانحنى على وجهى كما توقعت أن ينحنى . وقبلنى على صفحة خدى كما توقعت أن يقبلنى . . . . والبشر يتألق فى محياه كتألق الشمس فى الضحى : فيه حرارة . ولكن لا يكاد يلتفت إليه السائر فيه ، لأنه تألق معاد كتألق كل يوم . . . .

ونهضت فعاونته على ارتداء ثيابه كشأنى فى كل يوم . ولكن فى كسل يكاد يعزف بى عن كل حركة إلا الاستلقاء انتظاراً لحركة عقارب الساعة.

وعلى مائدة الإفطار حمدت له عادته فى التهام الصحف وهو يلتهم الفول . ولا أدرى ماذا قلت له وماذا قال لى . فقد جرى بيننا حديث متقطع انتهى بقبلة وأنا واقفة على رأس السلم . ورفع وجهه عند المنحنى . ثم ابتسم ابتسامته المتألقة تألق الضحى المعهود . ثم دخلت وأغلقت الباب واتجهت بخطى ثقيلة نحو الحمام .

وتحت رشاش الماء البارد بدأت أتحرك . ثم تذكرت كلباً صغيراً كان فى بيت أبى وأنا صغيرة كنت أصر على أن آخذه معى تحت الرشاش فى كل يوم، وكان المسكين يتلوى ويئن وأنا أضحك. . .تذكرته فأخذت أضحك وأنا وحدى فى الحمام . وظللت أضحك وأنا خارجه . ولمحت آثار الضحك المكتوم على وجه حسن الأسمر الداكن وهو يحاول أن يخفيه عنى . وتصورته يقول فى باله :

ــ لا بد أنها ممسوسة !

وزادنى ذلك الخاطر ضحكاً على ضحاك . وأنا أتهيأ فى حجرتى لزينة الخروج . وتمهلت ما استطعت . راجعت كل منبت شعرة . واخترت الثياب وارتديتها ثم خلعتها ثم ارتديت سواها . فلم تعجبنى وعدت إلى الأولى .

وعندما بدأت أعالج عينى بشىء من المسحوق الأزرق تذكرت أغنية شائعة فضحكت حتى انبثق الرذاذ من فى وغطى المرآة . وكانت الأغنية :

ــ حاغسل عينيه واحط قطره . . . حأبله بكره . . . حاشوفه بكره !

ومسحت صفحة المرآة وأنا أغالب بقية الضحاك وانتهيت من زينتى ورمقت الساعة لأضبط ساعة معصمى .

ــ بكره ؟ بل بعد أقل من ساعتين . . .

وأين سأذهب الآن ؟

على باب الله . أتسكع فى الشمس . وآكل جيلاتى ، كثيراً من الجيلاتى . فالصباح جميل . والحياة حلوة .

٢٠

السنا يضحك فى كل مكان وأنا فى طريقى إلى محل المثلجات فى طرف الضاحية . . . ونظرى يتنقل بسرعة بين الأشياء التى يجلوها نور

الضحى المتألق ، يتنقل فى نشوة سكر . . . كنشوة الفراشة التى تتنقل بين الأزهار ، لا تستقر . . .

وأمام محل « الساحر » وقفت أداعب بلسانى قبة قرطاس الجيلاتى البيضاء ، وأنا أدور بعينى فى أرجاء الواجهات من حولى . وكأنى أتحاشى النظر إلى تمثال البهلوان المتحرك . . . وأخيراً تعبت من تجاهله فحولت نظرى إليه . ورأيته يرقص حاجبيه ، فأومأت إليه بحركة من طرف أنفى تقلصت لها شفتى العليا ، ولم يلمحها أحد — إلا أنا وهو طبعاً ! . . . لأنى كنت منهمكة فى لعق الجيلاتى واستمراء برودته فى حلقى . . .

ودرت على عقبى . . . ومضيت فى شارع خلفى واسع ، مقفر من المارة . . ليس فيه إلا السنا المتألق على الأبنية البيضاء الساكنة على الجانبين . .

ما أجمل إشراق الشمس فى الضحى ! من ذا يعيش بدونه أو يمكنه أن يسعد ؟ ورفعت وجهى لتغمره الأشعة الدافئة . . . ولكنى اضطررت أن أغمض عينى . . . . وتنهدت كتنهد القاطرة حين يزدحم باطنها بالبخار المتولد من حرارة الأتون . واستولت على رغبة فى عمل أى شىء : أقفز . . . أنط . . . . أجرى . . . . .

ونظرت فى ساعة معصمى .

باق من الزمن أقل من ساعة . . .

وخطرت لى فكرة : الباتيناج ! وكدت أصفق فى الشارع طرباً بالفكرة البديعة . ياله من إلهام !

ومررت بالبيت فركبت سيارتى وأسرعت إلى ملعب الباتيناج فى أول الضاحية . . . فهناك يسعنى أن أقضى نصف ساعة زاخرة بالحياة .

ودخلت الميدان الفسيح . وكأنى أدخل عالماً آخر : فهنا كل شىء طافر ، متحرك ، لا يستقر . . . وهنا كلهم وكلهن فى عمر الورد أو فى البراعم لم تتفتح أكمامها بعد . . سن العشرين ها هنا هى الحد الأقصى . . . وانزلقت بين الأسراب ، من أول الميدان إلى آخره ، بلا توقف .فنحن حينما نتحرك لا تكون لنا أعمار ثابتة. . . وطال انزلاقى . . . . ولكن شيئاً فى أعماقى ظل ثابتاً لا ينزلق ولا يجرى معى . . . كالنقطة الباردة ، التى لا تكترث لما أفعل ، ولاتقيم له وزناً . . . . شىء أشعرنى أنى لست كالآخرين هاهنا . . .

أوه . . . إنه الاندماج . هذا الاندماج الذى ينقصنى ، أشعرنى بالغربة . . . الكل هنا يتقاربون ثم يتباعدون ويتنادون بالأصوات ، وبالحركات . . . كل شىء فى كل واحد وكل واحدة منهم يحس بالآخرين ، ويتفاعل معهم . . . وأنا وحدى بمعزل . . . .

وأحسست بألم فى أحشائى . ألم كالهزيمة .

ومددت يدى لأول صبى اقترب منى . . . . لاتتجاوز سنه الثانية عشرة ، نحيف ضاحك . . . كالجميع !

ومد يده فتلقى يدى وهو يضحك فى وجهى . . . وانزلقنا معاً على مدى ذراعينا المتشابكتين نحو عشرة أمتار ، ثم أفلت يدى واندفعَ يصيح كصيحة الحرب فى الأحراش ، واندمج مع الآخرين ، وبقيت

وحدى . واتجهت إلى أريكة ، وجلست أسترد أنفاسى المبهورة وأحتسى كوباً من عصير الليمون المثلوج .

ـ إنه ما كان يشعر بالعزلة والغربة هاهنا . . . . هو منهم . . . . كالورد فى الأكمام ، أو كالورد المتفتح تحت شعاع الشمس فى الضحى . . . أما أنا . . . فأتقلب مثلهم فى الشمس وأنتشى بدفئها . . ولكننى لست وردة . . . لم أعد وردة . . . وإن كانت فى النضارة . . . . نضارة الثمر !

ودارت عيناى ترمقان شباناً فى مثل سنه وهيئته ، مندمجين فى المجموعة ، يتمايل عليهم الفتيات الكواعب ، ومن دونهن ممن لم يتفتحن بعد ، وإن تعجلن التفتح ، ولو بلمسات الأصابع الشابة العابثة . . . هو هنا . مكانه هاهنا . . . أما أنا ، فعابرة بالمكان . زائرة طال مقامها أو قصر . . .

ورفعت وجهى للشمس أغرقه فى سناها الحار ، وأغمضت عينى . لقد بقى لى هذا على الأقل : الاستمتاع بدفء الشمس فى ضحاها . . . وتراءت لى وأنا مغمضة العينين ابتسامة عونى المتألقة كتألق الضحى فى اليوم الصافى . وتمثلت رفقه الدافئ كدفء الضحى فى اليوم الصافى . وتمثلت حبه المطمئن الذى لا يتخلف عن أوانه ، كطمأنينة الضحى الموافى لا يخلف ميعاداً . . .

وشاعت الطمأنينة فى نفسى . . . ولكن بقى جسمى متوثباً للحركة والمراح ، وإن عاف هذا الميدان الذى ركز فيه إحساس العزلة ،

كالثمرة المفردة وسط ربيع كله أزهار . . . .

الضحى على الأقل بقى لى . وعونى على الأقل بقى لى . . .

الضحى لا حياة بدونه . لا حرارة بدونه . لا نشاط للحركة الجائشة بدونه . . . ولكن ما انتفاعى بالضحى وحرارته وجيشانه ، إن لم أجد ميداناً لحركتى الجائشة . . . أقفز هنا ، وهناك . . . وأغنى وأرقص .وأعبر عن الحياة التى أمدنى بها الضحى . . . ؟

أحب عونى . أحبه . . . لا أحيا بدونه . ولكن لابد لى أن أحيا وأمارس الحياة التى وهبنى . . .

لابد لى . . . لابد . . . ولو اقتضى الأمر أن تتزيا الثمرة بزى الأزهار ، لتشترك فى مهرجان الورد . . . مهرجان الربيع. . . .

ونبض الربيع الساكن فى أعماقى . . . ونظرت إلى ساعة معصمى ، وقفزت واقفة . . . فوقعت على الأرض ! لأنى كنت قد نسيت فى لهفة اللحظة أننى لم أخلع قبقاب الانزلاق . . . وقمت أنفض التراب عن كفى ، وأنا أتضاحك لأدارى خجلى من ضحك مراهقتين أبصرتا وقوعى . . . وشعرت بنقمة شديدة . وأيدت من كل قلبى رأى خورشيد فيهن : مقصوفات رقبة . . . تافهات . . .

٢١

تمهلت وأنا أصعد السلم المظلم . لأن شدة الضوء فى الخارج جعلت عينى عاجزتين تماما عن مواقع قدمى فى أول الأمر . وأخيراً صنعتا ، فلابد لى من التمهل حتى أصل إلى فوق هادئة الأنفاس والأسارير . . . .

ولم يكن خورشيد فى الردهة الخارجية مع المدير الذى سلط علىّ نظراته المتألقة المتواطئة . فأومأت إليه برأسى واتجهت نحو حجرة الموسيقى ، فقفز من مكانه واعترض طريقى فى لهفة : « صباح الخير يا مدام أميرة ... ماذا حجبك عنا هذين اليومين ؟ » فأجبته وأنا أتبسط معه فى الحديث ، ولكن فى إشفاق من تشعبه : « كنت غائبة عن القاهرة لأداء واجب . » .

فاستعرض زينتى بنظرة خاطفة وابتسم قائلا : « أرجو ألا يكون واجباً مضنياً . . . وأن تكونى استمتعت برحلتك . . . » فقلت بسرعة لأضع حداً للمحادثة : « كانت رحلة ممتعة. . . »

فأطلت نظرة التواطؤ من عينيه . ومع أننى بت على يقين من أنها حركة عصبية لا تعنى شيئاً بالذات ، إلا أننى شعرت بضيق منها وهو يقول : « أعتقد أن الأستاذ خورشيد فى حجرة الموسيقى الآن . . . » ثم أردف يقول : « لقد اتصلنا بك مراراً فى التليفون لنستفسر عن سبب انقطاعك عنا» .

عنا ؟ من يعنى بهذا ؟ هل يعنى نفسه ؟ أم يعنى كليهما ؟ أم يعنى خورشيد ؟

ـــ . . . ولكن التليفون لم يرد . . . وفى يقينى أنه قطع الأمل من حضورك اليوم أيضاً لأنك تأخرت دقائق عن موعدك . فقد كان هنا معى منذ دقيقتين فقط وكنا نتكلم عنك .

هو إذن كان قلقاً . وكان يحدثه عنى . . . .

ودون أن أجيب نظرت إلى ساعة الحائط الكبيرة ثم أحنيت له رأسى ويممت فوراً حجرة الموسيقى ، وتركته واقفاً ينظر نظرة التواطؤ المعهودة ويبتسم . . .

وكان الباب مغلقاً . ولكن صكت سمعى ألحان حادة ، عصبية ، من معزوفة لفاجنر تعبر عن عذاب العمالقة . . . . وفتحت الباب ببطء ثم دلفت إلى الداخل فى سكون ، وأغلقته خلفى ووقفت وظهرى إليه . . . لأنه كان يعزف بحماسة شديدة ، وعيناه مرفوعتان إلى السقف . . . . ولعله كان يلتمس فيه منفذاً إلى السماء . . . وهذا طبعاً مستحيل ! . . .

ولا أدرى كم وقفت هكذا كالمأخوذة بانهماكه فى العزف ، والتماسه اليائس للسماء فى بنيان السقف الأبيض الناصل الأصم . . . ثم اعتصرت قلبى قبضة قوية من تلك الأنغام الشاكية وتلك النظرة اليائسة ، فنقرت بأصابعى من خلف ظهرى على الباب ، لأحول نظره المتلمس عن السقف . . . إلى الأرض ، إلى مكان من خلفه إلى اليسار . . . . أقف فيه . . .

وتحولت عيناه عن السقف ، واتجهت نحوى . ثم صمت المعزف ،

وندت من فه صرخة دهشة ، وتألقت عيناه ، ثم احمر وجهه ووضح النمش فيه وقام من مقعده الحلزونى قيام من يلجم حركاته حتى لاتأخذ مداها الطافر ، ومد يده فى ثبات وهز يدى فى رزانة لا تتفق مع أول بادرة وقال فى حبور مكظوم : « أهلا بمدام أميرة . . . لقد هبطت علينا من السماء » . فضحكت وأنا أضع حقيبة يدى على المائدة الصغيرة وأتهيأ للجلوس : « الأولى بك أن تقول : إنى هبطت بك من السماء التى كنت فيها . . . »

فغض بصره وسكت قليلا . وتشاغلت عنه قليلا بتسوية ثوبى —وما كانت به حاجة إلى تسوية — ورفع بصره وقال كالحالم : « اثنتان وسبعون ساعة لم نرك فيها يا مدام أميرة . . . »

لقد أحصاها بالساعات ! ولكنه يقولها بلغة المجاملة . مثل المدير . . . بضمير الجمع . ومع هذا فاللهجة التى نطقها بها لا محل للخطأ فى تأويلها .

ولم أجد منفذاً لى إلا الضحك ، فتضاحكت وقلت :

— كان لابد من السفر فجأة ظهر آخر يوم كنت فيه هنا . ولم أتمكن من الاعتذار لأن المعهد يغلق أبوابه فى فترة بعد الظهر إلى الساعة الخامسة .

— الرابعة يا مدام أميرة .

— سافرنا فى الثالثة على كل حال . وغالطت نفسى مع هذا وطلبت المعهد بالتليفون عسى أن يكون الساعى هنا فيبلغك اعتذارى . إنى جد

آسفة لتغيبي بغير اعتذار مما سبب لكم قلقاً لا موجب له . . .

ولم يقل شيئاً . رأيت العتاب واضحاً فى نظراته . عتاباً ليس له سبب ظاهر بعد أن بينت ظروف الانقطاع . ورنت فى سمعى تحت وقع تلك النظرات كلماته العجيبة الزاخرة بالحسرة : « اثنتان وسبعون ساعة . . . . »

وأغضيت كالمذنبة . وقلت بصوت الصبية المراهقة لمدرستها العجوز : « لن أتغيب بعد اليوم » .

ولم أردف اعتذار التلميذة الصغيرة بكلمة « يا أبله » بل رفعت عينى إليه لأكتشف صدى كلماتى على وجهه فوجدته منحنياً فوق المائدة الصغيرة وقد وضع قبضتيه إحداهما فوق الأخرى ووضع ذقنه فوقهما وظهرت الحيرة واضحة على محياه الطفلى . ولكنها حيرة يمازجها الحبور والاغتباط . ويبدو أن مشاعره كانت أقوى من أن يسيطر معها على تعبيرات لسانه فلم يتكلم . بل اعتدل فى جلسته ثم بسط يده نحوى لأتناول من صندوقه سيجارة . ورأيت يده ترتجف وهو يشعل سيجارتى . فحولت عينى عنه ثم رفعتهما إليه بعد قليل لأرى يده ترتجف أيضاً وهو يرفعها بالسيجارة إلى فمه . وعيناه زائغتان لا تنظران إلى شيء فأدركت أن من واجبى أن أخرجه من المأزق لأزيل الحرج الذى خيم على جو الحجرة . فقلت وأنا أتقدم نحو البيانو فى تؤدة : « أتدرى أننا كنا فى طنطا لنشهد قران شاب فى مثل سنك ؟ »

وتدافعت الكلمات من فمى ، وأنا أقص عليه مشاهد من ذلك

العرس وجوه الصاخب .

وكنت أرقب الحبور وهو يعود إلى قسمات وجهه ، ثم انفجر آخر الأمر ضاحكاً من أعماق قلبه . ونسيت نفسي وأنا أشرب بعيني من هذا البشر الطفلى المتألق على وجنتيه وفى عينيه. فصاح يستزيدنى:

ــ وبعد ؟ ماذا حدث أيضاً ؟

وبلعت ريقى . فقد كان فى هذه اللحظة أقرب ما يكون إلى الطفولة . وهو يستزيد أمه أو مربيته من قصص السحرة وحواديت الجن . وداعب رأسى سؤال قاس . طرحته جانباً ونظرت إليه فى دعابه :

ــ أتدرى ماذا كان يجول بفكرى وأنا أرى هذين العروسين الصغيرين ؟

فنظر إلىّ نظرة ماكرة وسألنى بخبث:

ــ ماذا جال بخاطرك يا مدام أميرة ؟

فجمعت أطراف عزيمتى وقلت بأقصى ما استطعت من هدوء :

ــ كنت أقول متى أرى الأستاذ خورشيد فى هذا الإطار الجميل . متى ؟

فقطب حاجبيه واحمر وجهه . وأسرعت أنا أقول ضاحكة قبل أن يتكلم :

ــ بشرط أن أكون حاضرة . فأنا أم العريس .

فقال بلهجة جد شأن من فكر فى المسألة طويلا من قبل :

ــ لن أتزوج يا مدام أميرة .

فتصنعت الدهشة . وإن كان شيء فى أعماقى قد انتفض انتفاضة السرور ، وملت إلى الأمام قليلا وسألته وأنا أتفحصه بعينى :

ــ ولماذا هذا التصميم يا أستاذ خورشيد ؟ . . . إننى أوافقك طبعاً على أن الوقت لم يحن بعد . ولكن متى وجدت الفتاة التى تسعدك . فلماذا تقفل على نفسك أبواب الفردوس ؟

فهز كتفيه ثم قال بأسى :

ــ إن وجدت ! ولكنى متأكد أننى لن أجد هذه المرأة .

فقلت بدهشة أدارى بها اللهفة : « ولماذا هذا اليأس ؟ » قال بتؤدة : « لا يأس . ولكن المسألة أن قلبى لم يعد فيه متسع لفتاة . . . . » وبلهفة أشد موهتها بالتباله : « إننى أعلم أن الفن قد استولى على قلبك كله ولم يترك فيه متسعاً لأحد . ولكن لا بأس ! فالفنان دائماً مستعد لتلقى لمسات الحب الحانية . وسيأتى اليوم الذى يتسلل فيه الحب إلى قلبك بدون أن تدرى » .

ولم أستطع أن أغفل الهيام الذى ومض فى نظرات عينيه الصافيتين مشوباً بالأسى الصامت . فارتعدت سريرتى وتقلصت أحشائى وأحسست باندفاع قوى نحوه . ولكنى تمالكت نفسى حتى لقد شعرت بأوجاع تسرى فى كيانى كله ، ثم سمعته يقول : « كان الفن إلى عهد قريب هو كل شيء فى حياتى إلى أن أتت من استطاعت أن تجعله شيئاً ثانويًّا ، واستولت على قلبى وكيانى كله » .

فقلت وكأنما الأمر لا يعنينى : « يالها من فتاة محظوظة ! »

فأجابنى وعيناه لا تطرفان ولا تتحولان عن وجهى : « أهذا هو إحساسك حقًا ؟ »

فقلت بلهجة التأكيد : « بالطبع ! وهل تطمع فتاة مهما كانت فى شاب أفضل منك ؟ »

فقال وهو يجول بنظراته فى عينى : « إذن لماذا لا تشعر بوجودى ؟ »

فقلت معاتبة : « أتريدها أن تبدأك هى بالاعتراف يا أستاذ خورشيد ؟ ومن يدريك ؟ لماذا لا تكون متصونة لاتفصح عن عواطفها قبل أن تتأكد من عاطفتك . . . »

فقال فى توسل كاد يفلت زمامى من يدى :

— أهذا رأيك حقًا ؟ أتنصحيننى أن أكاشفها ؟

— طبعاً ! وأنا ضامنة أنها ستطير فرحاً !

— و إذا لطمتنى على وجهى ؟

— كيف ؟ أهى لا تحبك ؟

فأشاح بوجهه فى قلق متوتر وقال : « هذه هى مأساتى . أنا لا أدرى . لا أستطيع أن أجزم . أهى تترفق بى عن عطف أم عن عاطفة . هذه هى المشكلة . أسوأ ما فى الأمر . . . . »

وسكت . فاستفسرته بنظراتى . فأطرق وقال بصوت خافت :

« متزوجة » .

فصحت بدهشة مصطنعة : « متزوجة ؟ ! وما الذى جعلك تتعلق بهذه المرأة المتزوجة ؟ هل خلت الدنيا من الأوانس يا أستاذ خورشيد

حتى تترك قلبك يهيم بمتزوجة ؟ »

فقال وهو يضرب بسبابته على حرف المائدة وعيناه ذاهلتان : « وهل الأمر بيدى ؟ لو كان بيدى ما توانيت لحظة فى انتزاع هذا القلب والتخلص من عناء تشبثه العنيد بهذا الحب . ولكن من ذا أمره بيده ؟ »

ورن السؤال فى أعماقى : من ذا أمره بيده ؟

أنا أيضاً . ماذا يريد بى قلبى وماذا يبيت لى ؟

— وماذا أنت صانع الآن ؟ هل ستبوح لها بحبك ؟

فأطرق إلى الأرض لحظة ثم قال : « مستحيل . ما لم أجد منها تشجيعاً كافياً . وهل نسيت يا مدام أميرة ؟ »

وانتفضت توجساً مما يريد أن يذكرنى به مع أننى كنت لا أدرى ما هو .

— . . . هل نسيت أننى قلت لك منذ أسابيع شيئاً عن هذا الموضوع جاء فى حديثنا عرضاً . فقلت لى بلسانك : ماذا تستطيع هى لك إن صارحتها بحبك وهى سعيدة فى زواجها ؟ دعها لا تعلم فذلك خير لها ولك . . . .

وعضضت على لسانى وشردت ببصرى أتصنع التذكر . ولكنه استطرد :

— إنى أفزع من التفكير فى عاقبة التصريح . لن أتحمل الصدمة ولن أستطيع أن أستجدى عطفاً ورثاء . سأترك كل شىء وأرحل إلى أقصى

العالم حتى لا يقع بصرها علىّ بعد ذلك . . .

وأحسست بمقاومتى تكاد تنهار . فتشبثت بيدى فى جوانب المقعد ، مقعد البيانو المتحرك خوفاً من أن تنم حركة يدى على ما فى أعماقى . واستدرت بسرعة لأواجه المعزف ومرت أصابعى على مفاتيحه ثم قلت بعد برهة بصوت يكاد من شدة هدوئه أن يكون فاتراً :

— الشباب دائماً يبالغون فى الاهتمام بهذه المسائل . ثق يا أستاذ خورشيد أنه لم تخلق المرأة التى تستحق منك كل هذا العناء فى حبها . الحياة فى مرحلة الشباب سهلة فلا تدعها تتعقد وتشق عليك ، واغنم متاع الشباب قبل أن يفوت الأوان . . .

ولما رآنى أنصرف عنه إلى المعزف قطع الحديث على الفور . وقد ظن أننى لا أكترث لإحساساته العنيفة المضطربة . ولم يخطر بباله أننى أحتمى منه حتى لا تذكى نيرانه أوار نيرانى .

وكان له من الكبرياء ما اعتصم به وهو يصفر صفيراً خافتاً . ثم لم يلبث أن سكت وسمعت صوته خافتاً جداً وهو يتمشى خلفى فى الحجرة : « معك حق يا مدام أميرة . . . » وسكت قليلا ثم أعقب وهو يقف متكئاً إلى المائدة الصغيرة : «. . . إن الحياة فعلا سهلة كما تقولين . . . لمن لا يعانيها ! »

وسقطت الكلمة الأخيرة كاللطمة على وجهى . ليته يدرى !

ثم بصوت أعلى قليلا . بصوت أجش رصين واضح : « أسمعينى يا مدام أميرة آخر تمرين وصلنا إليه ، فإننى فى شوق إلى سماعك . . . »

٢٢

كم كنت قاسية فى الأسابيع الأخيرة . قاسية على نفسى .

لم يكن خورشيد أول رجل رأيته يتعلق بى . فالمغامرات الصغيرة — على حد تعبير عونى — عنصر جوهرى فى حياتى . له حيز صغير جداً حقاً ولكنه جوهرى . يرضى غرورى ويجدد إقبالى على الحياة كلما استشعرت الملالة من رتابتها . ولكن ما إن أرى هذا العنصر يتضخم ويهم أن يسيطر على حتى أقلب له ظهر المجن لأنى لا أتصور لإنسان سيطرة على شخصى . ولم يكن يكلفنى التحكم فى الموقف شيئاً من العنف . لأن كل لذتى التى أجنيها من المغامرة هى الشعور بأن الفريسة وقعت فى الشرك . أما الافتراس والالتهام فلم يكونا من همى . حسبى أن أشعر أنى مرغوبة مطلوبة . أما أنا فلا رغبة عندى فى أحد وبذلك تنتهى اللعبة من حيث بدأت . وأتربص لألعوبة جديدة والشيطان الخبيث العابث البرىء من الآثام يرقص ويصفق طرباً فى أعماقى .

أما خورشيد فكان الأمر معه على العكس . تفجرت له فى قلبى ينابيع الرقة والرحمة والأمومة .

ولماذا أكذب ؟ لقد أحببته حباً ممتزجاً بشعور الأمومة . ولأول مرة فى حياتى أحسست حباً من هذا النوع ، هو مزيج غريب مثير من الحب ومن الحنان ومن اللوعة لمرأى طفل كبير يتألم . . .

ولعلنى لو لم أكن جربت الأمومة وفقدت طفلى ما كان شعورى الدافق حيال خورشيد ليخلو تماماً من الأنانية وحب التسلط والكبرياء ، وهى الصفات التى كانت تلون إحساساتى دائماً حيال أى رجل .

ووطنت نفسى على ترويض تلك العاطفة التى لم يستثرها فى نفسى شيطانى العابث . كان الأمر جداً لا هزل فيه ولا عبث . كان أقوى منى . سيطر على ولم تعد لى عليه سيطرة . واضطررت أن أقسو على نفسى كى أخنق صوت تلك العاطفة حتى لا أتسبب فى تعاسته وقد صار عزيزاً جداً على نفسى .

وزاد من إعزازى وتلهف قلبى عليه أنه لم يشر فى تلك الأسابيع التالية إلى موضوع حبه من قريب أو بعيد . وازداد رجولة فى نظرى . وتألمت قليلا لنفسى . ولكنى سررت له لأنه أسقط من حياته ما كنت أخافه عليه وخنق عاطفة لن تعقب له إلا مرارة الفشل والحسرة .

وهكذا انقضت أيام تقرب من خمسة أسابيع . وفى ذات يوم قال وهو يقلب عينيه بين المعزف ووجهى . وأصابعه تتحسس المفاتيح البيضاء فى لمسات متتابعة وابتسامة خفيفة تتأرجح بين شفتيه : « كم فى الحياة حقاً من أعاجيب . . . ! »

والتفت إليه أستفسره فاستطرد : « لست أدرى لماذا تصر والدتى فى هذه الأيام على تزويجى . . . »

فكأنما ألقى بحجر ضخم فوق صدرى . وضاقت أنفاسى ، كأنما تقلصت قصبتى الهوائية تقلصاً شديداً مفاجئاً . ولكننى قلت وأنا أرسم

ابتسامة مغتصبة بلهاء على شفتى « هكذا ؟ عجيب حقاً ! »

فأجابنى وهو يهز رأسه ضاحكاً : وتصر أيضاً على أن أتزوج العروس التى اختارتهالى بنفسها كأن الزمن يرجع بنا إلى الوراء، وتقدمنا تحصيل حاصل .

فقلت أستزيده : « ألم ترها قط ؟ » فقال :

— أن يتزوج الشاب هكذا بمجرد أن يعجبه مظهر فتاة . لو كان الأمر كذلك لكان من الواجب أن أتزوج كل نساء العالم . فالنساء أحب ما خلقه الله على الأرض . وأنا أغتفر للدنيا كل شىء فى مقابل ذلك الكائن الجميل : المرأة !

فأزعجتنى كلماته وقلت أستوضحه : « هل كل النساء لديك سواء ؟ »

فقال ونظراته لا تخلو من خبث : « كلهن ! ولو كان الأمر بيدى لحصلت عليهن جميعاً » .

وشعرت بما فى كلماته من تحد يريد به إثارتى فاعتصمت بكبريائى وقلت :

— ولماذا تتزوج إذن وتشقى بنات الناس ؟ عش كما تريد ولا ضرورة لهذا القيد الذى تغل به إلى عنقك فتاة من عشرات أو مئات كلهن لديك سواء .

فقال بلهجة الجد شأن من يصدر فى قراره عن روية : « وهذا ما قررته بينى وبين نفسى فعلا . أما والدتى فهى ككل أم تريد أن تفرح بابنها . والحقيقة أننى لا أدرى ما سر فرح الأم بزواج ابنها مع

أنها تصبح بعد الزواج هي وامرأته عدوتين لدودتين » .

فقلت متضاحكة : « ليس الأمر إلى هذا الحد . فهناك من الأمهات من تعد زوجة ابنها كابنها تماماً . ولاتقتضي المسألة سوى أن تتنازل كل منهما عن بعض حريتها وحقوقها للأخرى » .

وفطن إلى وطأة الحديث على نفسي فكان من اللباقة بحيث حول دفته على الفور قائلا : « أتدرين يا مدام أميرة أن هذه الفتاة ثرية جداً وأنها على أتم استعداد كي تؤسس لى معهداً خاصاً بى . وتؤثث لى بيتاً كاملا وتضع تحت تصرفى كل ما تملكه من عقار؟ »

فقلت أجاريه : « مرحى مرحى ... ومن الذى يرفض هذه النعمة السابغة التى هبطت عليه جزافاً إلا إنسان جحود ؟ »

فقال بخبث : « ومن قال لك إننى لست جحوداً ؟ »

فقلت متصنعة الجد : « لست أدرى . ولكن يخيل إلىّ أنك إنسان على خلق . له مبادئ » فنظر إلىّ باهتمام وقال : « وهل تتعارض المبادئ مع رفض هذه النعمة — على حد قولك — أم أنها تحتم ذلك الرفض ؟ »

فقلت وقد أحسست أننى أخطأت الحكم عليه : « ولكن لماذا تظلمها؟ لعلها رأتك وأحبتك وأنت لا تدرى . ولذا فهى مستعدة للتنازل عن كل شىء فى سبيل الزواج منك ؟ »

فهز كتفيه فى استهانة ثم قال : « تحبنى ؟ وما الفائدة من ذلك وأنا لا أشعر بوجودها . ثم أنا لا أومن بأن الوجد والهيام يهبطان على الإنسان

بمجرد أن يرى الشخص مرة أو مرتين . فهذا أمر يستدعى التفكير الطويل » .

فقلت بجد تام : « ولم لا ؟ كثيراً ما يحدث للإنسان أن يخر صريعاً بضربة حب مفاجئة من أول نظرة . . . » .

فشرد بصره طويلا ثم قال بتؤدة : « أنا لا أومن مطلقاً بهذا النوع من الحب » .

فقلت أستحثه : « بأى نوع من الحب تؤمن أنت إذن ؟ »

فأجابنى وعيناه تنظران إلى ركن الغرفة البعيد : « أومن بهذا الحب الذى يأتى بعد تفاهم فكرى وعقلى واختبار كل من الطرفين لصاحبه إلى أن يستولى على النفس إحساس طاغ بأن لا غنى لأحدهما عن الآخر » .

فقلت فى يأس : « وكيف يكون هذا الاختلاط وتقاليدنا لاتسمح به ؟ » .

فأجابنى فى تصميم أعرفه جيداً فى نبرات صوته : « لا أدرى ! . . . . وأنا لن أتزوج إلا على هذا الأساس . . . لن أتزوج فتاة أشعر أنها أغنى منى وتعتقد أنها تملك أن تشترينى بمالها . فهذا مسلك معيب لن أستطيع أن أغتفره لنفسى » .

وأحسست بالزهو يملأ نفسى لكلمات هذا الفتى التى تفيض نضوجاً ورجولة . وغمرنى شعور سعيد بالراحة لأنه رفض ذلك الزواج المغرى . فهو يأبى أن يكون ضئيلا . وخلوه من سيطرة امرأة أخرى عليه

يملؤنى طمأنينة وأمناً ، كأنما هو ملك خالص لى لا أريد أن تشاركنى فيه امرأة . وهو شعور ينتابنى دائماً كلما أعجبت بشخص حتى إننى أغار من مجرد نظرته إلى غيرى .

٢٣

ومرت الأيام متباطئة لا يتخللها جديد . ولم يعد خورشيد يشير إلى أى شىء مما يعتمل فى أعماقه . وإنما هو الدرس فقط . ولا بأس ببعض كلمات أو نكات تعرض السكون بين كل مقطوعة وأخرى كنا نضحك على أثرها ضحكاً متكلفاً فاتراً كأنما أسدل نقاب شفاف بيننا ففصل كلامنا عن صاحبه ووضعه فى مكان معين ليس له أن يعدوه .

وبدأ السأم يتسلل إلى نفسى . فأنا لا أستطيع الركون إلى الهدوء ، والحياة الرتيبة تقتل حساسيتى وتسلمنى إلى الضجر والهمود . . .

وعدت إلى التطلع إلى بائع العاديات . وقد لقيته فى بعض الطريق فتهلل وجه الرجل بشراً يسألنى لماذا أعرضت عنه طويلا . وجعلت يداه تعرضان بضاعته على ولسانه لا يكف عن إطرائها . ثم عبثت أصابعه بمنديل أخرجه من قب ثوبه وأخذ يعالج فتحه فى تباطؤ ليستخرج من طياته سواراً من الفضة الرخيصة المنقوشة على الطريقة الهندية ، مدخلا فى روعى أنه كان يحتفظ لى به فى حرز حريز برغم شدة الإقبال على طرازه . فقلت له فى مكر : « ولماذا أتعبت نفسك بإخفائه

ولم تعرضه علىّ ؟ »

فنظر لى نظرة حصيف يعرف خفايا النفوس وقال :

ــ كنت أراك معرضة عنى . قرأت ذلك فى وجهك . ولكن لم يكن فى وسعى أن أتخطاك إلى عميلة أخرى إلا إذا تأكدت تماماً من زهدك فى بضاعتى زهداً نهائياً . . .

وكنت أنظر إلى السوار بعين ملول ، وأصابعى تعبث بالأقراط الزجاجية والخواتم الفضية والعقود الملونة . ورنت كلمات البائع فى وجدانى السأمان .

إنه لا يمكن أن يتخطانى إلا إذا أيقن من زهدى فى بضاعته .

هل أحس خورشيد منى زهداً فيه فتخطانى إلى أخرى تقدره قدره؟

ومن ذا قال إننى لا أقدره ؟ أليس حسبه ما بيننا من وشائج الألفة والصفاء فيتطلع أيضاً إلى الوجه الآخر من الحياة ؟

ويحى من متحكمة أنانية ! أأريد له أن ينقطع لى وحدى وهو لا يدرى من شعورى نحوه إلا أنه شخص عادى ليس له فى قاموس حياتى إلا النظرة اللطيفة والبسمة العابرة ؟ وأنا أمرح كما يحلو لى بين زوج يعشقنى ويهيئ لى كل ما تصبو إليه نفس امرأة ، وأصدقاء يخطبون ودى . . . . فهل وصل بى الجشع إلى الحد الذى أربط معه شاباً كهذا فى باكورة شبابه إلى عجلة حياتى وأطالبه بالعزوف عن كل مباهج الحياة متناسياً حيويته فى سبيل نظرة تعطف أسبغها عليه كلما

عنّ لى ذلك ؟ ولكن ماذنبى أنا ، وأنا لا أستطيع أن أعطيه من نفسى أكثر من الحنين المشفوع بالإقبال والتودد والمشاركة الوجدانية فى كل ما يتصل به من أمور الحياة ؟

ومع هذا فهل يمكن أن يقنع بذلك الحنين الودود شاب مثله يرى فىّ مناط آماله وأحلامه ؟ إذا كنت وأنا المرأة المتزوجة التى تنعم بكل ما تصبو إليه امرأة فى كنف زوج أريده خالصاً لى بدون ارتباط من جهتى وبدون مقابل ، فكيف أعيب عليه وهو الوحيد فى الحياة أن يملأ فراغ عمره بسناء أخريات ولو ليشبع غريزة رجولته المعطلة ؟ أم هل سيتنسك فى محرابى وينسى العالم وما فيه مكتفياً بالتطلع إلى محياى ؟ . . .

. . . وأحنقتنى هذه المجادلات العقيمة الناشبة فى أعماقى ، وأيقظت كوامن الغيرة فى نفسى فجعلت أعبث فى غل بالعاديات ثم كومت منها كومة من الأقراط الزجاجية والأساور والعقود كنت أعلم جيداً أننى لن ألبسها ؛ ثم نقدت الرجل المذهول الثمن الذى طلبه بغير مساومة ووضعتها فى حقيبتى وانصرفت .

وكأنما كانت نفسى اللوامة لى بالمرصاد :

– لك أن تمتلكى من هذه الجمادات ما شئت . فلن يضيرها أن تهمليها أو تستخدميها . . . . أما البشر فشىء آخر . إنهم لا يصلحون أدوات تسلية ومطايا للأهواء والنزوات . . . هذا ما يجب أن تتورع عنه على الأقل امرأة مثلك تزعم أن لها قلباً حانياً . . .

وتطلعت إلى ساعتى فى غيظ . فإذا الساعة قد قاربت الواحدة .

واليوم الأحد يوم عطلة المعهد . وزوجى سيحضر بعد ساعة تقريباً لالاقانى فى المشرب القريب لنتناول طعام الغداء هناك مع صديق .

وشعرت بملل شديد جعلنى أضيق بمرأى كل إنسان . . . حتى زوجى . وكنت قد سمعت يوماً ما من أحد الأصدقاء أن رغبة الإنسان تتحقق فوراً إذا ما أحس فى أعماقه بالتعطش لرؤية إنسان وتمنى مخلصاً لوراه . فهل يصدق هذا الزعم وتتحقق رغبتى الآن فأرى خورشيد أمامى . . . ليتها تتحقق !

ومرت دقائق ولم تتحقق رغبتى . ولم أر خورشيد بقامته الفارهة ووجهه الطفلى مقبلا على حيث جلست واجمة فى ركن المطعم ، وأمامى زوجى يتحدث بلا انقطاع ولا يفطن إلى الصديق وهو ينظر إلى بعينيه المنبعجتين نظرات هيام صريح . . .

وبدأت أنظر إليه فى فضول ممزوج بالدهشة كأنما أراه لأول مرة على حقيقته . فإذا ملامح غريبة التكوين سوقية فى مجموعها أقرب ما تكون إلى ملامح حمال فى محطة من محطات الأرياف !

يا إلهى : أكان حقاً هذا الصديق فى يوم من الأيام صاحب حظوة عندى حتى اتخذته بطلا لإحدى مغامراتى القديمة ؟ ما الذى استهوانى فيه حتى صنعت منه بطلا ؟ إن زوجى على حق فعلا إذ كان يقول لى كلما فطن لاهتمامى بالاستيلاء على شخص من هؤلاء : « كم لك من غرائب يا امرأة ! لك غرام بجميع الطرائف من الأشياء والأشخاص. ولكن ما الذى يعجبك فى هذا الشخص ؟ أنا أفهم اهتمامك بجمع التماثيل

ولكن هذا يا امرأة ليس تمثالا . إنه قالب طوب متخلف من أنقاض بيت ! »

ثم كان يراجع نفسه ويقول فى هدوء كأنه يحاضر فى فلسفة التاريخ عن امرأة كانت تعيش فى العصر البيزنطى مثلا وليس له بها أدنى علاقة شخصية : « . . . ولكن لابد يا امرأة أنك أنست فى هذا المخلوق شيئاً غريباً . فأنت لا تهتمين بالمنظر بل بما فى الداخل وتقفين عنده لتنبشيه وتتشمميه ! ومتى وجدته خاوياً كالعدم زهدت فيه وطرحته وراء ظهرك بغير مبالاة ! إنهم فى نظرك ليسوا بشراً ، بل ولا ذكوراً ... مجرد حفريات ! ».

وأخشى أن يكون على حق كل الحق . فأنا لم أجد فى حفرياتى حتى الآن المخلوق الذى يستهوينى ويقنع وجدانى بأنه رجل . فلم أصادف فى حياتى من آمنت برجولته واطمأننت إليها سوى عونى . كأنه صنع خصيصاً لى . وكأن الله الذى سوانى كان يعرف سلفاً مبلغ حاجتى إليه كى أعيش فحرص على أن يخلقه على صورته المعينة هذه قبل أن يخلقنى بسنوات ، وقال له كن لأميرة فكان ! إنه زوج « مريح » للغاية . . .

ونظرت إليه وهو يتكلم فى ذلاقة وذكاء ثم شعرت بالملل . . . ملالة البطر . فقرصنى الرقيب الرابض فى داخلى قرصة موجعة :

— أنت امرأة كلها متناقضات ! كيف تؤكدين أنه الرجل الوحيد فى حياتك ثم تسلكين هذا المسلك المعيب مع كل من تأنسين فيه لمحة

أو بارقة تستهويك ؟ أفلا تقدرين مبلغ ما فى سلوكك هذا من غبن وإيذاء للرجل الذى أحبك وترك لك حريتك كاملة ؟

وهزت نفسى الخبيثة كتفيها وقالت بتأفف :

— كفى اتزاناً أبله ! إنه زوج مريح جداً . ولكن أمالك عينان تبصرين بهما أنه مامن امرأة تقتنى زوجاً مريحاً للغاية حين تشترى أحذيتها ! أين هى المرأة التى تستطيب الراحة الكاملة ؟ إنها لن تحس بوجودها إلا حينما يكبلها شىء من الأشياء ، فتثبت نفسها بأن تتحدى القيد وتنطلق به كأنه غير موجود ! المرأة — أيها الحصيف — تجد نفسها فى هذه المعاناة ، وتفقد نفسها حين تخلو حياتها من شىء تعانيه .

— أتريدين أن تستبدلى به إذن ؟

— يا أحمق ؟ لابد لقميص النوم والخف أن يكونا مريحين . هذان فقط تستحب فيهما الراحة . ولا غناء عنهما . . ولكن المرأة لابد لها أن تتبرج . ولا غناء لها حين تتبرج . . .

— مفهوم ! . . . لابد لها أن تقتحم المتاعب ، ولا تتحرج !

٢٤

قال خورشيد وقد أوشك الدرس على الانتهاء وعيناه تحملقان فى ساعة معصمه : « يا إلهى ! كيف انتهى الدرس بهذه السرعة دون أن ندرى ؟ من لى بالهرب الآن من المعهد مختلقاً أى عذر كى أتخلص

من الشيكولاتة ! »

فنظرت إليه بدهشة وما زالت كلماته المختلطة ترن فى أذنى عن دهشته لانتهاء درسى بسرعة ، وقلت : « وهل يهرب الناس من الشيكولاتة ؟ اللهم إلا إذا كانت شيكولاتة مسهلة ! »

ولم يضحك بل غطت وجهه سحابة من الضيق وأشار بيده قائلا :

« ألعن والله من المسهل إنها محنة وعسر لا سهولة فيها ! »

فتعجبت لكلماته وقلت أستوضحه : « وكيف ذلك ؟ »

فتنهد وقال : « الدرس الذى يتلو درسك مباشرة مخصص منذ مدة وجيزة لفتاة فى التاسعة عشرة أو العشرين . لا أدرى بالضبط . ولم أشعر فى حياتى بثقل ظل إنسان كما شعرت بثقل ظل هذه الفتاة . ومع أننى شديد الولع بالنساء ، إلا أن هذه الفتاة تضجرنى بحيث أشعر أننى مقبل على سجن .

ما من مرة تأتى هذه الفتاة إلا وتحضر لى معها قطعة كبيرة جداً من الشيكولاتة . وفى كل مرة أحاول أن أرفض فتطرق برأسها إلى الأرض وتتساقط الدموع من عينيها . فأحس بغيظ ممزوج بالشفقة . ثم لا تلبث الشفقة أن تتغلب على الغيظ فآخذ منها الشيكولاتة لأضع حداً لهذا الموقف المائع !

فأيقنت أنه من ذلك الصنف من الرجال الذى ترغب نفسه عن المرأة المتدلهة فى حبه . وحمدت الله فى سرى لأننى وقفت منه باستمرار موقفاً جاداً . فحتى لو أيقنت من حبى له لما أفصحت له عن هذا

الحب إلا بعد أن أتأكد من تدلهه فى حبى !

وطردت هذه الأفكار المتسللة وابتسمت ابتسامة ماكرة وأنا أقول :

ـ تباً لكم أيها الرجال ! إذا أشعرتكم المرأة أنها تفنى فى حبكم أغضيتم عنها وتهكمتم بها واحتقرتموها وبذلتم كل ما فى وسعكم للهرب منها وأذقتموها مرارة الصد والهجر . أما المترفعة المتدللة التى تشقيكم بحبها فلها عندكم المكانة والحظوة . . .

فنظر إلىّ نظرة ذات مغزى وقال : « لا تكونى قاسية إلى هذا الحد يا مدام أميرة . ما الحب إن لم يكن تقارباً فى المشارب والأهواء قبل كل شىء ؟ »

فسألته متباهلة : وما قولك فى أن الحب لا يمكن أن يكون من طرف واحد . ولابد أن يستثير الحب الحب ! »

فأشرقت أساريره وقال : « إذا كان الأمر كما تقولين ، فيالها من بشارة تبعث الأمل وتضىء ظلمات حياتى ! »

فخفق قلبى وقلت متضاحكة بخبث : « أتعنى أنه سيأتى اليوم الذى تبادلها فيه عاطفتها وتتخلص من هذا الحرج المضنى الذى تعانيه الآن أمام كل قطعة شيكولاتة ؟ »

فأجابنى متخابثا كذلك : « ربما . ولم لا ؟ »

وعادت الحياة المشرقة من جديد إلى درس البيانو . وأحسست رغبة غلابة فى إيقاظ الوتر النائم . وقد زادتنى قصة الشيكولاتة تشبثاً بالتيقن من مكانتى عنده . وتحركت عوامل الغيرة تنهش قلبى من

مجرد إحساسي أن هناك من يمكن — ولو على احتمال ضعيف — أن تنتزعه مني : « إن معظم النار تأتي من مستصغر الشرر . وقد يكون شعورك نحوها الآن شعور الضيق والسأم . ثم ينقلب ذلك إلى حب قوى . . . »

فثبت عينيه فى عيني وقال : « وكيف يكون ذلك وأنا أكرهها ؟ »

فقلت بتؤدة :

— ستألفها بعد أن تتعود وجودها كل يوم . ثم تفتقد درسها وتدللها وشيكولاتتها إن غابت أو تخلفت يوماً . . . ثم يقع المحظور !

فزفر زفرة طويلة وقال : « لك منطق عجيب فى تكييف العواطف يا مدام أميرة . منطق أنا على يقين من أنك لا تؤمنين به بل تلقينه هكذا جزافاً . . . »

فثبت عيني فى عينيه وقلت فى تحد : « وما الذى يجبرك على أخذ الشيكولاتة منها إن كنت حقًّا لا تميل إليها » ؟

فقال بيأس زاد وجهه طفولة : « قلت لك مراراً إن فىّ ضعفاً شديداً من جهة النساء . وإن قلبي لا يطاوعني على إيلامها . بيد أني فى الوقت نفسه أريد أن أفهمها بجلاء أنني لا أشعر بأدنى ميل إليها . ولكن بطريقة لا تجرح شعورها . فهي على كل حال فتاة مسكينة . . . »

فهززت رأسي وقلت : « أرأيت ؟ إن الحنان هو الباب الذى يتسرب منه الحب . والفتاة تعلم أنك ذو قلب طيب . ولهذا تتصنع الحزن والألم والبكاء إلى أن ترق لها فتسيطر عليك ثم تتحكم فيك ! »

وشعرت بوخز وأنا أتصوره فى شباك فتاة أحبها وصرفته عني :

وصاح ذلك المتربص فى أعماقى :

ــ وما الذى يضيرك أيتها البلهاء؟ أليس الأفضل له أن يحب فتاة طيبة تسعده وتعفيه من التمرغ كل ليلة فى أحضان نساء مبتذلات ؟

ــ ومن قال إنه يتمرغ فى أحضان النساء المبتذلات أو غير المبتذلات ؟إنه عف النفس لا يمكن أن يفكر فى السقوط !

ــ أتخيل إليك حقاً أنه يعيش داخل إطار من صورتك الموهومة؟

ــ كلا بالطبع . ولكنى أعتقد أنه يتصرف بحكمة ولاينغمس فى الموبقات . . . .

ــ وماذا لو أحب وترك كل هذا العناء ؟

ــ كلا . إننى أفضل أن يعيش كما هو ولا يحب أحداً . لأن صورتى ستظل مسيطرة على حياته ما دامت حياته خالية من امرأة معينة تشغل باله . . .

وسمعت صوت خورشيد كأنما ينبعث من أعماقى : « ولو فرضنا أن رأيك كان صحيحاً . فأنا لن أتورط فى عاطفة لا أريدها باختيارى . فسوف أطلب إلى المدير أن يعفينى من درسها بعد أن أوضح له الموقف . . .»

وشعرت بخدر لذيذ يسرى فى أوصالى ، كذلك الذى يستشعره الإنسان بعد شوط طويل من العدو . وقلت من غير أن تنفرج شفتاى عن شيء سوى ابتسامة غامضة : « خورشيد لم يزل خالصاً لى وحدى . . . لم تشغل قلبه امرأة أخرى » .

٢٥

ــ مدام أميرة . مدام أميرة !

وتلفت إلى الخلف وأنا أخطو إلى حجرة الموسيقى فرأيت المدير يقفز من مكانه ويتدحرج على الأرض بقامته المفرطة فى القصر وصلعته اللامعة ، ثم يقف قبالتى وينحنى مسلماً فى أدب شديد ويقول :

ــ لا أدرى ما الذى أخر الأستاذ خورشيد اليوم . هذه أول مرة فى حياته يتخلف فيها عن الحضور من غير اعتذار ولو عن طريق التليفون . وكان المفروض أن يكون هنا منذ ساعة على الأقل لأن لديه درساً قبل درسك .

وكان هذا الرجل الضاحك الذى لم أره عابساً قط فى حالة من الكرب لم أرلها نظيراً . فسحنته مربدة وعينه تغمز بلا انقطاع . وهو غير مستقر فى وقفته ، وبين لحظة وأخرى ينظر إلى السلم فى قلق ظاهر .

وكأنما سرت منه إلىّ عدوى القلق فسألته : « ألم تتصل به تليفونيًّا » .

فقال ووجهه يزداد توتراً : « اتصلت ببيته منذ نصف الساعة فأخبرتنى والدته أنه خرج فى موعده المعتاد كل صباح . وسألتنى بدهشة ولهفة كيف لم يصل بعد ، فطمأنتها طبعاً وقلت لها لعل المواصلات

حالت بينه وبين الوصول فى موعده . وطلبت منى المسكينة أن أجعله يتصل بها بمجرد وصوله . ولا أدرى ماذا أفعل الآن ؟ »

فأجبته لأخفف عنه وطأة القلق : « لعل المواصلات فعلا هى التى عاقته . فكثيراً ما يقف الترام فى مكان لا يوجد به تليفون » .

فصاح الرجل فى ضيق واضح : كيف ذلك يا مدام أميرة وله الآن ساعتان فى الطريق وهو يخرج قبل موعد الدرس بساعة على الأقل ليضمن الوصول فى الوقت المناسب » . فبدأ شعور الأمومة يندلع فى كيانى حتى غطى على كل اعتبار آخر : « وما العمل الآن يا مسيو إلياس ؟ »

فعبثت أصابعه بالسماعة الدقيقة التى يستعين بها على عاهته وقال : « أخوف ما أخافه أن تتصل بى والدته الآن مرة ثانية فلا أدرى بماذا أجيبها ؟ أخشى أن تموت المسكينة من القلق والفزع .لا أدرى كيف أتصرف يامدام أميرة . لم يحدث من قبل أن تركنى فى مأزق كهذا منذ عمل معى ، لماذا فعلت ذلك يا خورشيد ؟ ! »

وتفرست فى وجه الرجل فإذا وجه أب ملتاع . وتحركت عواطفى نحو هذا الإنسان الذى كنت أهزأ به وأتجنبه فإذا هو قلب كبير ونفس صافية . وأكبرت فيه هذا الشعور الحانى .

وفجأة شق السكون الذى خيم علينا رنين جرس التليفون فانتفض المسيو إلياس من مكانه وهو يصيح :

— ماذا أصنع وبماذا أجيبها ؟

وتسمرت رجلاى فى الأرض والتصق لسانى بحلقى . فالموقف لا يسمح بالمغالطة . والأم تريد أن تعرف مصير ابنها . وهو لا يدرى من أمره شيئاً . . . وسمعته يجيب بآخر ما كان يخطر ببالى من كلمات :

ــ كيف ؟ . . . أين ؟ . . . وكيف حاله الآن ؟

يا إلهى ! هل أصابه مكروه ؟

وغامت الدنيا فى عينى وأحسست بالكائنات تدور من حولى ورجلى لا تقويان على حملى . هل إصابته خطيرة ؟ كلا يارب ! لاتدعه يموت ! واستندت إلى الحائط وأنا أحملق فى ظهر المدير الذى كأنما أحس بما أعانيه فالتفت ناحيتى وأشار بيده ليطمئننى وسمعته يقول : « دعيه يكلمنى من فضلك . . . »

وأخرجنى من اضطرابى صوت المدير : « الحمد لله على سلامتك . . . خذ حظلك الكامل من الراحة وعد إلينا بخير وصحة وعافية . . . »

ووضع الرجل المسماع ثم استدار نحوى : « لقد أغمى على المسكين وهو فى الأتوبيس فأخذوه إلى أقرب صيدلية . وتطوع طبيب فأعطاه حقنة مقوية ولبث هناك فترة ثم ركب سيارة أجرة إلى البيت . . . وقد أعرب عن أسفه الشديد لتجشمك الحضور اليوم على غير طائل » .

فقلت فى دهشة شديدة :

ــ وهل من المعتاد أن يحدث له هذا الإغماء ؟

ــ كلا . لم يقع له مثل هذا الحادث من قبل وأعتقد أن سببه شدة الإرهاق . فهو يرهق نفسه بالعمل كثيراً فى هذه الأيام . وكلما حذرته

هز كتفيه مستهيناً كأنه يعتقد أن صحته من حديد . . .

وهز الشيخ كتفيه ثم ومضت فى عينه نظرة التواطؤ وقال :

– شباب يا هانم . . . شباب يا مدام أميرة !

وافتر فمه عن أسنان صفراء نخرها السوس . . .

ولم يبق أمامى إلا الانصراف . وبعد أن خطوت خطوتين نحو السلم عدت فجأة لأسأله : « هل من المنتظر أن يتمكن الأستاذ خورشيد من الحضور غداً ؟ »

فتفرس فى وجهى قليلا . ولا أدرى لماذا شعرت بالخجل تحت وقع نظراته . لعله الشوق الذى كنت أكابده وتلهفى على رؤية خورشيد بأسرع وقت . بيد أنى استطعت أن أسدل على وجهى القناع المعهود من عدم المبالاة ، وأخيراً قال المدير فى شرود : « الحق أننى لا أدرى يا مداد أميرة . ولكنى سأذهب على كل حال لزيارته فى المساء وسأتصل بك غداً صباحاً فى نحو الساعة التاسعة . . . »

فهززت رأسى وقلت وأنا فى طريقى إلى السلم :

– أرجو أن تبلغه سلامى وتمنياتى له بالشفاء العاجل . . .

وكانت سيارتى فى ذلك اليوم عند الميكانيكى فتوجهت إلى البيت سيراً على قدمى. والأفكار السوداء تناوشنى من كل جانب . وكأننى أمشى فى صحراء قاحلة ليس بها إنسان :

ماذا دهى هذا العملاق الصغير الذى كان يشع صحة وحيوية وبهاء ؟ وما إرهاق العمل بالنسبة لشاب مثله فى ريعان شبابه ؟ وهل التعب هو

الذى هد كيانه بهذه الصورة ؟ مستحيل ! . . .

إننى مجرمة . آثمة أستحق كل عذاب . أستحق الجلد بالسياط . أستحق كل إهانة وازدراء ! لماذا عبثت بهذا القلب البكر؟ لماذا أظهرت له حنانى ولم أدفنه فى أعماق ؟ لماذا تركت الأمل يتسلل إلى قلبه الغض بدون شفقة أو رحمة ؟ !

يا إلهى ! ماذا أفعل الآن ؟ كيف أتصرف لأعيد إلى عينيه الجميلتين جمال الحياة وأزيل عن قلبه وطأة هذا الشعور المضنى ؟

وارتفع صوت من أعماق يهدهد أعصابى المتوترة :

– ولماذا تقحمين نفسك فيما أصابه ؟ أليس من الجائز أن يكون الإرهاق هو الذى أدى به فعلا إلى الإغماء ؟ وماذنبك أنت إذا أحبك شاب أو أحبك شباب العالم أجمع ما دام فيك ما يجذبهم إليك ؟

– ليس يعنينى أن يحبنى شباب العالم أجمع .أو لا يحبونى . إن الذى يعنينى فقط أن أرى خورشيد سعيداً لا يعذبه شىء . كم يؤلمنى ويحز فى نفسى أنى لم أعد أرى تلك الابتسامة المشرقة والضحكة الرنانة التى كان يطلقها فى مرح وسعادة يوم بدأت الدروس على يديه . إن الموت أهون عندى من أن أراه معذباً بسببى . . .

– أتفضلين أن تريه معذباً بسبب غيرك إذن ؟

– كلا ! لا بسببى ولا بسبب أى إنسان !

– تعنين ولا بسبب أى امرأة . أليس كذلك ؟

– وأين هى التى تستحقه أو تستحق أن يتعذب بسببها ؟ إننى

أريده مرحاً طلقاً متفتحاً للحياة . . .

وقضيت يوماً حزيناً حاولت أن أدارى فيه آلامى عن عونى . ولكن أنّى لى ذلك وعينه اللماحة لا يفوتها شىء .

وسألنى وهو يربت على ظهرى ويرفع ذقنى بإصبعه « لست اليوم على عادتك . ماذا بك ؟ »

فأجبته وأنا أضع يدى على جانبى رأسى : « ليس بى شىء . صداع » .

فظهر على وجهه الاهتمام الشديد شأنه كلما شعر بأى عارض ينتابنى .

— ولماذا خرجت اليوم يا عزيزتى ؟ كان الأفضل أن تلزمى الفراش . أو لعل درس اليوم هو الذى أتعبك ؟

فقلت وأنا أجاهد باستماتة حتى لا يبدو على صوتى أثر من الانفعال الدائر فى أعماقى : « لم أتلق الدرس اليوم . فقد أصيب خورشيد بإغماء وهو فى طريقه إلى المعهد وعاد إلى البيت . . . »

فارتفع حاجباه ارتفاعاً يسيراً جداً وسألنى : « إغماء ؟ لشاب فى سنه ؟ »

وحملق فى وجهى برهة ثم هز رأسه وذهب فجاءنى بقرص من الأسبيرين وكوب ماء . وبعد أن ابتلعت القرص وأفرغت الكوب فى جوفى عاد إلى هز رأسه وقال : « شفاه الله . وشفى كل مريض . . . »

وأحسست وراء كلماته مغزى خفياً ولكنى تغابيت . وسمعته بعد

قليل يتمثل ببيت من الشعر كعادته كلما أثار اهتمامه موقف :

لكل داء دواء يستطب له   إلا الحماقة أعيت من يداويها !

فنظرت إليه كالمتسائلة وأنا واثقة مما يعنيه ، فقطب حاجبيه قليلا وهو يمسح على شعرى فى رفق بالغ وقال بصوت لايبدو فيه أدنى أثر للاكتراث :

– إنه شاب عاقل على حداثة سنه . ولا ريب أن شبابه سيتغلب على ما أصابه من علة . فالشباب تعوض قوته كل شىء . إلا الحماقة يا امرأة !

ونظر نظرة تجمع بين التحذير والهزل ، ثم قبل طرف أنفى واحتضننى :

– يا أحكم حمقاء ! ما أجملك وأنت تعانين من الصداع !

وقضينا السهرة فى البيت . عونى يقرأ وأنا أحاول أن أقرأ ولكن ذهنى لا يستوعب الكلمات . وأخيراً وضعت حدا لهواجسى وشرودى وتناولت حبة منومة ثم نمت نوماً عميقاً تعكره الأحلام المزعجة المضطربة التى لم أميز منها حرفاً .

وفتحت عينى فى الصباح على تسع دقات من ساعتنا الكبيرة . لابد أن عونى توجه إلى عمله . ودق قلبى دقات متوالية ، فهذا موعدى مع المدير .

ترى هل يحضر اليوم ؟ كيف أصبح ؟

وشق الصمت الرنين الذى انتظره . وتحشرج صوتى وأنا أتكلم فى المسماع . وأتانى صوت المدير :

– صباح الخير يا مدام أميرة . . . يؤسفنى أن الأستاذ خورشيد

سيتخلف عن الحضور اليوم أيضاً، فقد أصرت والدته على أن يستجم هذا النهار . ولكنه يؤكد لى أنه سيكون فى المعهد غداً . فنرجو أن نراك .

ووضعت المسماع وتركت يدى مستقرة فوقه فى همود .

يوم آخر سوف لا أراه فيه .

وشعرت بحنين قاهر إلى وجهه . كيف يبدو وقد شاب المرض نضرته ؟ ولماذا لا أطلبه فى بيته وأستفسر عن صحته ؟ . . ورفعت المسماع ولكن يدى جمدت فوق القرص : ماذا عساه يقول ؟ وعلى أى محمل سيأخذ سؤالى عنه ؟ وما الذى سيترتب على هذا السؤال ؟

ووجدتنى على غير عادتى فى ارتجال أفعالى بغير روية . ورحت أفند الموقف وأتخيلنى أنبش جرحاً فى قلبه كاد يندمل وأحيي أملا كاد يموت. وثارت كبريائى وقد تخيلته يحسبنى أترضاه وقد رأيت انصرافه عنى !

وأخيراً رفعت يدى عن المسماع وكأنها تحمل لثقل المقاومة طناً من الحديد . ودلفت إلى الحمام قبل أن أتراجع عن عزمى وأخضع للحنين المشبوب فى أعماقى ، وتركت للماء البارد أن يهدئ من ثوران دماغى وتأجج دمى . . . .

٢٦

صعدت السلم فى قفزات ثم وقفت برهة قرب نهايته لأسترد أنفاسى وأتمالك جيشان نفسى . وألقيت تحية الصباح على المدير الذى كان

يتصدر البهو وراء المكتب فوقف وأومأ برأسه وأشار بيده إشارة تدل على أنه فى حجرة الموسيقى . . .

ووجدت الباب « مواربا » فدفعته برفق ، وأجلت عينى فى الحجرة ولكنه لم يكن هناك . كان البيانو مفتوحاً وفوقه النوتة التى أتلقن فيها درسى . والحجرة يخيم عليها السكون . وباب الشرفة مقفل . . .

وأفلت منى زمام دقات قلبى . . . . أين هو؟ أين تراه ذهب وأنا أشوق ما أكون للتطلع إلى وجهه . . .

وسمعت الباب يغلق من خلفى برفق فاستدرت بلهفة لم أفطن للسيطرة عليها فكدت أصطدم به . . .

ووجدت يده ممدودة فتلقفتها بيدى الممدودتين معاً ورفعت عينى إلى وجهه فتلاقت أعيننا . وتشابكت كذلك التشابك الوثيق بين أكفنا حتى كادت الأنامل أن تتوشج . وارتجف قلبى للشحوب البادى على جبينه ، لم تذهب به نضرة الابتسامة وتألق السعادة الطاغية فى وميض عينيه .

ـ أنت هنا . . . ؟

خرجت من فى فى تنهد وفرح . كأنما الكلمات تلقى برأسها على صدره وتمرغ صفحة خديها فى كتفه ونحره لتستيقن من أنه عاد . وأنه هنا . . .

واحمر وجهه احمراراً شديداً . فتنبهت إلى أن الحاجز الشفاف

الذى كان دائماً بيننا قد سقط . انهار . تبخر تحت حرارة لهفتنا على اللقاء .

وجذبت فى رفق يدى من يده . فأطلقهما وتراجعت إلى الخلف فكنت أكثر تمكناً من ملء عينى من قامته ومحياه . ورفت نظراتى على خديه الطفليين اللذين زاد الخجل نمشهما وضوحاً : « الحمد لله على السلامة . . . كيف أنت الآن ؟»

فجمع قبضتيه وحركهما أمام صدره وقال فى مرح يدارى به خجله اللطيف : « بخير حال . ألف شكر لك » .

ورأيت شفتيه ترتجفان ارتجافاً واضحاً . وتحرك قلبى : أهو ارتجاف الوهن أم ارتجاف الانفعال والجيشان الذى يعانى من كبحه والسيطرة عليه ؟

وبدأت يداى ترتجفان . إلى أين توشك أن تقودنا عزائمنا المنهارة ؟

وحولت نظراتى إلى البيانو . ثم تحركت بسرعة وجلست إليه . وتحرك ببطء وأصابعه تتخلل شعره . وسمعت صوته وهو يحاول أن يدخل فى الإطار الجديد ليقيم سداً أمام دفعات عواطفه المتراقصة على شفتيه :

« طال بنا هجر هذا الصديق . ولكننا سنعوض ما فات . . . »

ورفعت وجهى إليه بابتسامة تجمع بين الموافقة والإعجاب بصموده ولباقته فى تحويل مجرى المشاعر والحديث .

ثم رددت وجهى إلى المفاتيح البيضاء والسوداء . واندفعت أصابعى تعصف بها فى عزف سريع جامح محموم . وكلما زأرت الأنغام العالية المتداخلة

ترددت الذبذبات فى خلايا جسمى الذى أجد مشقة فى إبقائه مستقراً على المقعد الدائرى . . .

وأحسست بيده تلمس كتفى فى رفق فارتجفت كل خلية فى جسمى وتوقفت عن الحركة فى لحظة انتظار وتطلع . والتفت برأسى أواجهه . فإذا ابتسامة هادئة تطل من عينيه فيها تهم وإدراك ومواساة . وفيها أمل وفرح وتطلع :

— رويدك قليلا . . . المعزف يئن تحت أصابعك . خففى عن المسكين . . .

فأحسست إحساس من ضبطت متلبسة . وضحكت لأدارى ارتباكى ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أشعر بضيق لأنه أدرك السر ، بل شعرت بارتياح أتاح لى أن أكون أوفى حظاً من الهدوء وأنا أستأنف العزف .

ولاحظت أن أحد المفاتيح لا يعطى النغمة جيداً فاندفع إلى ذهنى على الفور ذلك الوتر الذى سكت تماماً فى معزفى . فرفعت عينى إلى وجهه وقلت : تذكرت الآن شيئاً كنت أنساه فى كل مرة ولا أتذكره إلا بعد أن أعود إلى البيت . . . . أرجو أن تدلنى على رجل تثق به كى يصلح لى مفتاحاً أصابه العطب فى معزفى بالمنزل » .

فنظر إلىّ بجد كمن يستعرض فى ذاكرته من يعرفهم من الصناع ثم قال :

— أتجدين بأساً فى أن أراه أنا أولا . . . . فقد يكون العطب يسيراً أستطيع أن أصلحه بنفسى ؟

ـ لا أجد بأسا طبعاً . . .

فهز رأسه بأسف وقال :

ـ ولكن ليس اليوم . فاليوم لدى درس بعد درسك . ولا أظن أنك تستطيعين الانتظار ساعة . أما غداً ، فليس عندى فى الصباح سوى درسك .

فقلت بعدم اكتراث :

ـ كلا . لا تتعب نفسك اليوم . وأنت لم تزل مجهداً . وغداً لناظره قريب .

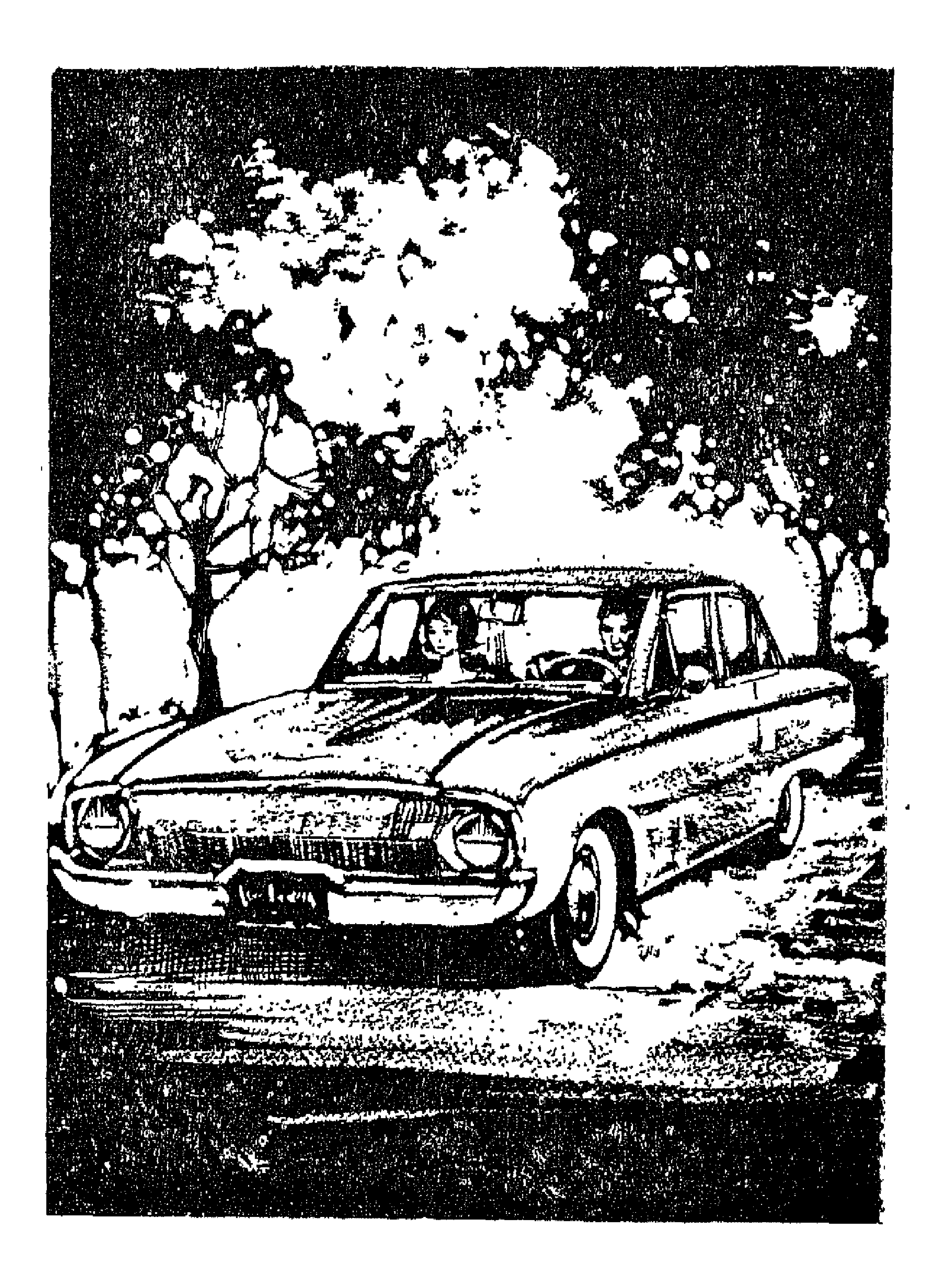
فهز رأسه كمن يقول إنك على حق .

وعدت إلى العزف وأنا أهدأ ما أكون نفساً . كان السلام والأمن يشملانى ويشملاه وأنا أعزف وهو يصغى . لا نفكر فى الوقت ولا نتمنى شيئاً وراء ذلك الهدوء . أحسست فى تلك اللحظة أنى وصلت إلى ذروة رغائبى ولم تبق لنفسى حاجة تطلبها وراء تلك الطمأنينة المتشحة بأفواف المودة .

وقطع رنين الانتهاء تلك اللحظة المختلسة من صفاء الأبد . فنهضت وأنا أتنهد ومددت له يدى فى استسلام تشوبه حسرة فضغط عليها ضغطة حانية وقال فى صوت واثق مطمئن مستبشر : « إلى غد . . . »

وأجبته وأنا أهز رأسى بصوت أشد استبشاراً « إلى غد . . . »

وهبطت السلم المعتم وأنا أجد مشقة فى تبين موطئ قدمى .



٢٧

وأمام عجلة القيادة وجدت فى نفسى ميلا إلى القفز والنط وعدم الاستقرار والانشغال بهذه الآلة التى تحتاج إلى كل انتباهى . وكدت أنزل . وإن كنت لا أدرى ماذا أصنع وأين أتجه . وحانت منى نظرة إلى مرآة السيارة ، وتطلعت إلى وجهى وعينى . . . ولم أر نفسى بمثل هذا الجمال من قبل . كأننى العروس الصاعدة من البرية مغلفة بأشعة الفجر فى نشيد إنشاد ذلك العاشق الكبير . . . سليمان !

هل كان جميلا هكذا . . سليمان ؟

وأحسست بوجهى يحمر . وضغطت على زر المحرك ، وانطلقت وفى عزمى أن أجوب أطراف الضاحية طويلا قبل أن أعود إلى البيت .

ولم أسر أكثر من مائتى متر ، وعند مفرق الطرق اضطررت للتمهل كى أنحرف إلى اليسار ، فإذا بالسيارة ترتفع فى الهواء من الخلف ، ثم تستقر وكأنها هبطت عن مستواها ولم تعد لها إطارات تخف بها عن سطح الأرض الصلد الذى ارتطمت به . . . وأوقفت المحرك ، وأسرعت فنزلت من السيارة وتلفت أتفحص جانبيها ومؤخرها ، فلم أر بها شيئاً ، ورأيت خلفى سيارة سوداء كبيرة ، وقد نزل منها شابان جعلا ينظران إلى دهشتى ويضحكان فى رقاعة . . . فخطر ببالى أن سيارتهما ارتطمت بسيارتى من الخلف . وصدق حدسى : فقد وجدت المصباحين الخلفيين

الحمراوين مكسورين . . . فصحت أسأل الشابين : لماذا فعلتما ذلك . . . . ؟

فأجاب أحدهما ببرود : « حصل . . . »

وأحسست بدمى يغلى . . . ورأيت الناس يتكاثرون حولنا فى فضول : حادث وفيه سيدة تسوق سيارة ... ورأيت بين المتفرجين قرداتياً ، ترك صناعة الاستعراض ووقف مع الناس يستعرضنى . . . وأقبل شرطى المرور يسألنى : « لقد رأيت كل شىء بنفسى ياسيدتى . . . فماذا تطلبين أن أصنع ؟ . . »

وكأنى أدرى ماذا أريده أن يصنع وأنا فى ذلك الموقف مشتتة الذهن . . .

وقطع الشرطى الصمت فطلب من سائق السيارة السوداء رخصة القيادة . وأخذ رخصتى . . وبدأت أفكر بشىء من الترتيب الذهنى : ما نتيجة الذهاب إلى مركز الشرطة سوى استمرار الموقف السخيف والاحتكاك بمزيد من السخافات فى هذا النهار الجميل . . .

فليذهبا إلى الشيطان وليتركا لى يومى السعيد . . .

وقلت للشرطى إننى أريد الانصراف ، « أستعيض » الله فى التلف . وجلست أمام عجلة القيادة ، وضغطت على زر المحرك ، ولكنه أبى أن يتحرك . وبدأ « شياطين الشارع » يتنادون : « زقة للنبى يا جدعان » . . . . !

فاستشاط غضبي وصرخت أنهاهم عن « الزق » . فما أسخف

هذا، وتقدم شاب يعرض على فحص السيارة. وأوشكت أن أنهاه أيضاً فى غيظ شديد ، وأنا أحاول تذكر رقم تليفون الميكانيكى . . . ، وإذا صوت ينادى اسمى : ماذا حدث يا مدام أميرة ؟ . . . .

ونظرت وأنا أكذب أذنى . . . . إنه خورشيد !

وشرحت له الموقف فى كلمات . فطلب منى أن أتنحى عن عجلة القيادة . . ثم جلس مكانى . وفى براعة استطاع أن يدير المحرك الذى كان البنزين قد « هرب » منه لوقوفى المفاجئ ، فلما ضغط على المضخة بقدمه جملة مرات ، انسابت السيارة وسط تهليل « شياطين الشارع » .

وهز خورشيد رأسه ، وهو ينظر نحوى باسماً : « أولاد حرام . . . »

ورأى الاضطراب الشديد من أثر الموقف مرتسماً على وجهى ، وأصابعى ترتعد من الغيظ . . . وانطلق السباب من فمى . . . . فابتسم ابتسامة مهونة رفهت عنى ، وقلت له : « لا أدرى ماذا كنت صانعة لولاك . . . ولكن كيف رأيتنى ؟ . . . »

فمد يده وربت على ركبتى . . . ولم أتنبه لتلك الحركة فى حينها . لأنها بدرت منه بصورة طبيعية جداً ، وهو يقول بصوت دافق بالحنان الصادق : « اهدئى . لقد انتهى كل شىء بسلام . . . لم تحضر صاحبتنا فتاة الشيكولاتة . . ظنتنى مريضاً ، فنزلت لأركب الترام من المحطة عند مفرق الطرق . . . ورأيت الزحام ، فجئت أستطلع الأمر ، ورأيتك يا مدام أميرة . . . »

وتمهل فى قيادته قليلا، ثم استطرد ويده على ركبتى برفق شديد:

« أراك مضطربة . لا أظن من المستحسن أن تقودى بنفسك . دليني على الطريق وأنا أذهب بك إلى البيت ، وننتهز الفرصة فأصلح البيانو . . . أظنه بيانو صاحب كرامات ، صنع كل هذا كى لا يبقى يوماً آخر بغير إصلاح ! »

فضحكت من كل قلبي وقلت وأنا أتطلع إلى وجهه الطلق :

« أمصمم أنت على إصلاحه اليوم ؟ . . ألا تشعر بتعب ؟ »

فضحكت عيناه وهو يكسر جفنيه فى نظرة عتاب وقال : « لم أعد أشعر بأدنى تعب يا مدام أميرة . . . »

وضحكت . . . واحمر وجهى قليلا ولم أستطع أن أتكلم . . كنت فرحانة . . . وأشرت إلى الطريق ، وانطلقنا نحو البيت .

ودخلت البيت وهو فى إثرى ، وناديت « حسن » ، ولكن عاد الصدى إلىّ بغير جواب ، فقلت بغيظ : هذا الوغد ! داؤه هذا المعسل الذى لا يسلوه ساعة . كلما وجد فرصة ذهب إلى المقهى ليدخنه !

فصاح من خلفى : « وما حاجتنا إلى حسن يا مدام أميرة . أرنى المعزف . . . »

وأدخلته حجرة الموسيقى ، ودعوته للجلوس على الأريكة العريضة الوثيرة ريثما أحضر له شراباً مثلجاً . . .

ووجدت الثلاجة فارغة من الأشربة ، فأسرعت أحضر من الصالون صندوق الشيكولاتة . . .

وحينما دخلت عليه الحجرة لم أجده على الأريكة ، فتلفت ورأيته قد خلع سترته وشمر كمى قميصه واختفى وراء البيانو يفحصه ، وأخذت أعتذر له وأنا أنظر ضاحكة إلى وجهه المنهمك فى العمل ، لأنى لم أجد شراباً مثلجاً . . .

وعجبت للتغير الذى صنعه خلع السترة فى هيئته . . . ما أقربه الآن إلى الطفولة ! . . .

وقدمت إليه صندوق الشيكولاتة ، وأنا أقول له وأنظر إليه نظرة عابثة : « أرجو ألا تكره هذه الشيكولاتة أيضاً ! . . . »

فنظر إلىّ بعتاب ، واحمر وجهه ، وامتد الارتباك إلى أصابعه وهو يتناول قطعة من الصندوق ، فوقعت منه على الأرض وتدحرجت تحت البيانو . . . وإذا به يأتى بدون روية حركة من حركات الطفولة الصميمة : ركع على الأرض وراح يتحسس بيده تحت المعزف ، وهو يكاد ينبطح كى ينظر بعينه أين ذهبت الحلوى الهاربة. . . .

وصحت أنهاه ويدى على كتفه لأستنهضه :

— دعها وخذ سواها . . . ما هذا الذى تصنع ؟ . . .

— وجدتها ! . . . .

هتف بها فى فرحة طفلية منطلقة ، كأنه فى الخامسة لم يتخطها يوماً واحداً ، ورفع وجهه نحوى بالنظرة الجذلانة وهو يرينى القطعة الغالية فى يده . . .

ولم أتمالك نفسى . ولعل قصره وهو راكع جعله صورة كاملة

لقامة الطفولة الضاحكة ، فهجمت على هذا الوجه الضاحك البرىء ، وأمسكت بعارضيه وأنا أجذب فى رفق خصلة من شعره الأشقر .

وانتصبت واقفة وقد استراحت أمومتى المستثارة . ولم يخطر ببالى شىء سوى هذا . . .

ولكن الطفل نهض فاستوى أمامى فوق جسم عملاق ، وتطلعت إلىّ عيناه اللامعتان بالفرح المجنون. . . وانطلقت الدهشة الذاهلة من ملامح وجهه وفمه المفتوح . . . كل شىء فيه كان يصيح من غير أن يتكلم :

ــ هل حقاً ؟ . . . أنا لم أكن أصدق . . .

وبدا صورة كاملة للطفل الذى طال نهى أمه له عن كعكة شهية ، فطوى اشتياقه لها وقطع كل أمل وتفكير فى الحصول عليها . . . وإذا بها فجأة تضعها بتمامها بين يديه. . . .

ومن بين ضباب الدموع رأيت ما رأيته ذات يوم فى حديقة عامة ، فى عصر يوم صائف : طفل يصيح جوعاً ، ويدير فمه بحثاً عن ثدى ليس له وجود ، وهو يتوسد ذراعى خادمة سمراء تضيق به . . . . وسيدة تقف بها فى ملاءة سوداء وتنظر وتتوجع ، والخادمة تفضى إليها بشىء لم أسمعه من مكانى البعيد . . . وجلست السيدة عابرة السبيل على الأرض ، وتناولت الطفل الجائع ، وألقمته ثدياً . والطفل الجائع اللهفان يدور بفمه لا يدرى الموضع أين هو . . . ومدت السيدة يدها

ووضعت الحلمة فى الفم الوردى الصغير المتلهف وسرت القشعريرة فى جسدى ، وهممت أن أنهض وأقبل رأس الأم المجهولة . . .

. . . وكان رقيقاً . . . فطناً . . . لم يتكلم ، ولم يستأذن . . . بل تسلل فى سكون ، وأغلق الباب من خلفه . . .

وعلى صوت الباب الخارجى وهو يغلقه فتحت عينى ، وأصغيت لوقع أقدامه وهو يهبط السلم . . . إلى أن تلاشت فى الصمت الرائن على البيت .

٢٨

ودرت بنظراتى فى أرجاء الحجرة . . . ورأيت البيانو مفتوحاً كما تركه . ورائحة خفيفة فى هواء الحجرة تذكرنى بأنه كان هنا منذ هنيهة . . .

سؤال يجب أن يسأل فعلا : هل حدث هذا حقاً . . ؟ . . . أو هو حلم . . ؟

سؤال لا جواب حاسم عليه . . . فليس فيما حدث كله دليل واحد على أنه شىء معقول أن يحدث !

ولكن كان هناك البيانو المفتوح : شاهداً لا يمكن تكذيبه . . .

وسمعت صوت الباب الخارجى يفتح . . . باب المطبخ ، وبحركة لا إرادية جلست وأخذت أسوى ثيابى وشعرى ، فى لهفة فازعة ، وقد أخذ قلبى يدق . . . لأن عيناً ستقع على محياى . . . .

كنت أعلم يقيناً أنه ليس سوى حسن ، طباخنا النوبي الوفي الغبي الكسول . ومع هذا فزعت . . . وكان شعور الخوف من نظرات أي إنسان شعوراً جديداً علىّ كل الجدة . . .

ولكن حسن ليس وحده الذي كان سيعود من الخارج . . .

« هو » أيضاً سيعود ... لابد عائد . . . وله نظرات ليست كنظرات حسن التي لا ترى شيئاً .

واعتصرت يد خفية قلبي . وشل تفكيري إلا من مسألة واحدة : نظرات عوني . كيف يراني ؟ ماذا يظن ؟ ماذا يجول بخاطره ؟

وأحسست بانكماش . وانقبضت جميع عضلاتي ، كأنها تريد أن تلفظ كل لمسة وقعت عليها . . .

وفجأة كاد الصداع يقصم دماغي ويفلقه نصفين .

ولم أناد حسن . بل ذهبت بنفسي وتناولت قرصاً من الأسبيرين في حجرة النوم . . . وحانت مني نظرة إلى وجهي في مرآة مائدة الزينة ، فرأيت الشرود واضحاً في عيني وملامح وجهي . . . يكاد يقرأ الناظر فيه لأول وهلة سطور القصة كاملة . . .

لم يكن ندماً . كلا . كان حيرة . كان فزعاً . كان ذهولا . . . كان عدم تصديق ! كأنني أمام عزيز مات بالسكتة وهو في أوج الصحة والشباب . . .

وتخطى نظري صفحة وجهي في المرآة إلى الفراش المزدوج من خلفه ... وغطيت وجهي بيدي . . . وأحسست أن الدم ترك جسمي كله وصعد إلى

دماغى حتى أوشك أن ينفجر . . .

وارتميت . . . ارتميت على الفراش المزدوج ، ودفنت وجهى فى الوسائد . ولكن المكان نبا بى... أحسست ناراً تأكل كل أنملة فى جسدى. أحسست أن أحشائى تحترق . . .

واندفعت نحو الحمام . . .

وخلعت ثيابى بسرعة ، ودخلت تحت الرشاش . . .

ولم أطق النظر إلى جسمى العارى الذى كنت لا أمل النظر إليه وهو يتثنى فى حيوية ورشاقة تحت حبات الماء التى تتجمع كحبات اللؤلؤ فوقه، ثم تتلاشى لتحل حبات أخرى من اللؤلؤ مكانها . . . .

وأغمضت عينى ، وتركت نفسى لإحساس الماء المتدفق فى الظلام برهة طويلة . . . طويلة جداً . كان أطول حمام أخذته فى حياتى . . . إلى أن تعبت عضلاتى من الوقوف تحت الماء ، فجففت جسمى وأنا لا أنظر إليه ، ثم أسرعت فى معطف الحمام إلى حجرتى ، وارتديت ثياباً نظيفة . . . لم تلمسها إلا صفحة المكواة . . .

وجلست أمام المرآة ، وبملامح قاسية أخذت أضع الكريم والمساحيق على وجهى ، وكأنى أنظر إلى تمثال عهد إلىّ بإعداده للعرض . . .

ونهضت إلى الثلاجة لأشرب ماء بارداً ، لأن حلقى كان جافاً ، فيه مرارة . . .

ولكن المرارة لم تذهب . والجفاف لم يلبث أن عاد . والصداع

مرابط متشبث بموقعه الخطير . . .

ورقدت على الفراش ، وثبت نظراتى فى السقف الأبيض ، من غير أن أتبين شيئاً سوى صفحته الناصعة المتشابهة . . . كنت أحملق فى الفراغ ، لا فى شيء معين . . .

وزفرت بعد حين زفرة لا أظنها خرجت من أعماق وجدانى ، بل من أعماق رئتين ثقل عليهما التوتر العصبي إلى حد الإرهاق ، وتعبت عينى من التحديق فى مكان واحد ، فتقلبت على جنبي الأيسر ، ونظرت إلى الركن . إلى المصباح الصغير الساهر فوق الباب . . .

وعند ركن السقف الأبيض رأيت شيئاً رمادياً داكناً يتحرك : رأيت عنكبوتاً صغيراً يدب بخفة ، ويرسل أول خيوطه لينسج هناك بيتاً له . . .

وتملكتنى الدهشة والغضب . ما أشد إهمال حسن ! عنكبوت فى سقف حجرة النوم ، يشوب بياضه الناصع بخيوط بيته القاتمة ؟ . . . يالها من مهزلة !

وهممت أن أناديه ليقتله . . . ثم لفت نظرى حجمه الصغير . . . . إنه يستقبل الحياة . . . ويطلبها فى قوة وثقة حيثما وجدها . . . فى سقفى أو سقف سواى . فلابد أن يعيش ، لأن الحياة تضج فى أعماقه وتستحثه . . .

وتقلص شيء فى أحشائى . . . . ووخزنى وخزة واضحة . . . ولكنى قمت . . . وناديت حسن فى غيظ ، ووقفت فى ثبات حازم

أرقبه وهو يقضى على الحيوان الصغير ويحمله بعيداً عن سقف حجرة نومى الناصع البياض . . .

وعندما أغلق حسن الباب ، وعدت للرقاد ، وجدت وطأة الصداع قد خفت قليلا . . . وسمح لى – من غير أن أشعر – بلحظة إغفاء . . .

. . . . وشعرت بيد على جبينى ، وفتحت عينى مذعورة . . . فقد كنت أحلم بالعنكبوت الصغير . . .

ورأيت أمامى عونى ، منحنياً فوقى ، ويده تجس جبهتى فى حنان وقلق . . .

وهاله الذعر الذى ارتسم فى عينى المحملقتين . . . ولم ير الشحوب فى وجنتى . . . . لأن النوم كان قد ضرجهما بحمرة قانية :

– لا تفزعى هكذا . . . هذا أنا يا حبيبتى . . . . ماذا بك ؟ . . .

– . . . . كنت أحلم . . . !

وطوقت عنقه بذراعى . . . . وأنا راقدة ، فضمنى إليه وراح يهدهدنى كالطفلة . . . كما هدهدنى كل يوم من أيام أعوامنا السبعة عشر . . . . وقلت وفمى مدفون فى صدره :

– أف . . . أف . . . من الصداع !

فتخلص من عناقى وحدق فى وجهى بقلق :

– ماذا بك يا حبيبتى . . . ؟

– أظنها أعصابى . . .

وقطب حاجبيه فى تساؤل صامت . لأنه لم يدر ماذا يقول . . .

فقلت له وأنا أثبت عينى فى وجهه بكل مظاهر البراءة المستقيمة التى مارست بها نظراتى إلى وجهه منذ عرفته ، وقصصت عليه قصة الحادث الهين الذى وقع لسيارتى . . . وكيف لم يتمخض إلا عن كسر مصباحها الخلفى . . .

ــ الحمد لله يا حبيبتى أن المسألة لم تتجاوز هذا الحد . . .

وقبل جبينى ، ومسح على شعرى . . . ولكنى قلت له وأنا أنظر إلى رباط عنقه وقد جلست على الفراش ، ورحت أداعب عقدته بأصابعى :

ــ يبدو أن الحادث جاء نتيجة اضطراب أعصابى ، ولم يأت اضطراب أعصابى نتيجة الحادث . . .

ولم أدر فى تلك اللحظة لماذا قلت ذلك . كنت أسمعه وكأن أحداً غيرى هو الذى يفكر ويتكلم حسب خطة موضوعة لا علم لى بها . . . .

وصمت عونى صمته حين يدخر كلماته إلى أن يسمع كل عناصر القضية . وسمعت المتكلمة بلسانى تقول . وأصابعى تعبث بعقدة رباط عنقه :

ــ الحقيقة أنى منذ مدة يا عونى وأنا أشعر بتوتر أعصابى . أشعر بسأم شديد يزهدنى فى الحياة كلها . . . يزهدنى فى كل شىء . . .

وابتسمت الماكرة ، ورفعت نظراتها من خلال عينى إلى وجهه وقالت :

ـ فى كل شيء عداك أنت طبعاً . . .

وابتسم عونى ابتسامته الهادئة التى أعرفها وقال بسخرية رزينة :

ـ نحن حين نسأم الحياة . . . نسأم كل شىء . . . حتى ذات أنفسنا . . .

مرحى ! إنها تستحق هذا الزجر الخفى لما حاولته من الهزؤ بذكائه ... ولكن الشيطانة لم ترتدع وقالت بخبث . إنها تعرف متى يجب أن تتراجع ومتى يجب أن تسلم . ما أبرعها !

ـ ربما . . . لا أدرى على كل حال . أنت أعرف منى بخبايا النفوس . . . المهم أنك فهمتنى . . .

وربت الرجل الطيب على رأسى وقال برفق :

ـ طبعاً يا حبيبتى طبعاً . . .

وثبتت نظراتها ـ من خلال عينى ـ فى عينيه وقالت بهدوء وثبات تامين من غير أن تفكر فى الرجوع إلى رأيى فى المسألة :

ـ ليتنى أغير الهواء قليلا . . .

فرفع عونى حاجبيه وقال :

ـ أين ؟ . . . .

وخفضت الملعونة نظراتها وأخذت تعبث بأزرار صداره وقالت :

ـ لست أدرى تماماً . . . ولكن ليتنا نسكن على الشاطئ . . .

ـ فى الروضة ؟ فى الزمالك ؟ . . .

واستمرت أصابعها تعبث بأزرار الصدار وقالت بتخاذل :

ـ مثلا . . . لا أدرى . . . ربما . . . أو ربما الأوفق أن نستأجر

مسكناً ثانياً . . .

ــ مسكناً ثانياً ؟ . . . بالإضافة إلى هذا . . . ؟

ــ نعم . . . مسكن نحتفظ به طول العام مثل الكثيرين جدًّا من الناس . . . على شاطئ البحر فى الإسكندرية . . .

وصمت عونى لا يدرى بماذا يجيب ، فأدركت أن ذهنه لم ينضج بعد للموافقة ، فأسرعت « ترفع الجلسة » وتؤجل النظر فى الموضوع :

ــ هى فكرة . . . لا أدرى . ربما كان إرهاقى الذى حيرنى أمره هذه الأسابيع الأخيرة هو الذى دفعنى لهذا التفكير وقد عجزت عن إيجاد مخرج آخر . . . هيا نتغدى . . . وربما غيرت رأيى بعد سهرة جميلة مثلا هذه الليلة . . . نزهة أو تغيير وقتى من أى نوع . . . .

وقبل عونى جبينى ولم يتكلم . . . كانت قبلته تعبيراً كافياً عن استعداده لكل شيء ، ولأى شيء . . . فى سبيل التسرية عنى . . . .

٢٩

شعرت بارتياح لاكتشاف تلك الممثلة الفطرية التى تكمن فى أعماقى . . . وانتهيت بأن أسلمها قيادى . لأننى فكرت وأنا أقطع اللحم قطعاً صغيرة جدًّا فى طبقى على مائدة الغداء ، أننى مهما قلبت المسألة على وجوهها فما كنت حرية أن أجد حلاً لها خيراً من هذا الحل الموفق السعيد . . الفرار من الميدان إلى جو جديد . بعيداً عن كل شيء . . عن الاثنين

كليهما . وأين يتيسر ذلك إلا فى الإسكندرية ؟

هناك ، أمام البحر المتجدد سأحس أن كل شىء يمكن أن يغرق أو يذوب . . . أعد ذلك الذى حدث فى لحظة حنان شيئاً لم يكن له وجود حقيقى . . . شيئاً من قبيل الأحلام التى تنسى فى تيار اليقظة .

ذلك وحده ، أو الجنون !

هذا هو الحل الوحيد أمام ما لا يمكن تصديقه . . . أمام الكوارث التى تكذب كيان حياة كاملة وتهدم منطق عمر كامل . . .

لم يكن وفائى كذباً . لم تكن استقامة خلقى كذباً . . . الازدواج أمر غير ممكن لامرأة مثلى تمقت الأكذوبة وتحتقر الرياء . . . .

يجب أن تسقط من حياتى هذه اللحظة الغريبة . أو تسقط بها كل حياتى كقلعة من الرمال . . .

هناك على الشاطئ سأبنى البيوت من الرمال الندية ، ثم أترك الموج يأتى عليها ويجرفها . أما هنا . فى قلبى . فيجب أن يكون لى كيان أجدر بالاحترام من هذا البناء المنهار . . .

هذا إذن أو الجنون . . .

ما حدث لم يكن ، لأنه ما كان ليعقل أن يكون . . .

ما حدث لم يحدث لى . . . بل لأخرى ، أعرفها . ولكنها يستحيل أن تكون أنا ! . . . وقطع الصمت صوت عونى الذى احترم سكوتى طويلا وأنا لا أشعر بالوقت ومروره :

ــ أين تريدين أن نسهر الليلة ؟ . .

فرفعت إليه عينين باسمتين فى إعياء وقلت :

ــ نسهر ؟ . . . ولماذا لا نخرج الآن ؟ نذهب إلى النادى مثلا، ونتناول الشاى هناك ، ثم نذهب إلى ملهى من ملاهى شارع الهرم . . . ؟

ورحب عونى بالفكرة ، على تعلقه الشديد بضجعة القيلولة ، وأظهر تلهفه على الخروج . . . كعادته كلما فطن إلى رغبة لى . ولا شك أنه أدرك ضيقى بالبيت. . . .

وفى الطريق إلى النادى بدا على الضجر ، وقد تمثلت الحديقة ، والوجوه المألوفة . . . واضطرارى إلى تبادل التحيات والابتسامات . . . والأدهى من هذا كله اللواتى يصررن على التحية بالقبلات . . . وليست بى اليوم طاقة لقبلات . . .

ووضعت يدى على ذراعه الأيمن وهو يقود السيارة وقلت :

ــ إننا لم نذهب إلى السينما منذ أجيال . . . ما رأيك ؟ . . .

فنظر إلى بتساؤل وقال :

ــ الآن ؟. . .

ــ ولم لا . . .

وتناسيت أنى طالما ضقت ذرعاً بحفلات الماتينيه (من الثالثة إلى السادسة). وتناسى هو أيضاً أنه يعرف مبدئى هذا . وحول الاتجاه إلى الشارع الذى به دور السينما فى الضاحية ، ولكنى وضعت يدى مرة أخرى على مرفقه وقلت :

ـ ليس هنا يا عونى . . .

ـ أين ؟ أتريدين مشاهدة فيلم معين ؟

ـ كلا . . . ولكنى لم أشاهد منذ مدة فيلماً فى سينما كبيرة . حفلات الساعة الثالثة هنا كلها تلاميذ صاخبون . . .

ولم يحاول أن يذكرنى أن حفلات سينما المدينة على نفس المستوى . . . بل اتجه فى صمت إلى المدينة . . وأدار الراديو فى الطريق الواسع ، ثم وضع يمناه على كتفى وضمنى إليه . . . ولم أقاوم طبعاً ، ولكن شيئاً فى التصاق كتفى بكتفه كان يحمل معنى الانكماش . . .

وأيقنت أنه فطن . ولم يظهر لى شيئاً . . . ولكن بعد قليل ، عندما احتاج إلى يمناه كى يغير السرعة ، لم يعدها إلى كتفى . وظللت أنا ملتصقة به ذلك الالتصاق الظاهرى الذى ينطوى على انكماش وتباعد . . .

هناك فى ظلام السينما لن أضطر لمواجهة عينيه ، ولا عيون أى إنسان . . . سيكون الظلام سائداً . ويتسنى لى أن أندمج فى المناظر الغريبة عن عناصر وجودى . . . .

ولكن لاشيء غريب عن عناصر وجودنا حين تكون نفوسنا مسرحاً لمأساة ! أعفانى الظلام من العيون . ولكنه لم يعفنى من الصور التى تزدحم بها الشاشة المضيئة . . . حيث كانت جوان كراوفورد ، فى نضوج السن واستواء العمر ، تتوله فى حب فتى غض الأهاب .

وبدأت أتململ ، وأنظر فيما حولى . . ولكن الصرخات العاطفية التى

تشبه نداء الغاب جعلت تطاردنى . . . . وتطرق جوانب دماغى بلا رحمة . . .

وملت على عونى وقلت له همساً : « يظهر أن هذه النظارة لم تعد تصلح لى ... أصابنى منها صداع فظيع .. » .

وكأنما كان ينتظر هذه الإشارة ، فنهض واقفاً ، ونهضت وسرت خلفه إلى ضوء النهار . . . وركبت السيارة إلى جواره من غير أن أرفع عينى إليه . وقبل أن يدير المحرك تطلع إلى وجهى فى قلق وقال وهو يدفع بالابتسام إلى شفتيه دفعاً : « إلى أين تريد أميرتى أن أذهب بها ؟ . . »

وابتسمت فى تخاذل وإعياء ، ثم قلت : « حيث تريد . . . » فسألنى : « ألا نشرب الشاى فى حديقة جروبى ؟ »

أف! بين كل هؤلاء المتكلفين والمتكلفات وأرباب المعاشات المتأنقين؟

ــ مكان مزدحم يا عونى . . . . أفضل أن نذهب إلى لوك . . . فالعدد هناك محدود ، وفى المكان ما يوحى بأن الإنسان فى بيته . .

ولم يتكلم . أدار المحرك وانطلق . . .

وشربنا هناك الشاى فى صمت . . . إلى أن حركت الموضوع المؤجل منذ الظهر . وضعت على فمى أرق ابتسامة وقلت :

ــ أتذكر ساعة الشاى فى أتنيوس ، والشمس تهم بالغروب فى البحر ؟ . . . ما أجمل هذه المدينة . وما أجمل لحظات تقضى فيها . . . .

وومضت عيناه وميض من فطن إلى شىء يدبر ، وقال وهو يثبت

نظره فى حركة يده وهى تدور بالملعقة فى الفنجان الأخضر لتذيب السكر :

— مكان جميل فعلا . . . ولكن هل تعتقدين أنى أطمئن إلى سفرك الآن وحدك ، وأنت بهذه الدرجة من الضيق والتوتر ؟ . . . وحالة العمل فى الوزارة لا تسمح لى الآن بإجازة . اصبرى قليلا . . . أسبوعاً آخر مثلا ، وعندئذ أدبر إجازة يومين أو ثلاثة ، أو أسبوعاً ، ونذهب معاً لنشرب الشاى قدر ما تشائين فى شرفة أتنيوس ، والشمس تهم بالغروب فى البحر ، وراء القلعة الصفراء . .

ولم أجب . جعلت أنا الأخرى أقلب السكر الذى ذاب منذ مدة ولم يعد بحاجة إلى مزيد من التقليب . لأنى لم أستطع أن أقول له ما كان يدور فى حلقى ولهاتى : « دعنى أذهب وحدى . . . فأنت أيضاً أحتاج إلى أن أفتح عينى فلا أراك أمامى برزانتك وثباتك الذى لا يتزعزع . أريد أن أهرب من نفسى يا رجل ، ولا أحد يذكرنى بنفسى كما تذكرنى أنت . . . »

لم أستطع أن أقول له شيئاً من هذا . وضايقنى أن ذكاءه قصر على إدراك الموقف . ولكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وهل باستطاعتى أن أحمله فوق ما يطيق وأطالبه بأكثر مما يستطيع ؟

إن لم يكن ما أريد ، فلأرد ما يكون . . .

ورسمت على وجهى كل أمارات الامتنان حتى بدا أنى أهم بعناقه على الملأ ، وقلت له :

ــ صحيح ؟ . . . كم أنا سعيدة . . . !

ــ فى استطاعتك طبعاً أن تصبرى هذا الأسبوع . . .

ــ طبعاً . . بل يخيل إلىّ أن مجرد الوعد خفف من ضيقى . . . هيا بنا . . . لنذهب إلى شارع الهرم . فلنطف بالشوارع . . . ثم لنسهر هناك فى ملهى . . . لنشرب ونضحك ونهرج ... هيا.. هيابنا .

وارتسمت على محياه عدوى البشر والحبور ونهضنا ، وأنا أقول فى نفسى لم يبق إلا أن أعالج الأمر علاجاً مؤقتاً . سأمتنع عن الذهاب إلى المعهد ... سأقضى هذه الأيام على أى صورة . سأخرج طول النهار وأهيم فى المنازه والدكاكين . . لن يعجزنى وضع حد مؤقت للموقف . . .

وشربت تلك الليلة ، وضحكت من أعماقى ، ورقصت وأنا ثملة مع عونى ، وقذفت جميع الراقصين من حولنا بكرات الورق ولباب الخبز...

ولما عدنا قبيل الفجر إلى الضاحية ، كنت قد نمت فى السيارة على كتف عونى. وأيقظنى أمام البيت . وما وصلت إلى الفراش حتى انطرحت فوقه . وبصعوبة خلعت ثيابى ولبست قميص النوم . وهو يساعدنى . . . كأنه أم تبدل ثياب وليدها المغلوب على حواسه بالنعاس . . .

ولم أفتح عينى إلا وقد طلعت الشمس منذ ساعات طويلة . كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة . وعونى الآن فى مكتبه بالوزارة . وحسن كالعادة يؤدى عمله فى تباطؤ وينتظر يقظتى ليسألنى ماذا يطبخ لنا فى هذا اليوم الجديد . .

٣٠

تمطيت ثم نهضت إلى الحمام . وقد بدا الموقف فى نظرى أدعى للثقة . . .

ومن ثنايا الخدر الذى تبقى من سهرة أمس جعلت أستجمع شتات ذهنى ، والماء البارد يتناثر كاللؤلؤ على جسمى ونظرت إلى تجمعه وتناثره ، فعلمت أن الحلم الذى كان ، يوشك أن يذوب فى تيار اليقظة الجارف . . . وارتديت معطف الحمام إلى حجرتى ، وجلست إلى مرآة الزينة وقد ارتد إلىّ مع التنبه الكامل الذى أحدثه الحمام البارد شىء من الانقباض والتخاذل . . .

أف للذاكرة . لماذا لا نستطيع أن ننسى كل ما نريد أن ننساه ؟

وواجهت عينى فى المرآة الفراش المزدوج الذى قضيت فيه لياتى وتحريت أن أحدق فيه طويلا ، كانت الصعوبة فى الليلة الأولى ، وقد مرت بسلام . . . فى سكر !

ـ ستجدنى كما عهدتنى دائماً . . . لا شىء فىّ تغير . . . . يجب . بأى شكل . وبأى ثمن . . .

وخطر لى أن أزيد من استعدادى وتحصنى . وقمت تحت وحى اللحظة إلى التليفون وطلبت المعهد ، وسمعت صوت المسيو إلياس الودود :

ــ أهلا أهلا سيدتى . . . الحمد لله على سلامتك . . . طبعاً .

طبعاً ، عندى علم بأنك سوف لا تستطيعين الحضور اليوم . . . أخبرنى الأستاذ خورشيد بكل شيء . وسلامة قدمك ألف سلامة ! . . . . معك حق فى وجوب فحصها بالأشعة . . إن شاء الله سليمة ، ونراك فى أقرب وقت عندنا فى أتم صحة . . .

ووضعت السماعة وأنا أتعجب . ما حكاية قدمى التى أصيبت فى الحادث ؟ لابد أنه اختراع من مبتكرات خورشيد كى يبرر عدم حضورى . ولكن كيف كان يعلم أننى سوف لا أحضر ؟ وماذا كان يضحى موقفه لو أننى دخلت المعهد اليوم فى موعدى . . .

وتخيلته يسرع لتلافى المأزق قائلا :

ـــ الحمد لله . . لابد أن الأشعة أكدت خلو قدمك من كل إصابة . . .

وبذلك يحيطنى علماً بما قاله للمدير حتى لا أكشف موقفه ولكن لماذا قال له ذلك ؟ . . .

ما أحصفه ! فطن بحساسيته الدقيقة إلى أنه يصعب علىّ أن أذهب بعد الذى حدث . . . وهذا فى حد ذاته علامة طيبة . علامة على أنه يقدر صعوبة موقفى وما تؤدى إليه هذه العلاقة من اضطراب فى حياتى لا تحتمله . . . هو إذن ليس الطفل الذى يصعب عليه إدراك الأمور ، وهو مسلم مقدماً بأن « هذا » كان أمراً عارضاً لا يمكن له دوام .

وتنهدت بارتياح . ولكن جرس الباب رن فى هذه اللحظة ،

وأرهفت أذنى عندما سمعت حسن يفتح الباب . . . وما كانت أذنى لتخطئ تلك النبرات الشابة التى أميزها من بين أصوات الناس كافة .

ومن غير تفكير ضممت قب ثوبى ، وأحكمت أزرار الثوب المنزلى الذى كنت قد ارتديته فوق قميص النوم وخرجت إلى البهو وأنا فى شدة الدهشة ، لأرى رجلا يسلم حسن سلة من الأزهار القرمزية اليانعة ، وخورشيد فى فرجة الباب يحيينى بانحناء شديد، ويمد يده ليصافحنى ، ثم يقول لحسن وهو يقدم إليه ورقة من ذات الجنيهات العشرة :

ــ اذهب مع الأسطى يا حسن . فليس معه بقية هذه الورقة ، فاشتر لى علبة سجائر « ألف ليلة » تخين ، واصرف الورقة وأعطه أجره الذى سجله العداد . . .

واستوقفت حسن قائلة :

ــ عندى أنا « فكة » . . . كم أجرك يا أسطى ؟ . .

فنظر إلىّ خورشيد نظرة توسل ضارعة وهو يقول :

ــ دعيه يذهب من أجل خاطرى . . . . فأنا أريد السجائر ،

ــ عندى سجائر .

ــ أنا لا أشرب إلا هذا الصنف . . . أرجوك !

ولم أتذكر إلا بعد أن توارى حسن وراء الباب وهمّ أن يغلقه ليهبط السلم أن خورشيد يدخن سجائر البحار التى توجد فى كل مكان . . فما هذا الصنف الغريب الذى قد لا يتيسر إلا فى مكان بعيد . . . .

وعلى سرعة تفكيرى لم أتم هذا الخاطر ؛ لأن قبلة متلطفة طبعت على معصمى . . . . وتجمعت كى أعيد ترتيب خطتى التى فوجئت بهذا الانقلاب ، توطئة لإيقافه عند حده ، وصرفه من غير ضجة ، ومن غير جرح لإحساسه الرفيق . . . فلا لزوم لشىء من العنف ما لم تقتض الضرورة منتهى الحزم . . .

ولكن الترتيب لم يلبث أن اختل ، وهو يقطع القبلة ويصيح :

— ما أخس بنى آدم ! كدت أنسى الأمانة !

ولم أتمالك نفسى من الابتسام وأنا أراه يضرب جبينه بيده ، ثم يفتش فى جيوبه باهتمام مبالغ فيه ، إلى أن أخرج بطاقة كبيرة مثل بطاقات الدعوة إلى الأفراح ، وقدمها إلىّ بصورة رسمية فكاهية :

— تفضلى يا مدام أميرة ! السلام أمانة ! تحية بخط فارسى جميل بيد البروفسير الخواجه إلياس. . . يبثك فيها لواعج أسفه لما حدث لك ، ويدعو لك بالشفاء العاجل . . .

ثم قلب عينيه وغمز بهما مقلداً إلياس ، فانفجرت ضاحكة . . . .

ثم أخذ يهمس بصوت به بحة كصوته :

— الأستاذ خورشيد أبلغنى الخبر المحزن . . . سلامة رجلك . فداها رقبة إلياس. . . يقصف عمرى ... يحميك لشبابك الله ... يحمى هاالجمال والرقة والرشاقة . . .

ثم بصوته الطبيعى : الخواجه إلياس شاعر . . . عاشق . . . يعبد الجمال . . .

وقطعت الضحك وقد تذكرت اللغز فجأة . . . « ما حكاية قدمي ؟ . . . »

فقال بلهجة خطيرة :

— وهل تظنين المسألة هينة . . . لا يمكن طبعاً المجازفة بالحضور إلى المعهد إلا بعد الفحص بالأشعة . . . ومن يدري ماذا تقول الأشعة . . علم هذا عند الله . . . سلامة قدمك . فداها رقبة الخواجه إلياس وأهله جميعاً . .

ثم بصوته الطبيعي ، وهو يرفع كفي إلى فمه ويقبل باطن راحتي :

— ليس عندي اليوم سوى درسك . وهكذا أعفيت اليوم من العمل ، وأوحيت إلى الأب إلياس أن اللياقة تقضي بالسؤال عنك وحمل سلة ورد هدية من المعهد إليك مع أطيب التمنيات . . . التي لا يليق أن يحملها إليك سوى أستاذك الهمام . . .

وقبل أن أقول شيئاً . كان قد تقدمني إلى حجرة البيانو ثم وقف عند بابها وصاح : « أتمشين . . . ؟ أتجازفين بالمشي ؟ . . . هذا تهور يا مدام أميرة . . . يجب أن تمدي رجلك أمامك . . . هنا على الأريكة . . . »

وجذبني من يدي . . . فتبعته وقد استجمعت إرادتي كاملة لأوقفه عند حده . لأذهب إلى الأريكة . . . أريكة الأمس . ولكن هل يظن أن هذا كاف ؟ سيرى أن الأريكة لا تغنيه شيئاً . .

وعند الأريكة وقفت وقد اختفى من وجهي كل أثر للمرح والضحك ،

وقلت له : « أنت تعلم جيداً أن ساقى كالجن . . . ليس بها شىء . . . »

وتطلع الطفل إلى وجهى مبهوتاً . . . ثم ارتسم الألم على وجهه ، وأطرق إلى الأرض وسكت . . فاعتصر الألم قلبى ، وتناولت يده وقلت له :

— اجلس يا خورشيد . . . هنا إلى جوارى . . .

وجلس إلى جوارى على طرف الأريكة كالطفل المذنب الذليل ، ويده بين يدى ، فوضعت إصبعى تحت ذقنه — كعادة عونى معى حين يسرى عنى — ورفعت وجهه ، فواجهنى نظرة حزينة كسيرة ، فشاعت الرقة فى نظرتى . فألقى وجهه على رقبتى وتشبث بعنقى .

ماذا عساى أصنع الآن بهذا الطفل الحزين الذى لا يريد أن يفطم؟

وبلعت ريقى وخاطبت وجهه المدفون فى عنقى :

— اسمع يا خورشيد . .

فصاح من ملاذه :

— أرجوك . . . اسكتى . . . أنا مدرك كل شىء . . .

ثم رفع رأسه فجأة ووضع يديه على كتفى وواجه عينى بنظرات ثابتة على ما ترقرق فى مقلتيه من دمع :

— لماذا تفعلين ذلك . . . لى . . . وبك ؟

وانكفأ على صدرى وقد تقلصت أصابعه على كتفى وجعل يهتز ببكاء جاف لا أثر فيه للدموع ، فتمزق قلبى وأدركت أن هذا الفتى هو قدرى . . .

وهبطت ذراعاه على ذراعى ، إلى أن تناول كفىّ وقبلهما معاً ، وفى عينيه امتنان لا يوصف . . .

وأشار بعينه إلى ناحية باب المسكن وقال باسماً فى أسى :

— حسن لن يلبث أن يأتى . . . . وقد مهدت بحكايتى للخواجة إلياس ألا تحضرى لبضعة أيام . . . وغداً على الأكثر أكون قد أعددت كل شىء . . . ولن نفترق بعدها . . . سيكون أمامنا كل العمر . . .

وسمعنا وقع الأقدام على السلم ، فأسرع يفتح البيانو ، ثم خلع سترته ، واختفى خلفه . . . فلما فتح حسن الباب الآخر بمفتاحه ، وأقبل علينا بالسجائر والنقود ، شكره خورشيد شكراً وافراً ، بصورة طبيعية للغاية ، زادتنى إعجاباً به . . . ثم طلبت فنجانين من القهوة . . . .

وخرجت معه إلى الباب ، وكان حسن عند مدخل الدهليز المفضى إلى المطبخ ، فهتف به خورشيد يداعبه :

— ها نحن قد أصلحنا البيانو يا حسن . . . إياك أن تخربه مرة أخرى . . . . أنا أعلم أنك تداعب مفاتيحه فى غياب الهانم . . .

— أنا . . ؟

— من إذن . . . المفتاح المعطوب كان أسود يا صاحبى . . . مثل بعض الناس !

وضحك حسن مسروراً للدعابة فبانت أسنانه البيضاء ، وخرجت مع خورشيد إلى السلم ، وتواريت عن فرجة الباب وتأهبنا لعناق محموم . . وإذا حسن ينادى وهو مقبل من الداخل :

ـ يا أستاذ . .. صندوق السجائر يا أستاذ . . . !

وأطل برأسه الضاحك ، وتناول خورشيد السجائر وهو ينظر إلىّ
فى أسى زاده طفولة وعذوبة . . وزادنى حسرة وأنا أراه يبتعد

٣١

قال حسن وأنا أغلق الباب وراء ظهرى فى تباطؤ :

ـ ماذا أطبخ اليوم يا سيدتى ؟ . . .

ولم أجبه فى أول الأمر ، فاضطر إلى تكرار السؤال بصوت أعلى ، فقلت « هه ؟ . . . آه ! أى شىء . . اذهب الآن . . »

وتسلل حسن إلى المطبخ . ودخلت أنا حجرة البيانو ، ويدى على جبهتى .

وتهالكت على مقعد البيانو ، وأخذت أنقر بإصبعى على المفتاح الذى كان أخرس ، وأصبح له الآن رنين واضح ينفرد به فى أذنى . .

وعضضت على شفتى السفلى . .

كان هنا منذ لحظة . ولكنه ذهب . ذهب وترك كل شىء فىّ يدعوه ألا يذهب .

وتحولت ببصرى إلى خلفى . . . ونظرت من باب الحجرة المفتوح . . . نحو باب المسكن . وقع بصرى فى الركن على سلة الورد . تركها الكسول حسن حيث هى . . .

وتعلقت نظراتى بالسلة القرمزية اليانعة. . .

وأخذ عرق فى عارضى يدق دقًّا عنيفاً . . . وبدأ الصداع يطرق جوانب رأسى جميعها فى وقت واحد . ويل لبنى آدم حقًّا من أشواقهم الموءودة . . .

منذ نصف ساعة فقط دخل بهذه السلة . وكنت على حذر . كنت متأهبة لكل مقاومة . كنت مصممة على أن الأمر انتهى . . . .

هل أحب رجل امرأة كما أحبنى خورشيد ؟

هل عبدت امرأة كما يعبدنى هو فى محراب هذا الحب ؟

ناداه كل شىء فىّ . . . وتمناه . . ولكنه أحجم إحجام الفارس النبيل . . . تذكر حسن ، وتذكر البيت الذى له رب .

وأبى إلا أن يكون لعبادته محراب لا تشركها فيه أصنام أخرى ! . .

يالى من مخيلتى !

وصرخ شىء فى أعماقى ، وغطيت عينى . . وقف شعر رأسى . وتوقفت حركة التفكير والتنفس وضربات القلب لحظة . . .

هل هذا ممكن ؟. . .

هل هذا ما تمخضت عنه السماء التى ارتفعت ورفعته إليها ؟ . . .

وجذبت شعر رأسى فى يأس وأنا أشدد إغماض عينى .

ليس هذا هو الذى صورته لى أشواقى وحنانى المتدفق . صورت لى شيئاً آخر . قبلة حنان . همسة حب وأمومة. . .

كانت حناناً محضاً تلك القبلة التى طبعتها على فم طفل جميل لطيف ،

كالأم العابرة التى ألقمت ثديها الوليد اليتيم الساغب الباكى . . .

لكن لماذا أكذب ؟ لماذا أهذى ؟

فردية حنانى أوقعت فى نفسى أن الذى جرى بيننا شىء فريد ، ليس له شبيه بين البشر . . .

ولكن ويلى من تفاهة البشر . هذا قدرهم . . . حتى حين يصعدون إلى سماء الآلهة بعواطفهم ، يكون ذلك على جناح وقوده حرارة الأجساد ...

وأطرقت أكاد أتميز من الغيظ .

ثم رفعت رأسى ونظرت إلى الأريكة فى تحد حانق . . .

ونهضت ملقية رأسى إلى الوراء ، وخرجت من الحجرة إلى حجرة نومى ، وارتديت ثوباً للخروج . . . أبسط ثوب وقع تحت يدى ، ولم أنظر فى المرآة إلا لأمشط شعرى .

ونظرت إلى خف عونى الذى عثرت به فى طريقى ، ثم رفسته فنحيته ، وأنا أبرجم ساخطة عليه . . .

أليست هذه جنايته . . .

أليس هو الذى أصر على ألا يفهم حالتى النفسية أمس ، فاستبقانى أسبوعاً . . . والأسبوع مدة قصيرة يا أميرة تستطعين الصبر عليها ؟ أسبوع مدة قصيرة !

بل ربع ساعة كانت أكثر مما ينبغى !

ما أغبى الرجال . . مهما بلغ مبلغهم من الذكاء والفطنة . . . ويتعجبون لماذا لا يفهمون المرأة !

كنت أدرى منه بدخيلة نفسى . ولكنه تناول الحقيقة المتفجرة ببرود العقل . . . كأنما اللغم شىء يخضع للمنطق والعقل . . .

هراء . . . وبلاهة !

هو الذى جعلنى أسقط . . التمست النجاة فأمسكنى ، حتى واجهت الهزيمة السافرة . . . ولم يعد فى استطاعتى أن أغالط فيها نفسى . . . . تبًّا له !

وصفقت الباب بعنف ، وهبطت الدرج كالمجنونة وأنا أبرجم بالسباب ، وخرجت بالسيارة من الجراج ، وانطلقت أجوب أطراف القاهرة من أقصى ضواحيها إلى أدانيها . . . من المقطم إلى الهرم . ومن حلوان إلى طريق السويس . . . .

وعلى شاطئ النيل ، بعيد الساعة الثالثة ، جلست وأنا أتصبب عرقاً إلى غداء خفيف فوق إحدى البواخر التى أعدت لاستقبال السائحين .

كانوا جميعاً غرباء يتكلمون ألسنة غريبة ، فلم أستوحش بينهم وأنست إلى غربتهم . وأكلت ، وأنا أنظر إلى النيل يجرى من تحتى فى هدوء ، يحمل فى تياره الأسمر بلا اكتراث وبلا تمييز نفايات قصب ، وجيف حيوانات نافقة ، وأوراق أزهار ذبلت ، وأغصاناً مورقة وسفناً ذات أشرعة بيضاء . يجرفها كلها ويحملها ، وهو هو بهدوئه الذى لا يتغير . . .

وبدأت نفسى تهدأ . . .

وتذكرت عونى الذى لا ريب فى أنه الآن قلق لا يدرى أين ذهبت . . .

وهممت أن أنهض لأكلمه فى البيت بالتليفون . ولكن شيئاً فى داخلى استمرأ عذابه وقلقه فى تشف وضيع . فجلست ولم أذهب إلى التليفون .

وفى نحو الساعة الخامسة ، نهضت وركبت سيارتى إلى البيت ، فى الضاحية البعيدة. . .

ووجدت نفسى أصعد السلم فى ثبات ، ولا أفكر أدنى تفكير فى الغضب الذى سيواجهنى به . . .

كان فى خاطرى مذنباً استوجب ما نزل به من عقاب . . . هو الذى دفعنى إلى اكتشاف ضعفى . . . هو الذى أرغمنى على مواجهة الهزيمة وقبولها . . . هو . هو .

وفتحت الباب . . .

ووجدته جالساً فى البهو ، وفى فمه سيجارة . وعيناه تتطلعان إلى فى تحفظ يخفى تحفزاً . . .

ودخلت ولم أقل شيئاً . ودخلت مباشرة إلى حجرة النوم فألقيت حقيبة يدى ، ثم عدت وجلست قبالته ونظرت إليه وانتظرت أن يتكلم. فسألنى بعد برهة بصوت هادئ :

ــ هل تغديت . . . ؟

ــ أكلت . . . وهل من المعقول أن أنتظر إلى هذه الساعة بدون طعام ؟

وأطفأ السيجارة ثم سألنى بهدوء أشد :

— وهل شربت قهوة العصر . . . ؟

وتحطم شيء من غضبي . انكسرت حدته ، وقلت بصوت أرق :

— ليس بعد . . . .

— القهوة يا حسن ! . . . لقد أفزعتني — جازاك الله يا شيخة !

فلويت بوزى قليلا وقلت :

— ألم أقل لك من الأمس إنى سأمانة . . . أريد تغيير الجو . . . .

فقال فى دماثة وملاينة :

— مفهوم . . . ولا اعتراض لى على أى شيء ولكن كان الأجدر بك أن تتركى لى خبراً مع حسن . أو أن تتكلمى بالتليفون . . .

وسكت قليلا ثم قلت :

— لم يخطر لى ذلك . . . كنت مشغولة بضيق أنفاسى عن كل شيء . . .

فقال وكأنه يغير مجرى الحديث : جميل هذا الورد الذى أرسله المعهد تحية لك . . .

فلاحت على وجهى ابتسامة شاحبة وقد أدركت ما يرمى إليه :

« كان الحادث قريباً من المعهد ، ولما اعتذرت اليوم عن الذهاب ، ظنوا أن السبب هو تأثير الحادث ، فأرسلوا الورد . . . وانتهز الأستاذ خورشيد الفرصة وأصلح المفتاح المعطوب . . . »

فهز رأسه ببطء وقال بلا اكتراث فى الظاهر : « حسن قال لى كل شيء » .

ولم أدر ماذا وراء « كل شيء » هذه . . . هل قال له عن قصة السجائر التى غاب نحو عشرين دقيقة للبحث عنها فى دكاكين الحى ؟ ربما . . . . لم يوضح عونى على كل حال ماذا يعنى . . . وأنا لم أستفسر . . . . كنت غير مكترثة . . . وعادت إلى حدة الغيظ منه . . . وإحساسى بأنه السبب فى كل ما حدث لى من انهيار . . . .

وظللت مطرقة إلى أن دخل حسن بالقهوة ، فأشعل عونى سيجارتين ، ووضع واحدة فى فمى ، ثم جلس بجوارى ، وأدنى رأسى منه وقبل صفحة خدى ، فنظرت فى عينيه متسائلة ، ثم أغضيت أمام رقة نظراته . فقال لى ، وهو يتناول يدى ، ويعد أصابعى إصبعاً إصبعاً كعادته حين يدللنى ويهم بإجابة مطالبى : « هل تسافرين الليلة . . . أم أحجز لك تذكرة فى ديزل الصباح الباكر . . . ؟ اسبقينى أنت ، واستأجرى المسكن ، واهتمى بتأثيثه ريثما أحضر إليك بعد أسبوع . . . لنقضى هناك إجازة طيبة هادئة . ستفيدك حركة البحث ، والتسويق . . . وانزلى كالعادة فى فندق لا توريل . فموقعه جميل ، وخدمته حسنة ، والطعام لا بأس به » .

ليته قال ذلك بالأمس . . .

لا بأس على كل حال . . لم تزل هناك فرصة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

— غداً . . . فى أول ديزل . . .

٣٢

كل شيء صاف ، مشرق ، على الشاطئ المهجور . . . وعلى الرمال ، حيث انحسر المد ، بقايا أعشاب قائمة ذات رائحة نفاذة ، طرحها البحر عند انكسار حدته وانسحاب أمواجه . . .

ورنت فى أذنى كلمة عتيقة ، طالما وعتها طفولتى ، عن يوم الدينونة ، حين تنشق القبور ، ويجرر المقبورون أكفانهم . . . والبحر أيضاً يلفظ موتاه . .

ومددت يدى إلى شعرى ، أسوى خصلة منه عبث بها النسيم المالح ، ثم دخلت من شرفة حجرتى الصغيرة بالفندق المطل على خليج استانلى ، وقد بعث رسمه المستدير فى نفسى الرهبة والانقباض ، كمعبد رومانى قديم هجره العابدون ، وطارت عن مدارجه الآلهة ، وتركتها ملعباً للريح . . . .

ودخلت فى شرود إلى الحمام الصغير الملحق بالحجرة ، وبدأت أغسل وجهى ، وروحى خائرة ... وشيء فى داخلى يزهدنى فى البحر الهادئ والشاطئ المهجور ... حتى لقد بدا لى سطوع الشمس ودفء الجو نقيضة تعاب . والحق أننى لم أكن أدرى ماذا أريد . لقد بدأت أندم على حضورى . فالمعركة ليست مكاناً . ليست مدينة . المعركة ميدانها أنا . فمن ماذا هربت ، وها هى نفسى تصحبنى ، وتنازعنى أن أعود . . . ولا يرضيها أيضاً لو أننى عدت ! أين حزنى ؟ لماذا أكذب على نفسى !

إنه لم يكن منذ البداية حزماً خالصاً غير مشوب ! فهناك . فى حقيبة يدى برعم قرمزى اللون ، قطفته يدى وأنا فى أوج حماستى للحسم الباتر ، وأنا متأهبة للنزول فى الصباح كى يوصلنى عونى إلى المحطة . تركته على السلم وصعدت كأنى سأقضى حاجة ، ريثما يخرج السيارة ، وذهبت إلى الركن ، حيث سلة الأزهار الحمراء ، وربت عليها بنظراتى ، ثم قطعت منها هذا البرعم ودسسته فى حقيبة يدى . . . وعدت للحماسة ، والحزم والتجهم . . كأن يسراى لا تدرى ما فعلت يمناى !

المعركة ها هنا . فى داخلى ! هل أريد أولا أريد ؟ هذا هو السؤال . . . وأنا يارب لا أدرى . . . . أنت وحدك الذى تدرى ماذا أريد . . . فهل تطلعنى على ذات نفسى ؟ . . .

ونزلت ، واستقبلت طريق الكورنيش ، وطفقت أمشى ، وأتطلع إلى البحر . . . وكل شىء فى نفسى قاتم ، مكفهر . . . . لا يشبه فى شىء إشراق الشمس وهدوء البحر وصحو الجو . . . .

ونزلت إلى الرمال . . . أثيرها بقدمى الحافيتين بعد أن خلعت حذائى المنخفض الذى ارتديته للمشى الطويل . . . وقلت أبللهما بالماء الملح ، وأتلقى لمساته على كعبى ... فليست لى للاستحمام الآن رغبة . ولا أدرى متى تواتينى على شدة ولوعى بالسباحة فى ذلك البحر كلما وقع نظرى عليه ...

وعن كثب وقفت حاسرة الثياب عن ساقى ونظرت إلى ماء البحر المخضر . . . ثم بصقت فيه . . . ولم يتعكر ماؤه قليلا ولا كثيراً . . . .

وتذكرت أياماً له على غير ذلك الصفاء . . . يرغى ويزبد . . . وأوليته

ظهري عائدة من حيث أتيت ، فعلقت بأصابع قدمي أعشاب مختلطة بقواقع وأسماك صغيرة ميتة . . .

أتراه هكذا لأنه لفظ موتاه هؤلاء ؟ وهل تهدأ أعماقي عندما يتاح لها أن تلفظ موتاها ؟ولكن متى ؟ . . . متى يارب تخرج نفسي موتاها؟ . . . . ماذا يكونون حين يخرجون من أعماقي ويطرحون على الرمال الساخنة ؟ هل يكونون واحداً ؟ أو اثنين ؟ أو ثلاثة ؟

وغسلت قدمي في الرشاش ، ولبست حذائي ، وأنا أتساءل ترى ماذا يصنع الآن ؟ وتراءى لي وجهه حين يجيبه حسن في التليفون أني سافرت ، ولا يدري متى سأعود . . . تراءت لي ملامحه واضحة . وجمدت حركة يدي . وجف ريقي ، وكدت أتعثر في سيري صاعدة السلم إلى الشارع الخالي من العابرين . . .

وحاولت أن أطرد الجني بتعويذة لا تخيب . حاولت استحضار صورة عوني في ثباته الراسي كالطود ، أو كالبحر المترامي الذي لا تعكره بصقات الباصقين . . . ولكن مخيلتي عجزت عن استحضار ملامح عوني ! وألححت عليها ، ولكن الملعونة أصرت على العصيان . . . ؟ أهذه خاتمة سبعة عشر عاماً لا افتراق فيها بالجسم أو الوجدان ؟ أهذا نذير صادق بمن سيكون المطروح على الشاطئ الساخن حين تخرج أعماقي المضطربة موتاها . . .؟

وتمنيت أن يكون هذا . . . ! تمنيته لا عن كراهة . كلا ! ولا عن تفضيل واختيار . كلا ! تمنيته لأن الجواب الحاسم — أي جواب حاسم —

هو الذى أنشده كى أستريح . . .

ليكن هو إذن . أو الآخر . سيان ! أو كلاهما . . . سيان أيضاً . . . . أريد أن أستريح . . . وأن تخرج أعماقى موتاها . . . .

وتعلقت بهذا النذير ، وقلت أجلس فى شرفة « بترو » ، وأتناول طبقاً من « الإسباجتى » الذى يجيد صنعه ، وسمكاً مشوياً ، وأتعزى بالطعام . . .

وركبت سيارة أجرة . . وفى ركنها عكرت علىّ طمأنينتى نفسى المتمردة التى لا تريد أن تهدأ :

– غير معقول أن تكون ملامح عونى قد أصبحت نسياً منسياً ! أنت تخدعين نفسك يا امرأة . . وتنساقين وراء هواك . . . اسألى نفسك الآن ، كيف كانت ملامح رفقى ؟ . . . كم مرة فى السنوات الأخيرة حاولت أن تتخيلى ملامحه بوضوح فاستعصت عليك ، حتى كنت تعودين إلى صورته الشمسية ؟ . . . .

– ولكن رفقى انقضى عليه أمد طويل . وعونى لم أفارقه إلا منذ ساعات . . . .

– أنت تغالطين نفسك . عونى لم ينته من حياتك ... أنت واهمة ... ماذا تظنين ؟ أتظنين أنك لوكان الأمر بيدك ، كنت تسعدين مع خورشيد . تتزوجينه مثلا . . . أو تكونين فى حكم زوجته . . وتنفضى يدك من عونى نهائياً ؟ . . .

وشعرت بغيظ من نفسى . وبرغبة فى تحطيم شىء . . . لأن جانباً من

جوانب حياتى يجب أن يزول ويتلاشى . . أحد الجوادين اللذين شدهما القدر إلى كيانى يجب أن يصعق ، أو يقطع الحبل الذى يربطه بى ، لأن كلا منهما يندفع فى اتجاه . . وأنا أعرف أيهما الذى أستطيع أن أتخلى عنه . . .

ليست المسألة من منهما يجب أن أقصيه ، أو أقتله فى أعماق ، بل المسألة من منهما الذى « أستطيع » أن أعيش بدونه الآن . . . بهما معاً ؟ مستحيل !

وناديت الساقى ، وطلبت زجاجة نبيذ . لابد أن أسكر . . . . فهذه حالة لا يحتمل فيها الصحو . . . وعند السكر يسكت العقل ، وتتكلم الأعماق المظلمة المتوارية عن العيان . . . وشربت . . . وعدت أسأل نفسى : « لماذا لا أعيش بهما معاً ؟ . . . »

ولم تستطع حرارة النبيذ المتصاعدة أبخرته إلى دماغى أن تجعلنى أستسيغ هذا الازدواج . . .

تباً لى ! يبدو أننى امرأة فاضلة بالفطرة ! وهذه أحياناً مشكلة ... ! ما أسعد القادرين على ازدواج الحياة ، فهم أصح تكويناً . . . هم أكثر مطابقة لمنطق الطبيعة ، ما دامت الطبيعة قد خلقت فيهم ازدواج الشعور . . .

وعقدت جبينى بيدى ، ثم طلبت قدحاً من القهوة السادة ، كى أقاوم سورة النبيذ . . . النبيذ الذى لم يسعفنى ، وزادنى دواراً على دوار . . . طلبت القهوة ، وأنا أصب لنفسى القدح الأخير من النبيذ !

لماذا لم ألتق به منذ البداية ؟ لماذا تصر المقادير على هذه التعقيدات ؟ لماذا لم أكن فى مثل سنه ، كى ألتقى به وأنا فتاة . . . وأحبه عندئذ بلا احتجاز ، وبلا تردد ، وبلا ندم . . . .

أف لهذا الساقى ! لماذا لا يسعفنى بالقهوة ؟ . . .

ها هو ذا أخيراً . . . !

ــ قدح آخر من القهوة من فضلك ! . . .

ومن خلال دخان القهوة الساخنة ، وطعمها المر ، حاولت أن أتخيل نفسى عروساً شابة لخورشيد الشاب . . . وتوقف ذهنى عن التفكير فجأة فى تلك الصورة . وجد أمامه سداً . سداً من الواقع . ومن المنطق :

أميرة التى أحبها خورشيد ليست الفتاة الساذجة التى تشبه كراسة بيضاء تشترى مثلها بقروش ، لأنها خالية من كل كتابة . . . أميرة التى هام بها خورشيد وعبدها عبادة ليست كراسة بيضاء . . . هى مخطوطة كتب معظم سطورها رجل ضخم العقل كبير القلب ، فى سبعة عشر عاماً ، وكتب بقية السطور زمن رزقها بطفل ، ثم سلبها الطفل ، بعد أن سلبها القدرة على الأمومة . . . أميرة هذه بعضها أم . وبعضها امرأة واثقة من أنوثتها وبشريتها ، لأنها تقف كالتمثال المرتفع ، فوق قاعدة شاهقة اسمها عونى ! إنه يحب عونى الذى فى داخلى ، الذى صاغ طبعى الشامخ ، وثقتى الراسخة ! عونى الذى أرتكز على صخرته الصلدة العالية . . .

أميرة بغير هذه القاعدة الشاهقة ، قزم أو شبه قزم . . أميرة بغير هذه الصياغة الفذة ، فتاة عادية ، كالكراسة البيضاء ، يخرج المصنع مثيلاتها بالملايين . . . أما المخطوطة فشيء نادر فريد . . .

كان من الممكن أن يخلقني الله في سنه . وأن نلتقي ولست مرتبطة بإنسان . . ولكن كان قصارى أمرنا عندئذ — ويالسخرية ! « عابر يرنو لعابرة تروح وتغتدى . . . » ! أف لهذه المصائر المعقدة !

وجاء الساقي بقدح القهوة الآخر . . . .

ولم يزدني ذلك القدح الثاني قدرة على حل عقدة مصيرى . . . وعدت إلى التعلق بالحيلة السابقة : محاولة تذكر ملامح عوني . ولم أستطع أن أتمثلها . . . وإن استطعت أن أتمثل نظراته الحانية ، ولمسة أصابعه في شعري ، تزيدني هدوءاً . . . وقارنتها بلمسة أخرى . . . .

ما أفظع الفارق !

لمسة كالتيار الصاعق ، تتلاشى أمامها الإرادة ! ويعصر قلبي الحنين ، وتبعد عني الهدوء والطمأنينة بعد قطب الشمال عن قطب الجنوب !

أين أنا يارب في هذا الموج المتلاطم ؟

ما أحوجني إلى طوق النجاة كي لا أغرق . . . لو أنني كنت راغبة في النجاة ! ولكن هذه هي المسألة ! أن تطلب نفسي النجاة . . . وعندئذ يكون ما أقربها . . . !

ولكن نفسي لا تريد أن تطلب النجاة . لا تريد . . . لا تريد !

الفراشة تترامى على النار . . . فراشة لها عقل يدرك أن النار تحرقها ، ولكن العقل عاجز . . . والفراشة تتهافت على النار !

هل يمكن أن تخرج أعماق موتاها بعد هذا الثوران الهائج ؟

لابد ! لابد من يوم يخرج فيه البحر موتاه . . . !

ولكن ستكون على الشاطئ الساخن يومئذ أكثر من جثة : وستكون بين الجثث أشلاء فراشة تتهافت فى إصرار على ألسنة النار . . . .

ــ قدح قهوة ثالث من فضلك . . . !

وألصقت جبينى بزجاج الحاجز الذى يحجب هواء البحر البارد عن الجالسين . . . .

ألهذا السبب لا أستطيع أن أتبين ملامحه . وأتبين ملامح خورشيد ؟

ألأنه مصدر الطمأنينة والهدوء ؟ ألأنه اندمج فى نفسى . . . . فصار قطعة منى . . . لم أعد أراه شيئاً خارج كيانى ، مستقلا عنه . . . هو كله هنا ، فى عروقى وأعصابى . . . لم أعد أفكر إلا به . . . وحتى حين أتعثر ، أتعثر به ، وهو جزء منى ؟ وحين أضل وأحار ، يكون معى فى ضلالى وحيرتى ؟ . . . فكيف أطلب ما هو منى ؟

أما الآخر . . . فأطلبه ، لأنه ليس منى بعد . . . أريده ليكون فىّ ، ومنى . . . أريد أن أستوعبه وأضمه لكينونتى . . . .

وعلى بخار القدح الثالث من القهوة المرة ، تراءت لى عيناه الضاحكتان، وخداه المتوردان ، وقد زادت الحمرة نمشهما وضوحاً .

محال ! محال أن أحترق بهذا الضياء الصافى الرقيق . . . !

كلا ! إنه لا يحرق . ولكنه كتيار الكهرباء اللطيف : يصعق !

إنه يشل إرادتى . . . . يجعلنى أتخاذل وأستسلم بلا اختيار . يلغى ذاتى وأنا أطلبه . . . كالخمر المسكر الذى يدب فى الأعضاء . . . ولا يستطيع إنسان يحترم نفسه أن يعيش مخموراً على الدوام ، أو يرتب حياته على أن يظل مخموراً . . .

إنسان محترم !

هذه هى المسألة أخيراً : أحترم نفسى أو لا أحترمها ؟ ... أما معه، فالمسألة : أعيش أو لا أعيش ؟ . . .

يجب أن اختار . . . يجب أن أستجمع عزيمتى . . .

هل أختار العبودية . . . أم أدفع ثمن حريتى ، ليكون زمام أمرى فى يدى لا أستجيب للمسة من أصبع فتى جميل عزيز ؟

وثمن حريتى : أن تخرج أعماقى موتاها . . . موتى أعزاء . . . . يقتلهم التيار العاتى ، ثم يلقى الأشلاء الجميلة على الشاطئ الساخن . . . الثكل مرة أخرى ، بعد عشر سنين !

هذه هى المسألة . . . .هذا هو ثمن الاحترام . . .

وانتصبت واقفة وناديت الساقى ، ودفعت ثمن الطعام والشراب ، ولم يفتنى أن أمنحه هبة سخية . . ثمن احترام !

٣٣

الأوركسترا من ورائى يعزف لحناً لا أعرفه . البخار الحار يتصاعد من فنجان الشاى . وأمامى من خلال النافذة قرص الشمس الأرجوانى وقدهم بالغوص فى اليم . . .

— هو الذى حطم مناعتى . . . وضعنى وجهاً لوجه أمام ضعفى ورغبتى . . . مزق الستار الذى كان يخفى حقيقة أعماقى عنى . . . حتى صارت المسألة الآن مسألة كرامة . مسألة انتصار شاق يحمل كل خسائر الهزيمة . معركة أنا الغالبة فيها وأنا المغلوبة . كل هذا جناه على . . . لأنه لم يدعنى آتى إلى هنا قبل أربع وعشرين ساعة . .

— هيه . . . وماذا كان قبل أربع وعشرين ساعة ؟

— كفى غباء ! أنت تعلمين أن العبرة ليست بالأفعال ، بل ببواعثها ، الأفعال رموز لعواطفنا وأفكارنا . . . وذلك فعل نبع عن قوة وغنى وبذل . كان إعطاء ولم يكن استسلاماً . كان حناناً ورأفة ولم يكن رغبة واحتياجاً . إ لم أكن فيه الطالبة . . . المنادية . . . التى يعذبها الحرمان . . . أى غباء وأى غفلة فى التعلق بالظاهر المادى للأفعال ؟! . . . فى ذلك اليوم الأول كنت هاربة كى أحميه هو من نفسه ، واليوم أنا الهاربة لأحمى نفسى من نفسى بلا جدوى اشد ما أكره عونى لهذا . . . لهذا وحده ! لقد هدنى ، وهو الذى شاد كيانى !

– أهى رغبة حس ؟ ألم تكونى راضية مرضية فى كنف عونى !

– هراء . ليس رغبة حس ما بى ! أنت أول من تعلم أننى لم أجد بين ذراعى خورشيد شبع حواس . . . . ذلك الذى كنت أجده دواماً بين ذراعى عونى . . . لست الملوك الجائعة إلى اللذة يا امرأة . . . أنت تعلمين هذا ! وإنما هى رغبة النفس . رغبة القلب . لذة الشعور بأننى كل شىء عند إنسان ما . . . إننى صرت لدى هذا الإنسان حاجة جوهرية لم يعد فى استطاعته أن يعيش بدونها . . . أنا الشمس التى بغيرها يذوى عوده الناضر . أنا الهواء الذى بدونه يختنق . . . أما الآخر ، فإنه البحر الذى أنا السمكة الذهبية فى لجته . . . أنا التى أعيش به . . . ولكنه من غيرى يظل هو البحر فى مده وجزره . . . مامات فى أعماقه يلفظه على الشاطئ ثم ينحسر إلى آفاقه لا يغيره شىء ! . . شد ما أنفس عليه هدوءه ، واكتفاءه ، وقوته . . . وأنه ليس محتاجاً لى – مثل حاجة خورشيد – كى يرفع رأسه ويتنفس ويعيش ! . . .

– مرحى مرحى ! لقد بدأت المسألة باحتياج الفتى إليك كى يعيش ولا يذوى عوده الناضر – وا حسرتاه ! . . . ثم انتقلت فى أقل من ليلة ونهار إلى احتياجك أنت إليه . . . احتياج الصنم إلى المؤمن به المتعبد إليه . . .

– بالضبط ! وإلا انقلب الصنم من شىء قدسى إلى حجارة تربط إليها الدواب ، أو يبول عليها كلب عابر ، أو – على الأكثر – توضع للزينة فى حديقة . . أو صالون !

– شىء جميل . . . خذ كل هذا جسدى كى تكون لك به حياة ، وتكون بالتهامك إياه لى قداسة وألوهية . . . إذ أمنحك الحياة ! مبارك اسمك بين العاشقات ، أيتها المضطجعة باسم الحب ! . . . .

– السخرية تمسخ ، وتقتل . . . ولكنها لا تستطيع أن تغير الحقائق . . . أنت تعلمين هذا . وتعلمين أن الذى قلته حقيقة . . .

– لا شك عندى فى هذا ! المسألة هى أن فتى رفعك من مصاف البشر إلى سماء الآلهة ، إذ اعترف لك أنك رددت إليه إنسانيته وانتشلته من مدارك الحيوان . . وأنت الآن تجدين غضاضة فى التنازل عن عرش الآلهة ، والارتداد إلى مصاف البشر . . . .

– غضاضة ؟ كلا ! بل ليتنى أستطيع . . . المسألة أنى لا أستطيع ، فهناك إنسان يتحطم بهذا التحول . . .

– جراح الشباب سرعان ما تلتئم . . . لاتبالغى فى القلق عليه . . . المسألة أنك تحبينه . . . حبا أقوى من الجنس . أقوى من الجسد . . .

ووضعت رأسى بين يدى . . . . والمطارق التى لا ترحم تدق جوانبه ، والكلمة التى مرت بخاطرى وأنا على مائدة الغداء فى مطعم بترو ترن فى أذنى :

– هو الثكل مرة أخرى . . . . بعد سنوات عشر !

وأحسست بالرغبة تعاودنى فى الشراب . ففزعت . . . إنه الطريق المفتوح إلى الإدمان . إلى طلب العزاء بالهروب إلى دنيا من الوهم والتحسر .

– وليس هذا طبعاً ما يتفق وعزة الآلهة . . . !

– كانت الآلهة تشرب رحيقها المشهور ، النكتار . . . .

– كان ذلك للمرح والقصف والسرور ، ولم يكن للعزاء والتحسر . . . .

– لن أشرب على كل حال . . . لن أشرب !

وأشعلت سيجارة ، وحاولت أن أصغى إلى الأوركسترا التى كانت تعزف الآن ألحاناً راقصة ، يرقص على أنغامها نفر من الشبان .

وأشحت بوجهى عنهم ، ثم غادرت أتنيوس بعد قليل . . . فوجدت الهواء على طريق الكورنيش أمسى بارداً ينفذ إلى العظم ، فركبت سيارة أجرة . فى الطريق تذكرت أنه لم تبق معى سجائر . فاستوقفت السيارة عند محل بقال ، ونزلت أشترى سجائر . وأنواعاً من الجبن والزيتون . فربما جعت والليل طويل مع الوحدة والبرد . . . ثم داعبت نظرى زجاجة تقف مزهوة وسط الواجهة الزجاجية . . . فأشحت عن الرقابة المتربصة فى أعماق تنبهنى إلى قرارى منذ دقائق . واشتريت الزجاجة أيضاً ، واستأنفت طريقى إلى الفندق وأنا أشعر بسرور مريض لأننى أطلقت لرغبتى العنان ، ولم أتقيد بشىء فى مواجهة الوحدة والليل . . .

وفى الحجرة الضيقة التى تساعد على الدفء وتقلل من وحشة الوحدة ، جلست فى قميص النوم على الفراش ، وزجاج الشرفة مقفل ، وأشعلت سيجارة ، ورحت أنظر للبحر فى تشف . وأمامى الكأس أمد إليها يداً . ولكنى أعلم أنى أستطيع فى أى لحظة أن أتناولها فلا يردنى عنها راد . . .

وبدأ القمر يطلع . . . وبدأت أنوار مراكب الصيد التى تبحث عن سمك المياس تنتشر على صفحة البحر . . البحر الذى ارتفع له مع الغروب موج ، وخربر جياش . . . .

وشربت أول كأس . . . وأشعلت سيجارة ثانية . . . وبعد الكأس الثانية سألت نفسى والابتسامة الخبيثة تتلاعب على فمى :

— أيهما كنت أتمناه أنيساً فى ليلتى هذه البيضاء ؟ . . . .

واحتجت إلى كأسى الثالثة . . . وتلمظت معجبة بجودة الشراب ، قبل أن أجيب : « مع أحدهما ، كنت أسكن مخلدة إلى صدره ، وأنام . . . وهو يرمقنى بنظرة تدليل . . . وقد سكن فىّ كل جائش ، ولم يعد لى فى شىء أرب . . . والآخر . . . »

وصببت لنفسى كأساً رابعة ، وأخذت أنظر إلى لونها الذهبى الصافى فى ضوء المصباح ، ثم مددت ساقى كالمسترخية . . . .

— لم أكن لأنام . . . أنفاسه كانت ستهدأ فوق صدرى ، ثم ترنق عيناه للنعاس ، وأنا أداعب بأناملى شعره الأشقر المبتل بالعرق . . . ينام ورأسه فوق كتفى ، وأظل أنا ساهرة ، أنظر إلى القمر . . . ولا أشتهى النوم . . . فمن أعطى ليلة كهذه لا يبذلها للنعاس . . . بل يحتشد لها صحوه كله . . . حتى لا تفوته فيها همسة .

وجعلت أصابعى تداعب الوسادة . . . ثم قبلتها . . . وأخذت أضحك من نفسى وأضحك . . . وأضحك . . ثم نمت منكفئة على وجهى ، ولم أتنبه إلا وقد لسعنى البرد فى ساقى العاريتين ، فقمت وبى

صداع شديد ، وجذبت الغطاء على جسمى ، ثم استغرقت فى نوم تمزقه الأحلام المختلطة ، حتى الصباح . . .

ومع أولى أشعة الشمس ، دخلت الحمام، ووقفت تحت الرشاش أنظر إلى جسمى ، وفى ذهنى سخرية شديدة من ليلتى : « صباح الخير أيتها المراهقة ! . . . »

ولم أحر جواباً . . . فقد تراءت لى تلك الليلة غريبة على . كأنها حدثت لامرأة أخرى . أعرفها . ولكنها ليست أنا . . . وقطبت حاجبى . أهذا شأنى كلما أنكرت على نفسى أمراً أقدمت عليه ثم وجدته لا يليق باحترامى لنفسى ؟ . . . ألم يكن هذا إحساسى أيضاً بعد تلك اللحظة المنطلقة على الأريكة فى حجرة البيانو ؟

ولكن تلك أنا . . . لا حيلة فى ذلك . ولاجدوى من التمنيات . ولاحيلة أيضاً فى الإنكار أننى اليوم غير تلك التى قضت ليلتها فى الشراب . . . أنا الآن امرأة عارية تحت الرشاش فى حلقها طعم الرماد ، وفى رأسها صداع . وليس فى نفسها رغبة فى شىء . تريد أن تكون وحيدة . مع الشمس وعيون الناس .

خورشيد ؟

إنى على الأقل لا أدرى بالضبط ماذا كنت أقول له وكيف كنت أتصرف معه لو ظهر أمامى الآن فجأة . . . أكبر ظنى أننى كنت أسدل الستار « الكريتون » وأقول له بلهجة طبيعية :

— انتظرنى فى البهو . سأنزل إليك بعد خمس دقائق . . . .

ولم أستطع أن أتصور شيئاً وراء ذلك . ليس فى نفسى شىء معين أريد أن أقوله له ، أو أسلوب معين أقضى به معه النهار . . . . آه ! ربما طلبت منه أن يأتينى بقرص من الأسبيرين أتناوله مع القهوة ، ثم أقول له فى مرارة :

ـــ أترى ؟ ليلة واحدة من السهر والانفعال والاستجابة لدعوة القمر والكأس تركت هذه الحلقات السوداء تحت عينى . . . لا تضيع يوم إجازتك عبثاً . . . اذهب وامرح مع فتاة من سنك !

مجرد كلام . . . فهذا هو الغيظ يتملكنى لتصور ذلك الخاطر . . .

ولبست ثيابى ، وعالجت ما استطعت السواد الذى تحت عينى ، ثم نزلت وفى عزمى أن أقضى اليوم مع سمسار للبحث عن المسكن المطلوب .

٣٤

مر يومان وأنا أبحث . صممت على المشى طول الوقت. لبست الحذاء المنخفض لهذا الغرض ، وظللت أصعد السلالم وأهبطها ، وأركب المصاعد وأتفقد دورات المياه من الصباح إلى الغروب ، بلا توقف ، إلا ساعة أتناول فيها الطعام . . . وفى بترو دائماً . لأنى كنت مصممة على السكنى فى المنطقة التى تبدأ بسان استيفانو وتنتهى بالمنتزه . . .

وفى الليل ؛ لم أكن أجد متسعاً للتفكير فى شىء سوى النوم .

والنوم كان يواتيني بلا تفكير . . . وفى صباح اليوم الثالث عثرت على ضالتى . واستأجرت المسكن وبدأت أفكر فى شراء الأثاث له . . .

وبدأت الطواف بمحال الأثاث المستعمل وصالات المزاد ؛ كى أشترى ما أستطيع بالممارسة ، أو عن طريق المزايدة . . .

كان قوتى الأساسى فى هذه الدوامة هو السجائر . . . ولم أكن أعود إلى الفندق إلا فى الليل . . . وأنظر إلى الزجاجة التى بقى فيها ثلثها ولا أجد فيها أدنى إغراء . . .

وذهنى كأنما قد تبلد ، وخلا من كل شىء عدا الأثاث ، والألوان ، والأقمشة . . . أجد فى التفكير فى هذه الجمادات راحة كاملة . أما البشر فلم تعد بى حاجة إلى التفكير فيهم . . . حسبى الآن الجمادات . . . . ، والحمام الساخن فى الليل ، ثم النوم العميق إلى الصباح . نوم بلا أحلام . وحتى إن كنت أحلم ، لم أكن أذكر عند يقظتى من الأحلام شيئاً . . . .

وجاء يومى السادس فى الإسكندرية دافئاً ، وقد تم إعداد البيت ، ونقلت إليه حقيبتى ، بعد أن أخطرت عونى بالعنوان . . .وكنت قد فكرت فى اليوم السابق أن أكلمه فى التليفون لأحدثه عن المسكن . ولكنى لم أجد فى نفسى رغبة لذلك الاتصال الشخصى بأحد . . . لم أكن واثقة من اللهجة التى أكلمه بها . ولم أجد فى نفسى ميلا للتفكير فيما يناسب من اللهجة والكلمات ، ومالا يناسب . . . فأرسلت برقية بالتفاصيل . . . .

وفى ذلك اليوم السادس — يوم الخميس — حملت منشفتى وذهبت إلى الشاطئ ، ونزلت البحر ، وأنا فى حالة سكون نفسى لا أدرى مدى عمقه ، ولكن كان حسبى ظاهره المسالم . . . وسبحت ، وتركت جسمى للماء . . . ثم تركته على الرمل للشمس والهواء . . . وقد غطيت وجهى بصحيفة الصباح التى لم أجد عندى رغبة فى قراءة أكثر من عنوانها . . . .

وفى الساعة الثانية عدت إلى البيت ، ولم أزل أستغرب جدته . حتى لقد وجدت فى نفسى خجلا من العرى فيه أول مرة ذلك الصباح . وأرسلت البواب فجاءنى من الفرن بالسمك الذى كنت أعددته للشى . . . وجاءنى يتحلب له ريقى . . . ونظرت إلى الزجاجة التى بقى فيها ثلثها . . . ثم صببت لنفسى كأساً . وقبل أن أرفعها إلى شفتى ، رن الجرس .

ونهضت لأفتح الباب وقد وثب قلبى بين ضلوعى : « عونى ! »

صحت هاتفة باسمه وتعلقت بعنقه . وشعرت وقد وقع بصرى عليه أننى كنت أفتقده حقًّا وصدقاً . . . مع أننى بالأمس فقط تحاشيت أن أسمع صوته فى التليفون !

حقيقة أخرى لاحيلة فيها !

ووضع يديه حول وجهى وجعل يتفحصنى فى هيام . . . نعم فى هيام لا فى حنان فقط . . . ثم طبع على فمى قبلة . . . وأغمضت عينى . . . وقلت اخلع ثيابك . . . واغسل وجهك لنأكل . . .

ونظر إلى الكأس والسمك المشوى الشهى ، ثم نظر إلى وجهى بإعجاب

وقال : « خلقت وثنية يا امرأة . . . تقدرين مناعم الحس . . صاحبة مزاج ! »

واحمر وجهى . . . واحتضننى . ما أشد حلقة ذراعيه حول كتفى ، وخصرى . ما أحر قبلته الطويلة على أصل عنقى . . .

وهمست وأنا ألهث : « كم افتقدتك يا عونى » . . .

ولم يتكلم . . . كان فمه يجوب صفحة وجهى ، وعينى . . . وأصابعه تجوب معاطفى وكأنها لاتصدق أننى بين يديه . . .

وازداد خفقان قلبى ، وتخاذلت ساقاى ، وقلت فى ضعف وعدم اقتناع « الطعام يا عونى . . . كل السمك قبل أن يبرد . . . »

فنظر فى عينى نظرة عتاب عابثة :

وسكت . . . .

ولما رفع الكأس إلى شفته ، وقد صار السمك بارداً كالثلج ، قال فى تهكمه اللذيذ :

— برد السمك . . .

ونظرت إليه معاتبة . . . .

— سآتى بكأس ، مادمت أخذت كأس . . .

ونهضت ، فجذبنى من ذراعى عنوة ، وأجلسنى .

ونظرت إليه فى عتاب مر . . . . وألقيت رأسى على كتفه وعانقته ، ولم أعد أطلب من الدنيا شيئاً . . . حتى ولا الطعام . . . كنت أريد فقط أن أظل هناك ... مكتفية ... راضية ... مخلدة إلى صدره ...

وإلى النوم الذى أخذ يدب إلى أوصالى المسترخية . . .

وصحوت من ضجعة القيلولة ، وبى أثر من سكر معنوى لا يصحبه صداع . ووجدته بجوارى مفتوح العينين ، ملتصقاً بى ، وذراعه تحت رأسى . . . وابتسم: « ألم تجدى أوسع من هذا السرير ؟ كأنك أردت أن تنامى فيه وحدك ؟ . . . »

وقبلت فمه حتى لا أتكلم . . . لأننى لم أفكر أن ينام فيه سواى حين اشتريته . . . وضربنى على خدى ضربة خفيفة وقال : « عسى ألا تكونى نسيت شراء البن للبيت الجديد يا امرأة . . . »

ووضعت يدى على فمى . فقد نسيت ذلك فعلا . . . وما العمل فى قهوة العصر ، ولها عنده قيمة عظيمة . . .

وضحك ، وقال وهو يضربنى على خدى ضربة أخرى : « وهل كنت سأدخل عليك البيت الجديد ويدى فارغة ؟ هل أقل من نصف كيلو بن مطحون يا امرأة . . »

— أيها الأنانى : لم تفكر إلا فى نفسك !

— بل لم أفكر إلا فى نسيانك . . . ألم أزل قائماً بوظيفة الذاكرة لك ؟ !

وشربنا القهوة . . . ثم قال وهو ينهض ليرتدى ثيابه : « أين نسهر هذا المساء ؟ »

فقلت وأنا أتطلع إليه ، أتفحص ملامحه حتى لا تروغ منى حين أحاول تذكرها :

— حيث تريد !

— الشاى فى أتنيوس ؟

— كلا من فضلك ! إلا هذا !

فقهقه وقال :

— إلى داخل المدينة إذن . إلى . . .

— لاتقل لى . . اجعلها مفاجأة . . . أنا صديقتك وقد التقيت بى هنا فى الغربة . . . لقاء مختلساً . .

وقرصنى فى خدى ، ثم انطلق إلى الحمام ليحلق لحيته ويستعد للخروج . وانصرفت أنا أيضاً إلى الحمام بعد قليل . وكان يهم بمغادرته ، فوجدت عناء فى إقناعه إلا يعود إلى الحمام . . . .

ووقفت تحت الماء . . . فلم يسمح لى صوته بالتنبه إلى باب الحمام الذى فتح ، ووقف فى فرجته عوفى يلتهمنى بعينيه . . . وفاضت نفسى بالرضا . . .

وفى السهرة شربت . وثملت . ورقصت . . . ورفعت عقيرتى بالغناء . . . والناس من حولنا يضحكون . ومعظمهم من الأجانب فى ذلك الملهى الليلى . . .

ومع تباشير الفجر عدنا إلى البيت . وقد ظللت نائمة فى السيارة على كتفه . فلما صعدنا إلى المسكن ، كانت عيناى مفتوحتين .

وفى الضحى ، وقف أمامى يوقظنى . . . ودهشت لما رأيته ، فقال مترنماً .

ــ جرح الغرام على خديك مندمل . . .!

واحمر وجهى ، فجذبنى من ذراعى وقال :

ــ أمامنا اليوم فقط يا امرأة نقضيه معاً ، قبل أن أعود إلى مكتبى فلا تضيعى الوقت فى النوم . . .

وانطلقنا قبيل الظهر نتشمس ، ثم أخذت حماماً طويلا فى البحر ، وعونى جالس يحرس الملابس على الشاطئ وهو ينظر إلىّ وفى فمه سيجارة . . .

وفى المساء سألنى : « أين نسهر الليلة ؟ . . . » فقلت له : « لارغبة لى فى الخروج . . . لماذا لا نقضى السهرة هنا ؟ تقرأ لى ، أو نسمع الإذاعة ، أو أى شىء . . . » فهز رأسه وقال وهو يرمينى بنظرة نهمة : « أنا أفضل فى الواقع (أى شىء) على القراءة . والإذاعة . . . »

وعلى أريكة من الطراز الأسيوطى جلسنا إلى جنب ، ورأسى فوق ذراعه اليسرى ، وفى يمناه ديوان « أبى ماضى » يقرأ لى ، ونشرب من كأس واحدة ، ويقبلنى . . . قبلات معظمها فى مفرق الشعر ، وصفحة الخد . . . وكان ذلك حسبى ، لأنى كنت قانعة بجواره ، لا أريد وراء طمأنينة صدره شيئاً . . . ودقت الساعة منتصف الليل ، ونهضنا إلى النوم . . . « اضبطى هذا المنبه الصغير الجميل ، كى ألحق قطار الصباح الباكر . » . فنظرت إليه معاتبة : « لماذا لم تأخذ إجازة أسبوعاً كما وعدتنى ؟ »

فمد أصبعيه وداعب بينهما طرف أنفى وقال : « إن أميرتى لم تكلمنى

مرة واحدة بالتليفون . فكيف أفرض نفسى عليها ؟ »

فمددت شفتى متغاضبة ، فجذبنى بين ذراعيه . . .

ودقت الساعة الواحدة صباحاً ، قبل أن نستسلم للنوم . . . .

ورن المنبه فى السادسة ، وصحونا وفى الرأس بقية كبيرة من النعاس . وبدأ يعد حقيبته على عجل . . .

وتخيلت نفسى وحدى بعد رحيله . . .

لقد عاد . . . عاد ملء نفسى ووجدانى ، لم أفكر فى شىء سواه وأنا معه فهل أعود إلى القلق ، والحيرة ؟ . .

لقد تعلقت بطوق النجاة . فهل أفلته لأصارع الموج وحدى ؟ ولأستحث ذاكرتى أن تبرز لى ملامحه فتأبى . . . .

لن أبقى . . .

وتراءى لى وجه خورشيد بعيداً ، واضحاً ، وسط ضباب . . . . يشمل جسمه كله . . .

ــ جراح الشباب سريعة الالتئام . . ! لن أفلت طوق النجاة. . .

وعاد من دورة المياه ليجدنى أعد حقيبتى بسرعة ، ففتح عينيه محملقاً ، فقلت بهدوء : « سأعود معك . . . »

وانفرجت أساريره بالرضا ، ولم يتكلم . . . ولكنى كنت أحس أن فرحه بقرارى هذا كان فوق كل تعبير . . . .

وفى القطار جلسنا متلاصقين ، ولم نتكلم إلا قليلا . كلاماً عابراً . والصحف تشغل معظم انتباهنا . ولكنى كنت فى حالة بين اليقظة

والنوم . . . وكلما اقترب القطار السريع بى من القاهرة ، زاد إحساسى بأن هناك مشكلة أصعب مما كان يخيل إلى حين قررت العودة . . .

وبدأت أستنجد عزيمتى . لارجوع مهما اقتضى الأمر !

وقبيل محطة القاهرة دسست ذراعى فى ذراعه وقلت برجاء :

« عونى ! . . . »

فنظر نحوى وعلى وجهه تساؤل . . .وقد أحس فى صوتى الاهتمام . . .

« أريد منك شيئاً . . . »

— مرى . . .

— اعتذر تليفونياً عن العمل اليوم . . .

فظهرت عليه الحيرة . . .

— أريدك أن تبقى معى اليوم . لنحتفل وحدنا بعودتى .. . بتجدد إقبالى على الحياة . ألايستحق ذلك أن يكون يوم احتفال . . .

ونظر إلى من حولنا ، كأنه يعتذر لى عن عدم تقبيلى فوق جبينى ، ولكنه استعاض عن ذلك بتشديد ضغط ذراعه على ساعدى ، فأجبته بضغط شديد من أصابعى على عضلات ذراعه . . .

— ليكن !

٣٥

الساعة بعد العاشرة . . . وأنا أدخل بيتى كأنما أتيت من رحلة بعيدة . والشمس تزركش من خلال نقوش الستار أرض البهو . . . وابتسامة

حسن تلمع . وهو يمد يده ليحمل الحقيبتين من البواب الذى صعد بهما . . .

ــ أسرع يا حسن . أسرع . الأستاذ ينتظرك فى السيارة لتمضى معه إلى السوق . . .

وومضت عيناه . لأنه شم فى الجو رائحة وليمة من النوع الممتاز . . . .

هل يكون عدد الضيوف كبيراً ؟ . . .

فقلت بلهجة غامضة :

ــ لا أظن . . . اثنان فقط فى الغالب . . .

وظهرت الحيرة على وجه حسن . . . وقبل أن يفتح فمه ليسأل عن شخصية الضيفين ، كان نفير السيارة يدعوه بإلحاح ، فحمل سلته الكبيرة ، وأسرع يهبط السلالم فى ضجة . . .

وتهاديت إلى حجرة النوم ، فخلعت حذائى ، ووقفت أنظر فى المرآة ، كأنى أتعرف على وجه قديم لأرى ما أصابه من تغير ، ومططت شفتى فى شىء من السأم المختلط بالحيرة والقلق . . . ثم شغلت بالسمرة البادية على بشرتى . وارتميت بعد ذلك بملابسى على الأريكة الكبيرة الحمراء المواجهة للفراش ، ونظرت إلى السقف . هذا السقف الذى طالما تطلعت إليه فى سنوات طويلة ، من غير أن يتغير وجهه الأبيض الشاحب . . وفى آخر مرة طلينا البيت ، خطر لى أن أغير لونه إلى لون العاج ، أو اللون الوردى ، ولكن عونى رفض بحدة ، وحملق فى وجهى متعجباً :

ــ لقد ألفت هذا اللون الأبيض. . . وسأشعر بالغربة إن تغير هذا

اللون ... سأستحى أن أتعرى أمامه وأنا أخلع ثيابى ...

وكتمت الضحك يومئذ من هذا الرجل الكبير الذى يشعر أنه تزوج لون السقف أيضاً . . . لايستحى أن يتعرى أمامه ويستحى أن يتعرى أمام لون آخر . . . . !

ورن جرس التليفون . ودق قلبى . ترى من المتكلم ؟ . . . .

وأسرعت أرفع المسماع . ولم أسمع صوتاً . فقلت :

آلو . . . آلو . . .

إلا أن الاتصال انقطع قبل أن أسمع رداً، فوضعت المسماع وأنا أهز كتفى فى غير مبالاة . . . . ولكنى فى الواقع أحسست قلقاً . وبدأ ذهنى يعمل بسرعة فى الاتجاه الذى كنت أروغ منه منذ وصلت : فى اتجاه خورشيد .

حيلة مألوفة من حيل العاشقين .

لاشك أنه استخدمها عشرات المرات . وكلما سمع صوت حسن ، أسرع بوضع المسماع . ولكن لماذا وضعه الآن إذن وقد سمع صوتى ؟ . . . مسألة محيرة ! . . .

هل خانه صوته أمام المفاجأة ؟ هل أراد أن يعرف وجودى ، ثم بعد ذلك يرتب أمره ؟ هل ظننى مريضة ؟

محال ! لابد أنه أحس بعنصر التغير فى الموقف بالنسبة له . لابد أنه شعر برغبتى فى البعد عنه . لابد أنه . . .

ورن جرس الباب . . .

ووضعت يدى على شعرى أسويه . إن عونى له مفتاحه . . . وحسن

له مفتاح الباب الآخر . . . لعله الكواء وأنا أزعج نفسى بغير طائل . . .

وفتحت الباب ، لأرى وجهه مكفهراً ، وعينيه غائرتين ، فيهما اتهام صامت ويكاد جمرهما يبعث الشرر . . .

وكان واضعا ذراعه على الجدار ، وذراعه الآخر وراء ظهره . . . وتنحيت عن الباب . ودخل من غير أن يتكلم . . .

وأشرت بيدى إلى أريكة فى البهو فجلس وشبك أصابعه بين فخذيه ومال بجسمه إلى الأمام ، وحدق فى وجهى وهو صامت .

واضطربت. أدركت أن مستقبل حياتى كلها متوقف على صمودى أمام هذه النظرات . إن ضعفت الآن ، فلن أملك زمام نفسى بعدها أبداً . . .

ويئس أخيراً من أن أبدأ بالكلام ، فقال بصوت أجش من حلق جاف : « أين كنت . . . ؟ »

وبدت نبراته حادة ، ذات أسنة كالحراب . نبرة رجل يحاسب ويتحفز فى اللحظة التالية أن يصفع . لهجة مالك، صاحب أمر وسلطان!

وتجمعت إرادتى كلها فى لحظة واحدة. تجمعت بغير مجهود . كأنها كانت مغلولة مقيدة ثم تحررت فجأة من عقالها. . .ووجدتنى أبتسم ،وأتكلم وأتحرك بلا حرج ، وبلا اضطراب كأنى ممثلة عريقة فوق خشبة مسرح ، تحفظ دورها عن ظهر قلب . كنت أقوم بدور ربة البيت . دور المضيفة المجاملة . . .

ــ فى الإسكندرية. . . ليتك تنتهز فرصة وتذهب إلى الشاطئ

فتمضى هناك بضعة أيام . . . سيجدى ذلك على أعصابك بصورة لا تتخيلها . . .

وحملق فى وجهى كأنه لا يصدق عينيه وأذنيه . أهذه أميرة حقاً . . . ولكن ابتسامة ربة البيت المجاملة لم تتغير ، وفى براءة تامة قلت له :

— عن إذنك . . .

وتوجهت إلى حجرة المائدة ، وفتحت الثلاجة ، فوجدت فيها تفاحاً فأتيته بثلاث تفاحات فى طبق وأحضرت معها سكيناً . ووضعتها بكل هدوء ، ونظرت فى عينيه باسمة وقلت له : « تفضل . . . . »

ثم حولت عينى عنه وهو لم يزل ذاهلا يحملق فىّ ، واتجهت إلى ركن البهو ، ورحت أعيد ترتيب المقاعد ، وهى بغير حاجة إلى ترتيب . . .

— أميرة . . .

والتفت نحوه فى دهشة طبيعية للغاية ولم أتكلم . . . .

فأخذ يدق الطبق بالسكين فى إيقاع منتظم مع مقاطع كلماته :

— لماذا فعلت بى هذا ؟ . . .

فابتسمت وهززت رأسى كمن تذكرت شيئاً كنت نسيته تماماً وقلت :

— آه . . . هل تعنى . . . . ؟

ولم أتم كلامى . . . بل استدرت إلى ناحيته ونظرت إليه قائلة :

— كل تفاحة . . . التفاح فاكهة جميلة . . . أحرص دائماً على وجودها فى البيت . مفيدة جداً للأعصاب . . . تصور . . .

وضحكت وأنا أضع يدى على عينى وأندمج فى تذكر الأمر العجيب، وأنساق فى روايته غير ناظرة إليه وكأنه ليس هناك سؤال معلق لم أجبه عنه :

ــ عونى حين يأرق فى الليل يكفى أن أنهض وآتيه بتفاحة أقشرها وأقطعها ، وأضع القطعة فى فمى ، ليأكل نصفها من بين شفتى . . . فلا يلبث أن يذهب عنه الأرق ، وينام . . .

وكأنما هذه الذكرى شيء مضحك للغاية، فاستلقيت أضحك فى قسوة بالغة وقد أغمضت عينى ، ووضعت يدى تحت ذقنى . . . كأنه موقف تمثيلى ختامى يصلح أن يسدل عليه الستار . . .

ونزلت الضربة على وجهى . . .

لم تكن طعنة . . . كانت ضربة كما يضرب المعلم التلاميذ بحد المسطرة . ولكن الحد كان من الصلب . كان حد سكين الفاكهة ذات المقبض الفضى المزخرف . . .

ــ اضحكى ! اضحكى الآن ! اضحكى !

ثلاث ضربات . . .

وماتت الضحكات المتقنة القاسية فى حلقى ، وأخذ الدم يتدفق من ثلاثة شقوق فى صدغى الأيسر . . . .

وشهقت ، واتسعت حدقتاى فى حملقة مجنونة ... فى الشرر الذى يتطاير من عينيه . . . ثم أغمضت عينى فى فزع ، وارتميت على الأريكة ، ويداى على وجهى . . .



وانقض على صارخاً :

ارفعى يديك عن الجراح ! . .

ووضع منديله على الدم المنبثق .... ثم تلفت حوله مذعوراً ، كأنه ينشد شيئاً . . . لايدرى ما هو . . . .

ـ صبغة يود . . . أليس لديك هنا صبغة يود ؟ . . .

وانفتح الباب . فاستدار ناحيته ووقف وذراعاه مسترخيان إلى جانبيه فى ذهول . . . وحملقت أنا أيضاً ، ويداى على المنديل الذى أخذ الدم يفيض عنه . . . .

وفى فرجة الباب وقف عونى . . . .

لم يتحرك . لم تضطرب فيه عضلة . جمدت ملامحه فى جد صارم، وبإيماءة بطيئة مهيبة من يده ، أشار إلى خورشيد نحو الباب المفتوح . . . فتحرك خورشيد على الفور ، كالمنوم . . . وابتلعه فراغ الباب ، من غير أن يلتفت يميناً أو يساراً . . . أو يفكر فى النظر إلى الوراء . . .

وأقفل عونى الباب بهوادة ، ثم تقدم نحوى ، ورفع المنديل عن الجراح ، وأنا مستسلمة ، من غير أن ينظر فى عينى . كانت نظراته كلها مركزة على خدى الجريح . . . .

وابتعد من غير أن يتكلم ، واتجه إلى التليفون . . . وسمعته يحدث صديقاً حميماً من الأطباء . . . ثم عاد إلىّ ، وأخذ بيدى فنهضت معه إلى الحمام ، فوضع خدى تحت الماء البارد . . .

ولم نلبث أن سمعنا خطوات تصعد السلم فى سرعة فائقة . وفتح عونى الباب للصديق الطبيب أيوب .

وفحص الجراح الثلاثة ، ثم نظر إلى عونى متسائلا : فغض عونى بصره ولم يتكلم . . . واختلجت أجفان الطبيب قبل أن يقول :

ـــ إنها لحسن الحظ غير غائرة . . . ولكن لابد من غرزتين لكل جرح . . . مع تخدير موضعى . . .

والتفت نحوى قائلا :

ـــ كيف حدث لك هذا ؟ . . .

وكان قد يئس من الحصول على تفسير من عونى ، ولم أدر بماذا أجيب . . . وأعفانى من الإجابة صوت باب المطبخ يفتح ، وقد حضر حسن يحمل ديكا روميًا يهدر صوته . . . ديك المأدبة احتفالا بعودتى . . . !

ونظر عونى إلىّ نظرة خيل إلىّ أنى لمحت فيها الزراية والعتاب معاً . . . ثم صاح :

ـــ أوقد البوتاجاز يا حسن ، وأعد ماء مغليًّا للدكتور . . . .

وعاد الدكتور للسؤال :

ـــ يجب أن أعرف كيف حدث هذا . . . ألا يمكن أن أعرف ؟

وانحنى عونى على الأرض ، والتقط السكين الصغير الملوث بالدم. ولم يتكلم . . .

وفغر الطبيب فاه دهشة وصاح :

ـــ ولكن لماذا . . . ؟

وجعل ينقل بصره بيننا ، وعونى مغض إلى الأرض . لا أدرى أحرجاً من نظرات الطبيب ، أم عمداً كى يوقع فى روعه أنه الجانى ؟ . . .

ـ أنت تفعل بها هذا ؟ . . . بعد كل هذا العمر من الحب والوفاق ؟ أنتما مضرب المثل . الكل يحسدونكما . . . ماذا جرى لعقلك ؟ . . .

وظل عونى مطرقاً لا يتكلم ، وطرف حذائه يعبث بنقوش البساط وقطع الصمت الشاق صوت حسن عند الباب :

ـ الماء يغلى يا سيدى . . .

ونهض الطبيب وهو يهز رأسه ، وفى يده أدواته ليعقمها ، وعونى لم يزل مطرقاً . . .

٣٦

سكوت . سكوت . سكوت مطبق لا يشوب توتره القاسى شىء : لا نظرة . لا كلمة . لا ابتسامة . لا لمسة .

ميت فى الحجرة جثمانه مسجى بيننا . نتحاشاه فى حذر ، حتى لا تقع نظراتنا عليه ، ولا يجرى ذكره على ألسنتنا . سكوتنا عنه يؤكد وجوده . وليس سوى ذلك السكوت دليل على أنه هناك . . . بيننا .

عونى يتحرك فى هدوء وأناة . بحساب شديد . وكأنه يؤدى عملا رسمياً عادياً ليست له أى صبغة شخصية . يضع يده على جبينى ليتأكد أن الحرارة غير مرتفعة . وإذا لم يستطع التثبت من ذلك بلمس يده فتح

الدولاب بهدوء وأخرج مقياس الحرارة وهزه بعناية ثم دسه تحت لسانى ، وركز عليه نظراته ، بحيث لا تنزلق إلى عينى المسلطتين على وجهه ، كأنهما تتوسلان إلى عينيه أن تلتقيا بهما . . .

وينظر فى المقياس بعناية أيضاً ثم يقول بصوت هادئ ناعم الملمس :

ـ لا ارتفاع فى الحرارة . . .

ثم يسجل ذلك فى المذكرة التى أوصى الطبيب بها . ويجلس فى الردهة الخارجية ، بحيث أراه وأنا راقدة فى الفراش . ويدس وجهه فى كتاب ساعات متوالية ، وهو يدخن بلا انقطاع . . . .

وفى المساء حين يحمل إلىّ حسن خوان الطعام وأنا راقدة ، أراه يقبل من خلف حسن ، ويقف عند الباب ، وعيناه على الطعام . . . ليتأكد أنه كاف ، وأنه لاشىء ينقصنى . ثم يعود أدراجه وهو ينظر فى ساعة معصمه ، فبعد الطعام بربع ساعة يجب أن أتناول قرصاً من أقراص الدواء . . . . وبعده بساعتين أتناول حبة منومة ، لم تكن تجدى معى كثيراً . . .

وبعد موهن من الليل أسمعه ينتقل إلى حجرة مكتبه ، حيث أريكة عريضة يتوسدها ، وقد أعدها لتكون فراشاً له . . .

وكانت نظراتى الموجهة إليه تتحطم على السور الصخرى الذى أقامه حول نفسه ، وهو يتحرك داخل نطاقه بكل طمأنينة وارتياح . . .

وفى اليوم السابع نزع الطبيب الخيوط الجراحية . . . وأسرعت يدى

المرتعدة إلى مرآة لأرى وجهى الجديد . . وفغرت فى ، وتطلعت مذعورة إلى الطبيب .

ثلاثة خطوط واضحة على الخد الأيسر . . .

وهز الطبيب وجهه فى أسف ، وأشاح بوجهه نحو عونى . وأغضى عونى مطأطئاً إلى الأرض . . .

وقال الطبيب بحدة يدارى بها انفعاله الساخط :

ــ ستذهب كل هذه الآثار مع الوقت . . . مسألة وقت لا أكثر . .

ثم خطر له ــ لقلة حيلته ــ أن يقلب المسألة إلى مزاح :

ــ لا يلومن زوجكِ إلا نفسه ! هو الذى أفسد متعته بيده ! لم يضر إلا نفسه بهذا التهور الذى لم يكن مظنوناً به . . .

وظل عونى مطرقاً . . . وجمد لسانى فى حلقى فلم أتكلم ، ويدى تتحسس الندوب الثلاثة التى لن يتمكن الشعر من إخفائها ، لأنها تصل إلى الفم والأنف . . .

مسألة زمن . . .

والندوب الأخرى ؟ . . . والجدار الصخرى ؟

مسألة زمن أيضاً . . . أم هل أخرج بحره موتاه . . . ؟

وبدأت أتحرك فى البيت . وأتولى شئونه الخاصة . أرفو جواربه ، وأغير له قمصانه ؛ كلما خلع واحداً وضعت آخر مكوياً على المشجب . . . .

والسكوت . . . السكوت المتوتر القاسى . . . السكوت البارد كالثلج لا يبشر بانفجار ، يسود بيننا .

وينقضي النهار . ويأتي المساء . . . والسكون شامل ، والجبل في مكانه لا يتحرك ، إلا ليمد يده إلى الصحف على مائدة الإفطار ، أو يمد نظراته إلى سلة الخبز ، وأحياناً إلى يدى وهما تقدمان منه طبق الفول . وتنفرج شفتاه في شرود :

ـ كيف أصبحت ؟ . . .

وأنا في وحدتي لا أتكلم . أنتظر في قلق . . . أهو انتقام ؟ أهو تعذيب ؟ أهو احتقار وهوان . . . ؟

وبدأ السكوت يتمزق من حولي .

رنات تليفون . وأصوات صديقات أو شبه صديقات يسألن عن صحتي . ويستفسرن في شماتة مكتومة :

ـ صحيح يا ريرى ؟ . . . لم أصدق والنبي . . . عوني يفعل بك هذا ؟ . . . لم أصدق . . .

ـ صحيح يا ريرى ؟ حقاً الرجال ليس لهم أمان . . . فتشي عن المرأة يا حبيبتي !

وأمرت حسن أن يقول لكل من تسأل عني أني غير موجودة . . .

وعدت للانتظار . . .

إنه يحبني . إنه ليس جبلا . ليس بحراً لا تعكره البصقات . . . . لونه تغير ، طعم حياته كله تغير . حبي متغلغل في أعماقه . وسيأتي يوم ينهار فيه الجدار الصخرى ، ويتفجر الماء المتجمع وراءه كالسيل . . .

وبدأ ذهني الخبيث يطمئنني . أنا أعرف عوني . لن يطول صبره

على هذه القطيعة . . . وها قد طالت زهاء شهر . . . لابد أن يفلت الزمام منه ذات مساء . . . فلأكن دائماً على استعداد . حتى لا يفتقدنى حين يمد يده نحوى فى صمت . لأنى لن أكلفه حرج الكلام . . .

سيعرف الجسد طريقه . وسيتبعه القلب. وسيذعن لهما العقل فى النهاية . . . لأن الجسد أداة الحياة الطيعة . وعونى يضج كيانه بالحياة . . .

وانتظرت :

وفى لحظات قصيرة من ساعات الصمت والوحدة ، حين يحمل إلى الهواء من بيوت الجيران أصداء موسيقى مما يذاع على الأثير ، كنت أتذكره . . . وأرى عينيه المتقدتين كالجمر ، وأسمع صوته الأجش الجاف . . .

ــ اضحكى ! اضحكى !

ويقشعر بدنى ، وأتحسس الندوب ، وأنهض لأسلى نفسى بالمعاونة فى إعداد الطعام . . .

ولم يجد عونى فى حياته كلها عناية بطعامه وثيابه كما وجدها فى هذه الأسابيع الصامتة صمت القبر ، الباردة برد الصحراء فى ليالى الشتاء . . .

وابتدأ عونى يخرج بعد الظهر . لم يعد يقضى وقته بعد ضجعة القيلولة فى القراءة بحجرة المكتب أو فى البهو . . .

كانت لديه قدرة قاتلة على افتراض عدم وجودى . يجلس فى البهو معى ساعات لا يكلمنى ، ويتحرك ويفتح المذياع لسماع الأخبار أو

المحاضرات الثقافية وكأنى لست جالسة أمامه . . .

وتحرك الأمل فى صدرى . لقد بدأ يضعف أمام جيشان أعماقه . لم تعد له طاقة على الصمود . أخذ يبتعد عن جوارى ، ويسهر فى الخارج . وكان يرى عند عودته النور فى حجرتى . ويعلم أنى يقظانة ، وأسمعه يدخل حجرة المائدة ليجد طعام عشائه فى انتظاره . وقد يصيب منه أو لا يصيب . ثم تسكن كل حركة . ويأوى إلى فراشه بحجرة مكتبه .

ويكون مساء . ويكون صباح . يوماً آخر . . . .

وكيف أصبحت ؟ . . .

والأسلاك الشائكة واضحة فى نظراته تحمى سريرته الجريحة من فضول الغرباء . . .

وتضع يدى طبق الفول المزروج بعناية بدقة السمسم وسلطة الطحينة ، وإلى جوار الطبق كوب القهوة الساخن . . . و . . . .

. . . . والحمد لله . . .

وينصفق الباب . ويرين الصمت على البيت . وأنا أنتظر . . . وأنتظر . . . والساعة الكبيرة تقسم الانتظار بدقاتها فى غير تحيز . . . . ولا رحمة !

بدأ يتزعزع . . . الابتعاد علامة المقاومة . . .مقاومة الالتصاق . . .

وذات ليلة تأخر كثيراً . عاد فى نحو الساعة الثالثة صباحاً . وبابى مقفل ، والنور يشع من زجاجه . . . ليعلم أنى يقظانة . . .

. . . . ثم انتقلت خطواته إلى الحمام . . . وهو ملاصق لجدار مخدعى . .

مخدعنا القديم . . .

وسمعت وأنا راقدة فى الفراش الواسع أصوات قىء . . .

ونهضت مسرعة .

دنت لحظتى . . . هو فى حاجة إلىّ . .

ووقفت خلفه ، أضع يدى على جبينه ، وهو متهالك على الحوض . ولم يرفض جبينه يدى . ولم يرفض كتفه يدى الأخرى ، وأنا أعينه على الوقوف ، ورائحة الحموضة المتخمرة تنبعث من الحوض . . .

لم يكن من عادته أن يشرب . وفى الحوض آثار إفراط . وفى وجهه المكفهر وجسده المترنح آثار إفراط . . . .

ووضعت ذراعه على كتفى ، وأحطت خصره بيدى ، وسرت به نحو الحجرة . حجرتنا . .

وأجلسته على الفراش ، وجثوت فخلعت حذاءه من قدميه ، ونهضت لأجده ارتمى على الوسادة ، فأقمته وشرعت أخلع عنه ثيابه . ثم مسحت له وجهه وعنقه وصدره بماء الكولونيا ، وألبسته جلبابه . وارتمى على الفراش ، وقد ذهب عنه بعض الدوار . .

وحدق فى وجهى بشرود وأنا منحنية فوقه ، ثم أجال نظراته فى الحجرة . وهم أن يقوم ...

ودفعته بيدى فى صدره برفق ، وأنا أنتصب قائمة :

ــ سأنام أنا هناك . . .

فجذب طرف أصبعى بقوة ليمنعنى من الحركة ، فنظرت إليه

بضراعة . وتراخت أصابعه ، وتركنى أمضى . . . .

وتقلبت على أريكة مكتبه ، ولم يغمض لى جفن . . .

ونهضت بعد نصف ساعة ، ووجدته غارقاً فى النوم . فعدت أدراجى على أطراف أصابعى وحاولت أن أنام . . .

ترى أين يشرب ؟ أفى بيوت أصحابه ؟ أفى الحانات العامة ؟ أفى بيوت الريبة ؟ . . .

ورفض كل شىء فىّ الافتراض الأخير . . .

ورفض النوم أيضاً أن يوافينى . . . .

ودقت الساعة ست دقات ، ونهضت إلى الحمام . . . وخرجت منه فأيقظت حسن ، وبدأت دورة النهار فى ساعة مبكرة ذلك اليوم . . .

ودخلت عليه فأيقظته . . .

وما إن تنبه إلى مكانه ، حتى نهض بسرعة . . . كالغاضب ، ودخل الحمام من غير أن يتكلم . . .

وعلى مائدة الإفطار فى ذلك اليوم ، لم يقل لى :

ـ كيف أصبحت ؟ . . .

وكنت أنا التى قالت له ، وأنا أضع تحت عينيه طبق الفول إلى جوار كوب القهوة :

ـ لماذا تشرب فى الخارج . . . ؟

وتطلع إلىّ متسائلا فى فتور . . .

– إشرب فى البيت . ذلك أصون لك !

فنظر إلىّ نظرة استخفاف . . . كأنى لا أفقه ما أخوض فيه ، ثم خفض عينيه إلى الصحيفة وقلبها . وساد الصمت فترة ، ثم مد يده إلى الطعام وقال ، وعيناه مثبتتان فى الطبق :

– وفيم التصون ؟ . . . لم يبق ثمة ما يصان !

ووقعت كلماته كالطعنة المصمية .

وبلعت ريقى ، وتجمعت شجاعتى فى لحظة واحدة . . . . وفتحت فى للتكلم . . . وليس فى ذهنى أى فكرة عما سأقول . ولكنى كنت واثقة أنى سأتكلم . وسيكون كلامى حاسماً . باتراً كحد السيف . لا كحد سكين الفاكهة . . . ، ولكن الكلام لم يخرج من فى . . .

إعصار هب عن يمينى ، فأطاح بالطبق إلى ركن الحجرة حيث ارتطم بالحائط . وأطاح بكوب القهوة ، فارتطم بالركن الآخر . . . وارتفعت قبضته فى تشنج وارتطمت بخده وأنفه . . . وانبجس الدم من خياشيمه قانيا فلوث يديه . . . وبسط أصابعه أمام عينيه كالمذعور ، ثم جذب بهما شعره فتاوث . . . .

وأسرعت بالمنشفة البيضاء أحبس الدم ، وأمسكت برأسه كى يميل به إلى الخلف . . . وصرخت أنادى حسن كى يسعفنى بالثلج . . .

وجاءنى حسن بالثلج ، وهو ينظر إلىّ فى رثاء . . . متحسراً على ما أصاب سيده من انقلاب غير مفهوم . . . منذ ذلك اليوم المشئوم ، يوم العودة من الإسكندرية . . .

ورقد على الأريكة فى حجرة مكتبه ، وحضر أيوب ، وحقنه .
ثم اختلى بى يصبرنى ، ويعرب لى عن إعجابه بتجلدى ووفائى . . .

وخرج أيوب . . . .

ودخلت على أطراف أصابعى . . أجازف مقامرة بكل شىء . . .

وجلست على الأرض وتناولت يده فى يدى وهو راقد . وتريده فى يدى ، بلا مقاومة . . .

ونهضت قليلا ؛ ووضعت فمى على خده .

ورفعت يده إلى شفتى وقبلتها . . . بلا مقاومة . . .

واستدار نحوى ، والتقت عيناه بعينى طويلا . . . وأنا أمسك قلبى بيدى ، وأوجس مما سيقول . . . !

ولم يقل شيئاً . . .

أشاح بوجهه ، وثبت نظره فى السقف الأبيض . . .

ونهضت واقفة وخرجت — كما دخلت — على أطراف أصابعى ، وأغلقت الباب بهدوء . . .

ومرت بعدها الشهور .

ومرت بعدها السنوات .

وأنا فى سكون . . . أنتظر . أنتظر فعل الزمن فى الجدار الصخرى ، وفى سور الأسلاك الشائكة المنبعثة من نظراته ، وهو يسألنى فى غير اكتراث :

— كيف أصبحت ؟ . . .

. . . والصديقات . . . . وأشباه الصديقات يرثين لى حين يزرنني ، ويتحسرن على العين التى أصابتنى . . . ومنهن من تسأل متعجبة :

ـ لماذا لا تتركينه . . . ولك من الثراء ما يغنيك عن هذا الذل ؟ . . .

وأسكت ولا أجيب . لأنهن لن يفهمن .

أسكت ولا أجيب ، لأنى أعرف الجواب ولست فيه بحاجة إلى تأييد أى إنسان.

إنه لم يعد جبلا . لم يعد بحراً أخرج موتاه ولم يتغير . . . .

إنه إنسان . إنسان ضعيف . مطعون . وطعنته لم تمر عليها يد الزمن الآسية . . .

لهذا أبقى . لأنه بحاجة إلىّ كى يعيش ، بحاجة إلىّ كى يعذبنى ويستمد من عذابى الصامد عزاء يواجه به بنيان حياته الذى انهار . . . ، وهو لا يستطيع أن ينسى . لا يستطيع أن يغفر . . .

كان يغفر لو أننى خنته . . .

ولكننى خنت نفسى . لم أعد أنا . . .

هل كان يصدقنى لو قلت له الحقيقة ؟

لا أظن . . .

لأنه لو صدقنى لطالب نفسه بالغفران . وهو عاجز عن الغفران . سيحتقر نفسه حين يكف عن احتقارى . . .

وهو رجل مسكين . . . لا يحتمل احتقار نفسه طرفة عين . . .

والآخر . . .

لا أذكره كل عام مرة . . .

ومنذ سنة تقريباً التقيت فى عيادة طبيب الأسنان بالمسيو إلياس .
وحدثنى حديثاً طويلا وأنا شاردة الذهن عن خيبة أمله فى خورشيد .
وكيف ضبطه مع تلميذة فى الخامسة عشرة يحتضنها فى حمام المعهد ،
وقد خلع بعض أجزاء من ثيابه . .

ولم يجد كلامه فى صدرى صدى . . . وشرد ذهنى قليلا ، ثم
سمعته يقول :

— . . . من كان يتصور أن فتى ذا مبادئ مثله ينقلب إلى النقيض .
صار أفاقاً . . . باع نفسه لامرأة صاحبة صالة رقص ، حيزبون أكبر
من أمه . يعاشرها ، ويدير لها معهداً لتعليم الرقص فى ظاهر الأمر.
أما الحقيقة . . .

ونادانى الممرض لأدخل ، فبادرت مسرورة بالخلاص من غمرات
عينيه ، وصوته الأخنف . . . . .

ونسيت تحت آلام خلع الضرس المعطوب حديث إلياس عن
خورشيد . . . . . .

لقد فعل الزمن بعض فعله فى الندوب . . .

لم يكد يبقى منها أثر . . .

لم يبق منها إلا جدار صخرى ، وسور من الأسلاك الشائكة وفراش
مزدوج نصفه خاو بارد . . .

والحياة طويلة . . . . والانتظار أطول . . . والصبر يبدو أنه بغير نهاية . . .

وأنا دائماً هناك . . . ولولا أنني هناك ، لا أحاول إخفاء عذابي ، لانهار الجبل ، وجف البحر ، ورفرف العدم على كل شيء . . .

وكان مساء . وكان صباح يوماً آخر . . .

وفي غير اكتراث سائل يسأل :

ـ كيف أصبحت ؟

(تمت)

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٣/٢٥٣٦

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

